

ميقات الحج

مكة المكرمة - المدينة المنورة - مكة
بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية
والمجاهدين في الشريعة
والمجاهدين في الشريعة
مكة المكرمة - المدينة المنورة
1435 هـ - السنة 14

١٢



- ❶ التسمية القديمة والحديثة وحده في الشريعة
- ❷ الحج الأفضل في السنة النبوية
- ❸ مكة والمدينة في علوم القرآن
- ❹ توصية السعي
- ❺ رسالة في الطواف
- ❻ مصعب بن عمير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبيوتریة

الفهرس

٥	الفهرس
٧	ميقات الحج المجلد ١٢
٧	اشارة
٧	من كلام الإمام قدس سره
١٢	الامام فى احاديث القائد آية الله السيد الخامنئى
١٣	الراحل العظيم
٢٥	آيات الحج ومناسكه بين التفسير الدلالى والتفسير التطبيقى - فى نظر الإمام الخمينى
٦١	فتاوى الإمام فى الحج
٧٠	الابداع السياسى عند الامام الخمينى قدس سره
٨٢	معطيات الحج ومناسكه فى رؤية الإمام
٩٧	دور الحج فى تحقيق القيادة الموحدة
١٠٧	الامام الخمينى والمشروع الحضارى للحج فى الحرم الآمن
١٢٩	الامام الخمينى قدس سره فى ديوان الشاعر جواد جميل
١٣٦	البعد السياسى للحج فى الرؤية الخمينية
١٦٩	الامة القرآنية
١٨٢	الابعاد الاجتماعيه لمناسك الحج
٢١١	الإمام الخمينى رحمه الله والحج
٢٣٠	كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة
٢٣٨	الحج الابراهيمى - رؤية احيائية جديدة فى منظور الامام الخمينى
٢٦٥	اثر الحج فى الوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية
٢٧١	ابعاد الحج فى فكر الامام الخمينى قدس سره
٢٩٣	فريضة الحج فى نظر الامام
٣٠٤	الحج وأثاره التربوية والاجتماعية والسياسية

٣١٣	وقفه مع مجتمع الحج
٣٢٠	البعد الإجتماعى للحج فى نظر الإمام الخمينى قدس سره
٣٢٨	هموم الوحدة
٣٥٧	تعريف مركز

میقات الحج المجلد ۱۲

اشاره

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج [پیاوند: مجله]
 مشخصات نشر : تهران: منظمه الحج و الزياره، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -
 فاصله انتشار : شش ماه يكبار
 يادداشت : عربی
 فهرست نویسی براساس سال ۳ شماره ۵ سال ۱۴۱۷ ق.
 يادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می شود
 يادداشت : المديرالمسؤول: محمد محمدی ری شهری
 رئیس التحریر: علی قاضی عسکر
 يادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری
 شناسه افزوده : محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

من كلام الإمام قدس سره

ص: ٦

العدد الثانية عشر

من كلام الإمام قدس سره

كونوا يداً قرآنيةً واحدةً.

أيها الحجاج.. احملوا من ربكم نداءً إلى شعوبكم ألا تعبدوا غير الله، وأن لا تخضعوا لغيره..

الإسلام دينٌ عبادته سياسةً وسياسته عبادة.

الحجّ الخالي من الروح والحركة والقيام والبراءة والوحدة،

والحجّ العاجز عن هدم صروح الكفر والشرك، ليس هذا حجّاً.

إنّ صرخة البراءة من المشركين في مواسم الحج هي صرخة سياسية - عبادية قد أمر بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وليست مختصةً

بزمان خاص، وإن انقضى المشركون من الحجاز، فنهضة الناس ليست مختصةً بزمان بل هي دستور كلّ زمان ومكان، وفي هذا

التجمع البشري العام سنوياً تعدّ من جملة العبادات المهمة الخالدة إلى الأبد.

الامام في احاديث القائد آية الله السيد الفاضل

ص: ٧

الإمام في أحاديث القائد آية الله السيد الخامنئي
لابد أن ندعن بمرارة إلى أن الفاصلة كبيرة بين الشكل الحالي لأداء هذه الفريضة الإلهية، فريضة الحج، والشكل المطلوب للحج
الإبراهيمي المحمدي.

الإمام الراحل العظيم وبتيته الخالصة لله تعالى وبعمله الصادق بذل جهوداً جدية وفعالة - طول حياته المباركة - في هذا السبيل، ووضع
نصب أعين الأمة الإسلامية وشعوبها صورة واضحة عن الحج الإبراهيمي المحمدي؛ حج العظمة والعزة، حج الرفض، والتحول والتغيير
سواءً على مستوى الأفراد أو المجتمعات.

وكان طرح الإمام لهذا التصور للحج بحد ذاته مبعث خير وعطاء وبركات وافرة في العالم الإسلامي، إلّا أن نشر هذه الفكرة وهذا
المنهج العملي بين جميع الشعوب المسلمة بحاجة إلى جهود مخلصه يبذلها علماء الدين وينهض بها المخلصون الواعون من هذه
الأمة. وهي بحاجة إلى ما يبيده حكام كل البلدان الإسلامية من تعاون ووعي لهذا المنهج. آمل أن تكون هذه المهمة الحساسة موضع
اهتمامهم وعملهم جميعاً.

الراحل العظيم

ص: ٨

الراجل العظيم

محسن الأسدي

إليك يا روح الله

إلى مَنْ كانت روحه نفحةً من نفحات السماء، وروضةً من رياض الإيمان، ومدرسةً لمبادئ القرآن، ودوحةً للخير والعطاء.
إلى مَنْ ذابت روحه في الإسلام فكان بحق إسلاماً يلوى رقاب الظالمين، وكان بحق إسلاماً ينتشل المعذنين، وكان بحق إسلاماً نصيراً
للمستضعفين.

إلى من ثار فلم يستأثر، وحكم فلم يستبد، وقضى فلم يظلم، ومات فلم يورث.

إلى مَنْ كانت روحه ينبوعاً ينتهل منه الأحرار والكادحون.

إلى مَنْ كانت روحه ملجأً يلوذ به الثوار والمجاهدون.

إلى مَنْ كانت روحه بلسماً لجراح المجاهدين والمعذنين.

ص: ٩

إلى مَنْ كانت روحه ركنًا شديدًا يأوى إليه المستضعفون.

إلى مَنْ خَلَدَ أنشودةً ترددها الشفاء، ويتسلى بها المحرومون والمضطهدون، ويتغنى بها الأحرار والمجاهدون.

إلى مَنْ أرعبت روحه الطغاة والمستكبرين.

إلى مَنْ لم تعرف روحه الخنوع والانصياع إِلَّا لله.

إلى مَنْ كان كلُّ همِّه أن يعالج الجراح الغائرة في الجسد الإسلامي.

إلى مَنْ انتفت من نفسه كلُّ أشكال العنصرية وأحقاد القومية.

إلى مَنْ أراد لإيران أن تكون قلعةً للإسلام، ومثابةً للمجاهدين، وبلدًا آمنًا للمهاجرين و الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إِلَّا أن يقولوا ربنا الله.

إلى مَنْ أراد لإيران أن تكون أمّ القرى وأبى آخرون إِلَّا أن تكون غير ذلك.

إليك يا روح الله بضاعتي المزجاة، فلعلها تفي ببعض ما عليك في رقابنا.

فمقات الحجّ وهى تتربّع فى عامها السادس، تقف اليوم- فى ذكراك المئوية- لتساهم بجهد متواضع قد لا يفى إِلَّا بجزء بسيط من معروفك علينا، ومما لك من دين طوق أعناقنا وفضل قيد أيادينا.

أيها الحى فى نفوسنا، والمائل فى أرواحنا، والمتجسّد فى مشاعرنا.

يا مَنْ فقدنا بفقده الأسوة الحسنه، ويا من خسرتنا بغيابه المثل الأعلى..

ص: ١٠

هيهات سيدي أن نلحق بكبك، فهو ركب الصالحين والمجاهدين!!
هيهات سيدي أن نسمو إلى ما سموت إليه، فكل ما سموت إليه عظيم وجميل!!
فسلام عليك يا روح الله يوم ولدت، ويوم مت، ويوم تبعث حياً.

هوياً الإمام

مقتطفات من حياة الإمام الخميني قدس سره، أدلى بها ودونها نجله المرحوم السيد أحمد الخميني، وأعاد سماحة الإمام تصحيحها.
كانت ولادته حسب ما تفيد الجنسية المرقمة ٢٧٤٤ في عام ١٢٧٩ للهجرة الشمسية في مدينة خمين (ولكن في الواقع في ٢٠ جمادى الثانية عام ١٣٢٠ للهجرة القمرية)

والتاريخ القطعي هو ٢٠ جمادى الثانية المصادف للأول من مهر عام ١٢٨١ للهجرة الشمسية.

اللقب مصطفى، واسم الأب مصطفى، واسم الأم هاجر (كريمة المرحوم الميرزا أحمد مجتهد الخوانساري الأصل الخميني السكن).
محل صدور الجنسية هو مدينة گلپايگان، وموقعه من قبل صفري نجاد مدير دائرة الأحوال الشخصية في گلپايگان.
بدأت درسي بمدينة خمين على يد المرحوم «أبوالقاسم» وأكملت دراستي الابتدائية على يد المرحوم الشيخ جعفر والرحوم الميرزا محمود (افتخار العلماء)، ثم درست المقدمات على يد خالي المرحوم الحاج الميرزا محمد مهدي، وبدأت بدراسة المنطق على يد المرحوم النجفي الخميني، وعلى يد (آية الله بسنديه) السيوطي وشرح الباب الحادي عشر والمنطق على ما يبدو، وشيئاً من المطول

ص: ١١

مسلماً.

وفي عام ١٣٣٩ هـ. ق. ذهبت إلى أراك لغرض الدراسة، ودرست المطول عند المرحوم الشيخ محمد علي البروجردى، والمنطق عند الشيخ محمد الكلپايگانى، وشرح اللمعة عند المرحوم عباس الأراكى.

وفي أعقاب هجرة الشيخ عبدالكريم الحائرى (رحمة الله عليه)، إلى قم فى عام ١٣٤٠ هـ. ق. الذى صادف مع بداية السنة الهجرية الشمسية عام ١٣٠٠، أتممت دراسة المطول عند المرحوم أديب الطهرانى الموسوم بالميرزا محمد علي، ودرست شيئاً من مرحلة السطوح عند المرحوم سيد محمد تقى الخوانسارى وأكملت القسم الأعظم عند الميرزا سيد علي اليربى الكاشانى حتى نهاية مرحلة السطوح، وذهبت وإياه سوية لدراسة مرحلة البحث الخارج عند الشيخ عبدالكريم الحائرى، وأنهيينا معظم بحث الخارج على يده. ودرست الفلسفة عند المرحوم السيد أبوالحسن القزوينى، والرياضيات (الهيئة والحساب) عنده أيضاً وعند المرحوم الميرزا علي أكبر اليزدى، وكان أكثر ما جنيته من فائدة فى العلوم المعنوية والعرفانية من المرحوم الميرزا محمد علي شاه آبادى.

وبعد وفاة المرحوم الحائرى انهمكنا أنا وبعض الأصدقاء بالبحث والتدريس إلى حين قدوم المرحوم البروجردى إلى قم، ومن أجل توجيه الأنظار إليه أخذت أحضر فى دروسه، ومع ذلك استفدت منها كثيراً.

كنت قبل مجيء المرحوم البروجردى إلى قم أدرس المعقول والعرفان والسطوح العالية فى الأصول والفقه، ولكن من بعد مجيئه استجبت لطلب بعض الأخوة ومنهم المرحوم المطهرى وأخذت أدرس الفقه لمرحلة البحث الخارج وتركت دراسة العلوم العقلية، وبقيت على هذا الحال طوال مدة إقامتى فى قم وفى النجف. وبعد هجرتى إلى باريس حرمت من كل هذه الأمور وانشغلت بأمور أخرى وبقيت على هذا الوضع إلى يومنا هذا.

ص: ١٢

اسم زوجتي خديجة الثقفى المعروفة بقدس إيران، وهى من مواليد ١٢٩٢ للهجرة الشمسية، وهى كريمة الحاج الميرزا محمد الثقفى الطهرانى. كان زواجى منها فى عام ١٣٠٨ هـ. ش. ورزقت بأول مولود فى عام ١٣٠٩ هـ. ش. وسَمَّيته مصطفى. ولدىّ حالياً ثلاث بنات على قيد الحياة، إضافةً إلى أحمد وهو من مواليد عام ١٣٢٤ هـ. ش. أسماء بناتى وفقاً لترتيب السن: صديقة، وفريده، وفهيمه، وسعيدة، ومن بعد أحمد بنت أخرى اسمها لطيفة. وآخر ابن لى على قيد الحياة هو أحمد. قراءة فى حياته المباركة

قبل مئة عام، فى العشرين من شهر جمادى الآخرة من عام ١٣٢٠ من الهجرة النبوية المباركة، وفى مدينة خمين التابعة لمحافظة أراك فى إيران ولد روح الله الموسوى الخمينى لأبوين كريمين وفى اسره عرفت بالعلم والاستقامة والفضل والجهاد ومقارعة الظالمين، فأبوه هو آية الله السيد مصطفى الموسوى عالم فقيه تلقى أعلى دروسه فى النجف الأشرف، بعد أن قضى فيها سنوات عديدة حتى نال رتبة الاجتهاد، وعاد بعدها إلى حيث مدينته خمين؛ ليواصل فيها دروسه بحثاً وتديساً كما راح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بقوة وبشكل تميّز به وعرف ذلك عنه، وقد حدى به ذلك إلى أن يخطو خطوات ويتخذ مواقف لم ترق للسلطة يومذاك، فدبر أعوانها وعملاؤها مكيدة أدت إلى استشهاده على أيدٍ غادرة اعترضته حينما كان فى طريقه من مدينة خمين قاصداً مدينة أراك. كان عمره المبارك يوم استشهاد والده رحمه الله عليه أقل من خمسة أشهر، فانبرت لرعايته كل من عمته وهى امرأة صالحة تقيّة وأمه السيدة هاجر التى كانت من أحفاد آية الله الخونسارى، وهى أيضاً سيّدة تقيّة ورعة يعمر قلبها الإيمان، راحت تربي وليدها منذ نعومة أظفاره على مخافة الله تعالى، وقد ظلت هذه الصفة

ص: ١٣

البارزة تواكبه في سلوكه، ولم يتخلف عنها أبداً طيلة عمره المديد.

نشأ سيدنا في كنف هذه الاسرة المحافضة، وتربى على تقاليدها، وتخلق بأخلاقها التي كان محورها تقوى الله، وبفضل الله تعالى ورعاية هذه الاسرة الكريمة راح سيدنا- بعد أن أبصر نور الهداية، وتنشق هواءها العطر، ورشف أول قطرة من مائها العذب- يتسلق شجرة الإيمان ويتفتياً ظلالها حتى وثب إلى أعلاها، فكان بحق ذلك العبد الصالح الأواب، الذي عرف قيمة الإيمان، وتجلّى في قلبه حب الرحمن، فغدا لا- يهاب إلا الله، ولا يخشى إلا عدله وحسابه وعقابه، ولا يرجو إلا رحمته وثوابه، فكان من الذين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، وكان من الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار....

عرف سيدنا رضوان الله عليه بقوة القلب وصلابته في الحق، فراح يواجه الحياة بكل مفاصلها في سرائها وضرائها برأى ثاقب وحكمة عالية خاصة وهو يواجه نظاماً طاغوتياً آزرته كل الدول الكبرى بكل ما اوتيت من قوة.

لقد كانت لمواقفه الجهادية في سبيل الله تعالى- إضافة إلى قوة إيمانه وقوة شخصيته- جذور قوية تمتد بعيداً إلى الطبيعة الجهادية لأسرته وقوة إيمانها، ولما كان يحيطه من ظروف سياسية واجتماعية اكتنفت حياته المباركة، فغدت ملامح الجهاد تصقل شخصيته منذ صباه، وراحت تتكامل في جميع أبعاده العلمية والروحية والسياسية جنباً إلى جنب تطوّر ما حوله من أوضاع وتغيرات سياسية واجتماعية، فخلقت فيه روحاً قيادية عظيمة شكّلت هي مع إسلامية الثورة المباركة عنصرين رئيسيين في نجاح الثورة الإسلامية في إيران وديمومتها..

هذا عن نشأته وإيمانه، وجهاده، أما عن حياته العلمية التي بدأها في مدينته فقد واصل- بعد أن منّ الله تعالى عليه بذكاء حادّ وذهن وقاد وصبر عجيب- دروسه الحوزوية التي كان شغوفاً بها محباً لها، فشرع بدراسة اللغة العربية

ص: ١٤

وآدابها، ودراسة القرآن والمنطق والفقه والاصول وباقي العلوم الاخرى، وواظب على حضور بحوث أساتذته مدينة خمين حتى عام ١٩١٩ م، فانتقل بعدها إلى مدينة أراك؛ ليوصل دراسته الحوزوية هناك قبل أن يأتي إلى مدينة قم لينضم إلى حوزتها عالماً واستاذاً، فساهم مساهمة بارزة في نظم شؤونها، وكان عضواً رئيسياً في الوفد الذي شكل لإقناع آية الله السيد البروجردى بالمجيء إلى مدينة قم واستلامه زعامته حوزتها بعد تفرق كلمتها واضطراب أمرها ثماني سنوات، إثر وفاة زعيمها ومؤسسها الشيخ عبد الكريم الحائري. وظل يدعم - رعاية للمصلحة الإسلامية - زعامه السيد البروجردى طيلة مرجعيته على الرغم من أن هذا الأخير لم يدعم - استجابة لأطراف أخرى - مشروعه الاصلاحى لتنظيم شؤون الحوزة، الذي قدمه مع ثلثة مخلصه من علماء الحوزة يومذاك. بقي عالماً فذاً واستاذاً بارزاً في حوزة قم وفي حوزة النجف الأشرف بعد رحيله إليها، يحضر دروسه ما لا يقل عن ألف شخص حظى بعضهم بمكانة مرموقة في الحياة العلمية والسياسية والجهادية، فيما صار بعضهم من المجتهدين والفقهاء والمراجع في وقتنا الحاضر. وخلاصة الأمر أن هذه النشأة المباركة تركت بصماتها عليه، وعلمته كيف يكون الاعتزاز بالإسلام وبالأصالة، وأن يأخذ بالامّة إلى ما فيه خيرها وسوددها.

حقاً: «إن الله سيبعث لهذه الامّة على رأس كلّ مئة سنة من يجدد لها دينها».

لقد كان سيدنا الإمام الخميني رضوان الله عليه عالماً مجدداً، ومجاهداً عنيداً، وكان ركناً متيناً من أركان الامّة، وكان فقيهاً ومرجعاً كبيراً من مراجع التقليد الكبار، الذين ازدهرت بهم الحوزات العلمية في مدينتي قم المقدسة والنجف

ص: ١٥

الأشرف، وكان زعيماً إسلامياً قلَّ نظيره بل زعيماً فريداً وقائداً فذاً لا يشقُّ له غبار، بسطت له الوسادة بعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة على غياب الزعامة السياسية الدينية، وغياب الدولة الإسلامية عن الساحة السياسيَّة، فكان في شؤون الشخصية والدينية والعلمية والسياسية.. نموذجاً رائعاً للقائد الإسلامي الذي لم تغرّه الدنيا بملاذها، ولم تلنه بمطامعها، ولم يبتغ منها نفعاً، ولم يخرج منها بشيء... ظلَّ هذا العظيم هكذا كفاءات عالية وهمماً دؤوباً وعطاء خصباً ثراً طيلة حياته الممتدة قرابة التسعين عاماً.

كما ظلَّ طيلة عمره المبارك وفيّاً لدينه ومبادئه، يكدح ويكافح بعلمه ومنهجه وجهاده وبمشاريعه وآثاره، التي كان أهمها تأسيسه للجمهورية الإسلامية في إيران.

كانت مواقفه جليلاً، وكانت كلماته وأحاديثه ووصاياه نابغةً من قلب يخفق حباً لله وخشياً منه؛ لهذا كانت مرآة صادقة لسلوكه المبارك وسيرته العطرة وإيمانه وتقواه وزهده وإخلاصه.

كان همّه أن تبقى راية الإسلام مرفوعة خفاقة، لا يحجبها شيء أبداً، ولا يمنعها كيد كائد وحقد حاقد... وكان همّه أيضاً أن تعيش الامة الإسلامية هم الإسلام، وأن تبقى عزيزة كبيرة سيّدة في مواقفها لا تابعة للآخرين ولا ذليلاً لأحد.. وأن تبقى قوية بوجه أعدائها لا ضعيفة ذليلة كما أراد لها أعداؤها والمتخاذلون ممن ينتسبون إليها.

لقد عرف سيدنا دينه وعرف قدره وعرف تكليفه وعرف ما حوله.. وأدرك بكل وعى ودقة مسؤوليته إزاء دينه وإزاء أمته، فتولدت مواقفه وآراؤه من خلال ذلك كله، وتجلّت مواهبه، وصقلت شخصيته، فكان بحق العبد الصالح والعابد الزاهد والعالم المجاهد والرجل الشجاع المتفاني في خدمة دينه وأمته، فاقتدى به

ص: ١٦

المخلصون، وبايعته الجماهير بإرادتها واختيارها وبشكل يبعث على الفخر والعجب؛ لأنها وجدت فيه الإخلاص كله والصدق كله والزهد كله.. واندفع بكامل وعيه لوظيفته الشرعية وللغة عصره وتناقضاته.. لتحمل مسؤوليته السماء وأمانتها على عظمتها وخطورتها.. وراح يشق طريقه بكل ثقة واطمئنان لموقفه وسلامته مهما كانت التضحيات، والصعاب التي نصبها أعداء الإسلام، مستفيداً من كل الطاقات التي حوله، وموظفاً كل المفاصل والمحاور الإسلامية، وما توفرت عليه الشريعة من فرص سواء أكانت عبادية أو غيرها.. وفريضة الحج كانت ولا زالت واحدة من أهم العبادات الإسلامية وأوسعها وأعظمها، رأى فيها موتراً سنوياً عظيماً وقوةً ووسيلةً دينيةً وسياسيةً وإعلاميةً يستطيع من خلالها توعية المسلمين وشدهم إلى دينهم، وأن يضع عنهم إصرهم والأغلال، ومعالجة الجراح الغائرة في جسم هذه الأمة عبر سنين الظلم والحيث والاضطهاد بسبب إبعادها عن منزلتها ومكانتها...

يقول سماحته عن فريضة الحج: «الجميع يعلم أنه ليس بمقدور أي إنسان وأية دولة عقد مثل هذا المؤتمر الكبير، وأن أمر الله تعالى هو الذي صنع هذا الاجتماع العظيم، إلا أنه مع الأسف لم يستطع المسلمون على مر التاريخ أن يستفيدوا من هذه القوة السماوية، وهذا المؤتمر الإسلامي كما ينبغي لصالح الإسلام والمسلمين».

فوضع ثقله فيها وصب جهوده على إقامتها بشكلها القائم على محورين أساسيين:

وحدة المسلمين. وإعلان البراءة من المشركين.

وواصل تحرّكه هذا على كلا المحورين بكل قوة وإصرار.

يقول السيد الإمام في خصوص الوحدة بين المسلمين:

هذه الوحدة التي يؤكدها ويكرزها الإسلام الشريف والقرآن الكريم، ويجب

ص: ١٧

تحقيقها فى الواقع من خلال الدعوة والتبليغ بها بشكل واسع، ومركز هذه الدعوة مكة المعظمة عندما يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج..

الذى يقتلع كل المآسى ويقطع دابر الفساد هو طريق واحد: الوحدة بين المسلمين بل وحدة جميع المستضعفين، وكل المستضعفين والمكبلين بالسلاسل فى العالم.

الحجاج المحترمون الموجودون فى جوار بيت الله ومحل رحمته، تعاطوا برفق ومروءة وإخوة إسلامية مع جميع عباد الله، واعتبروا الجميع ودون النظر إلى اللون واللسان والمنطقة والمحيط منكم، وكونوا جميعاً يداً قرآنيةً واحدةً حتى تسيطروا على أعداء الإسلام والإنسانية.

يجب أن نعلم أن إحدى الفلسفات الاجتماعية لهذا التجمع العظيم من جميع أنحاء العالم توثيق عرى الوحدة بين أتباع نبي الإسلام، أتباع القرآن الكريم فى مقابل طواغيت العالم.

كما حذر سماحته الحاج من مغبة التساهل فى هذا الأمر أو إيجاد خلل فيه: وإذا لا سمح الله أوجد بعض الحاج من خلال أعمالهم خللاً فى هذه الوحدة أدت إلى التفرقة، فذلك سيوجب سخط رسول الله صلى الله عليه وآله وعذاب الله القادر الجبار.

أما بخصوص المحور الثانى وهو البراءة من المشركين فيقول سماحته:

إن إعلان البراءة من المشركين تعتبر من الأركان التوحيدية والواجبات السياسية للحج.. فهل تحقيق الدين هو غير إعلان المحبة والإخلاص للحق، وإعلان الغضب والبراءة من الباطل؟

فحاشا أن يتحقق إخلاص الموحدين فى حبهم بغير إظهار السخط على المشركين والمنافقين، وأى بيت هو أفضل من الكعبة البيت الآمن والطاهر، بيت الناس لنبد كل أشكال الظلم والعدوان والاستغلال والرق والدناءة واللا إنسانية قولاً وفعلًا، وتحطيم

ص: ١٨

أصنام الآلهة تجديداً لميثاقه: ألسنت برّبكم وذلك إحياء لذكرى أهم وأكبر حركة سياسية للرسول، التي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله: وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله... أيها الحجاج.. احملوا من ربّكم نداءً إلى شعوبكم أن لا تعبدوا غير الله، وأن لا تخضعوا لغيره. نعم كونوا دعاةً لله مخلصين له الدين ولو كره المشركون.

وهكذا راح سماحته في كلّ خطاباته يؤكّد على هذين المحورين لهذه الفريضة المقدّسة، ويقف بكلّ قوّة مدافعاً عنهما مندّداً بمن يريد تضعيفهما أو النيل من الذين ينادون بهما، وبقي - رغم شيخوخته ومتاعبه الصحيّة والصعاب الكثيرة، وما تكنّه الدول الكبرى ومؤسساتها وعملاؤها من عدااء لتحركاته، وحقد دفين على الإسلام والمسلمين الواعين - على موقفه هذا حتى آخر عمره الشريف لم يغيّر ولم يبدّل.

فسلام عليه من رجل صبور وقائد جسور، وسلام عليه من راحلٍ عظيم!
الهوامش:

ص: ١٩

آيات الحج ومناسكه ...

آيات الحج ومناسكه بين التفسير الدلالي والتفسير التطبيقي - في نظر الإمام الخميني -

آيات الحج ومناسكه بين التفسير الدلالي والتفسير التطبيقي - في نظر الإمام الخميني -

عبدالسلام زين العابدين

أهم ما يمتاز به تفسير الإمام الخميني للقرآن الكريم أمران أساسيان:

الأول: الأبعاد المتعددة، والاتجاهات المتنوعة، التي تنطلق مع الآيات القرآنية في آفاقها الرحبة، وأبعادها الواسعة التي تتجاوز الفرد إلى المجتمع والأمة والدولة.

الثاني: التطبيق والتجسيد، وهو عملية تلمس المصاديق الحية المعاصرة، والنماذج الفاعلة الحاضرة لما تطرحه الآيات القرآنية.. وهو ما يعرف ب (التفسير التطبيقي).

ويعطى الأمر الأول للتفسير طابع الشمولية والامتداد لكل ساحات الحياة، ومواقع التدافع: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثورية.. فيما يُعطى الأمر الثاني طابع الواقعية والعصرية.. بعيداً عن التجريدية والماضوية.

من هذا المنطلق يأسف الإمام الخميني على تلك النظرات التفسيرية الضيقة للآيات المباركة التي تجعلها محصورة في زاوية معتمة، وبُعد ضيق، وافق قريب لا- يتجاوز دائرة المحلّة التي يصلّون في مسجدها، أو على حدّ تعبير الإمام «لا يتجاوز محور تفكيره محيط المسجد».

ص: ٢٠

فإذا أرادوا أن يطبقوا- مثلاً- آية أكل السحت في سورة المائدة: لولا ينهاتهم الزبانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون، «لا يخطر ببالهم سوى البقال القريب من المسجد الذي يطفف في البيع مثلاً... فلا يلتفتون إلى التطبيقات الواسعة والكبيرة لأكل السحت والنهب، التي تتمثل ببعض الرأسماليين الكبار أو من يختلسون بيت المال، وينهبون نفطنا، ويحولون بلادنا إلى سوق لبيع المنتجات الأجنبية غير الضرورية، والغالية الثمن؛ لكونهم يمتلكون وكالات الشركات الأجنبية، ويملاؤن جيوبهم وجيوب المتمولين الأجانب من أموال الشعب غير هذا السيل».

يؤكد الإمام على هذا النمط المغفول عنه من السحت، بقوله: «هذا أكلٌ للسحت على مستوى واسع ودولي!» كما يدعو الناس- وهم يقرأون آية أكل السحت- إلى تطبيق الآيات في واقعنا المعاصر لتشمل المصاديق الكبيرة، قائلاً: «ادرسوا أوضاع المجتمع وأعمال الدولة والجهاز الحاكم بشكلٍ دقيق؛ لتروا أن (أكل السحت) مرعب يجرى عندنا». وإذا أرادوا أن يفسروا آيات (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ويطبقوها على المجتمع، فإنهم لا يرون المنكر إلّا في «نطاق دائرة صغيرة»، كـ «سماع الموسيقى في الباصات، أو ارتكاب بعض المخالفات في المقاهي، أو تجاهر بعض الناس بالإفطار» في الساحات، من دون أن يلتفتوا إلى «تلك المنكرات الكبيرة»، وإلى «أولئك الذين يقومون بضرب الإسلام معنوياً، وسحق حقوق الضعفاء». ولم تشدّ آيات الحجّ عن تلك النظرة الضيقة لبعض الناس، ممّا أدّى بنا الأمر إلى حصرها في آفاق ضيقة سواء على صعيد التفسير الدلالي أو التطبيقي.

كما لم تشدّ تلكم الآيات عن ذلك المنهج التفسيري القيم للإمام الخميني، بل إنها تشكّل مصاديق بارزة، ونماذج حيّة، تؤكد على طابعي الشمولية والمعاصرة

ص: ٢١

فى منهجه التفسيرى.

ينطلق الإمام فى تفسيره لآيات الحج ومناسكه فى آفاق رحبة بعيدة؛ ليكتشف أبعادها السياسية والاجتماعية والثورية، إضافة إلى أبعادها الروحية العرفانية.

المبحث الأول: آية شهود المنافع

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كُُلٍّ ضامرٍ يأتين من كُُلِّ فجٍّ عميقٍ * ليشهدوا منافع لهم....

لماذا هذا الإعلام الإبراهيمى برفع الصوت بالحج عالياً، والنداء؟

لماذا كل هذا الحرص على حضور الناس وحشدهم فى زمان واحد وفى مكان واحد وفى مناسك موحدة؟

لماذا كل هذا الحشر فى ذلك المكان المقدس الطاهر؟

ما هو سرّ هذا الحشد المليونى الهائل لهؤلاء المسلمين الآتين من شرق الأرض وغربها؟

ما هى المقاصد والأهداف والغايات التى تجعل هؤلاء الملايين من المسلمين يهجرون أوطانهم وأهليهم، ويعطّلون أعمالهم

ومشاريعهم، ليلتحقوا بركب الحجيج المقبلين من أقطار بعيدة، وأصقاع نائية؟

إنّ الآية الثانية تعطى لنا الجواب الشافى عن هذه الأسئلة المتعددة مبنى، المتّحدة مضموناً ومعنى، حيث ترسم لنا فلسفة الحج، وعلته أو

غايته- على اختلاف اتجاه التفسير فى حرف (اللام)- بقوله: ليشهدوا- ذلك التجمّع المليونى للمسلمين الآتين من كُُلِّ فجٍّ عميق،

راجلين وراكبين: ليشهدوا منافع لهم!

(التجارات) هى المنافع الدنيوية: بين الأمس واليوم!

يتساءل الإمام الخمينى: ما هى هذه (المنافع) التى تمثّل العلة أو الغاية من حضور هذا الحشد المليونى الهائل؟

ص: ٢٢

ماذا يتصوّر المسلم القارئ للقرآن الكريم من دلالات وأبعاد وآفاق لهذه (المنافع) التي أراد الله تعالى أن يشهدها الملايين الوافدون من أصقاع الكرة الأرضية؟

هل نكتفى بتفسير (المنافع) بكونها منافع اخروية في الجَنَّة فيما يعطيه الله للحجاج من الثواب الجزيل كما ذهب بعض المفسرين، أو نفسرها ب (التجارات في الدنيا كما ذهب بعض آخر، أم نجتمع بين التفسيرين (التجارات في الدنيا، والمغفرة في الآخرة)؟! وكأن (التجارات) هي المنافع الدنيوية الوحيدة التي من أجلها فرض الله عزوجل فريضة الحج، وأوجب على المسلمين أن يحققوا ذلك الاجتماع المليوني الكبير!!

وإذا كان السابقون يدركون المقاصد التجارية للحج باعتباره يمثّل - فيما يمثّل - سوقاً إسلامية عالمية رائجة، فنحن - في واقعنا المعاصر - لا يمكن أن نعتبر هذه السوق من (المنافع) التي ذكرتها الآية المباركة، وجعلتها علّة أو غاية للحكم...

ذلك لأنّ السوق في مكّة والمدينة أصبحت (أمريكية - أوروبية - يابانية) بكلّ معنى الكلمة!!

وقد تبّه الإمام الخميني إلى هذه الظاهرة الخطيرة وحذّر الحجاج المسلمين، الذين تركوا الأهل والديار، وأتوا ملتبين دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، من أن يكونوا «مستهلكاً» ممتازاً للبضائع الأمريكية، بقوله:

«أسواق البلدان الإسلامية أصبحت مركز تنافس بضائع الغرب والشرق، حيث تتجه إليها سيول البضائع الأمريكية والأوروبية واليابانية الكمالية واللعب والاستهلاكيات.

ومع الأسف الشديد فإنّ مكّة المعظّمة وجدّة والمشاهد المشرفة في الحجاز..

حيث مركز الوحي ومهبط جبرائيل وملائكة الله، ومحلّ تحطيم الأصنام والبراءة منها، أصبحت مملوءة ببضائع الأجانب، وغدت سوقاً رائجاً لأعداء

ص: ٢٣

الإسلام وأعداء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

وقد حذر الإمام بصورة متكررة من هذه الظاهرة السيئة الخطيرة التي تحوّل (المنافع) التجارية- التي ذكرها المفسّرون المتقدّمون- إلى مضار كبيرة، بحيث نرى أنّ الحجيج يستغرقون الليالي والأيام في أسواق مكة والمدينة ليشتروا تلك البضائع، يقول الإمام: «كثير من حجاج بيت الله الحرام الذين يذهبون لأداء فريضة الحج، ومن المفروض بهم أن يلتوا استغاثة المسلمين لما يحيط بهم من مؤامرات، نراهم يتجوّلون غافلين في الأسواق بحثاً عن البضائع الأمريكية والأوروبية واليابانية، وبذلك يؤلمون قلب صاحب الشريعة بعملهم هذا المسمى إلى كرامة الحج والحجاج معاً».

وفي خطابه للعام التالي (١٤٠٦ هـ) ركّز الإمام في تحذيره على البضائع الأمريكية خاصة، وذلك في النقطة الثالثة من توصياته السنوية إلى الحجاج الإيرانيين، معتبراً عرضها مخالفاً لمقاصد الحج وأهدافه، كما أنّ شراءها يُعدّ دعماً ومساندةً لأعداء الإسلام، بقوله: «بالنسبة للبضائع المعروضة في الحجاز للحجاج المحترمين ما كان يرتبط منها بأمريكا، فإنّ عرضها مخالفاً للأهداف الإسلامية، بل مخالفٌ للإسلام تماماً، وشراءها دعمٌ لأعداء الإسلام، وترويجٌ للباطل، فيجب الاجتناب عن ذلك».

واعتبر الإمام- إبان الحرب المفروضة- أنّه «ليس من الإنصاف أن يقدّم شبابنا أرواحهم في الجبهات ويضحون، بينما أنتم تساعدون مجرمي الحرب بشرائكم هذه البضائع.. فإنّ في ذلك إساءة إلى الإسلام والجمهورية الإسلامية وشعبكم المظلوم». وقد أشار إلى أنّ هذه المسألة قد ذكرها في السنوات السابقة، بيد أنها تستحق التكرار والتأكيد لأهميتها، حيث يقول: «لقد ذكرت بهذا في السنوات الماضية لأهمية الموضوع وحساسيته، ومن واجبي أن أكرّر ذلك».

ص: ٢٤

(المنافع) بنظر المفسرين المعاصرين

ركّز بعض المفسرين المعاصرين على التعليل أو الغاية: ليشهدوا منافع لهم، ورسوموا الأبعاد المتنوعة والمتعدّدة لهذه المنافع، التي أراد الله تعالى أن يشهدوا موسم الحج في مكّة المكرّمة.

العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان) نبّه إلى إطلاق تعبير (منافع)، وعدم تقييده بالدينيّة أو الأخرويّة، ممّا يعنى شمولهما معاً، وقد عرّف المنافع الدينيّة بأنها تلك «التي تتقدّم بها حياة الإنسان الاجتماعية، ويصفو بها العيش، وترفع بها الحوائج المتنوعة، وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير وأقسام الرسوم والآداب والسنن والعادات، ومختلف التعانيدات والتعاضدات الاجتماعية وغيرها».

ثم أعطى العلامة مصاديق هذه المنافع الدينيّة مشيراً إلى الأمور التالية:

أولاً: التعارف بين المسلمين القادمين من أصقاع الأرض المختلفة.

ثانياً: اتحاد المسلمين على كلمة واحدة هي كلمة الحق.

ثالثاً: التعاون فيما بينهم في سبيل حلّ مشاكلهم.

رابعاً: امتزاج المجتمعات الإسلامية لتكون «مجتمعاً وسيعاً له من القوّة والعدّة ما لا تقوم له الجبال الرواسي، ولا تقوى عليه أيّ قوّة جبارة طاحنة، ولا وسيلة إلى حلّ مشكلات الحياة كالتعاضد، ولا سبيل إلى التعاضد كالتفاهم، ولا تفاهم كتفاهم الدّين».

ومن المفسرين المعاصرين الذين أعطوا لآية المنافع دلالاتها وأبعادها، هو صاحب (في ظلال القرآن) سيّد قطب، حيث يقول:

«والمنافع التي يشهد بها الحجّ كثيرة، فالحجّ موسمٌ ومؤتمر. الحجّ موسم تجارة وموسم عبادة. والحجّ مؤتمر اجتماع وتعارف، ومؤتمر تنسيق وتعاون، وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة، كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة».

ص: ٢٥

ثمَّ يعدّد هذه المنافع الكثيرة، ويرسم بريشته الفنيّة الأرواح وهى ترفّ حول بيت الله وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وترفّ كالأطياف.

طيف إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يودّع البيت فلذّة كبده إسماعيل وأمه، ويتوجّه بقلبه الخافق الواجف إلى ربّه: ربّنا انّى أسكنت من ذرّيتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرّم....

وطيف هاجر، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرّة الملتهبّة حول البيت، وهى تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدها الجهد وأضناها الاشفاق على الطفل.. ثمّ ترجع فى الجولة السابعة وقد حطّمتها اليأس لتجد النبع يتدفّق بين يدى الرضيع الوضىء. وإذا هى زمزم ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجذب.

وطيف إبراهيم عليه السلام وهو يرى الرؤيا، فلا يتردّد فى التضحية بفلذّة كبده...

وطيف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت، فى إنابته وخشوع...».

ويستمرّ (سيّد) فى رسم تلك الأطياف.. إلى أن يقول:

«والحجّ بعد ذلك كلّ مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة. مؤتمرٌ يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم

الخليل: ملّة أبيكم إبراهيم هو سَمّاكم المسلمين من قبل وفى هذا.. ويجدون محورهم الذى يشدّهم جميعاً إليه:

هذه القبلة التى يتوجّهون إليها جميعاً، يلتقون عليها جميعاً.. ويجدون قوّتهم التى قد ينسونها حيناً. قوّة التجمّع والتوحد والترابط الذى

يضمّ الملايين. الملايين التى لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايها الواحدة التى لا تتعدّد.. رايّة العقيدة والتوحيد».

«وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب، وتنظيم ذلك العالم

الإسلامى الواحد الكامل

ص: ٢٦

المتكامل مَرَّةً في كلِّ عام...».

ويرى صاحب (في ظلال القرآن) أنَّ كلَّ ذلك يمثِّل «بعض ما أراده الله بالحجِّ يوم فرضه على المسلمين، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن به في الناس» ليشهدوا منافع لهم.. فإنَّ كلَّ جيل يشهد تلك المنافع «بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته»!

(المنافع) بنظر الإمام الخميني

ركَّز الإمام على آية (شهود المنافع) كثيراً، وذكرها في العديد من خطابه السنوية التاريخية في موسم الحج، وأعطى دلالاتها وتطبيقاتها معاً.

وقد أكَّده على شمولية هذه المنافع؛ لتشمل كلَّ نفع للمسلمين والامَّة الإسلامية على جميع الأصعدة الروحية والسياسية والثورية والاجتماعية والاقتصادية، وقد دعا- بقوة- الحجيج جميعاً إلى تحقيق تلك المنافع المتنوعة في ذلك «المؤتمر الإسلامي الكبير، في الأيام المباركة والأرض المباركة»، قائلاً:

«على المسلمين الملتين لدعوة الله تعالى أن يستفيدوا من المحتوى السياسي والاجتماعي، إضافة إلى المحتوى العبادي، وأن لا يكتفوا بالشكل والصورة فحسب».

وقد أطلق الإمام في خطابه زفرات الأسف واللوعة على ما آل إليه المسلمون في الغفلة عن تلكم (المنافع) العظيمة، التي توخاها القرآن من تشريعه لفريضة الحج.. إلى درجة بدا فيها (الحجَّ الإبراهيمي- المحمدي) غريباً ومهجوراً، حيث يصرِّح قائلاً:

«إنَّ الحجَّ (الإبراهيمي- المحمدي) غريبٌ ومهجور منذ سنين على الصعيد المعنوي والعرفاني، كما هو غريب ومهجور على الصعيد السياسي والاجتماعي، وعلى الحجَّاج الأعزَّاء من جميع أقطار العالم الإسلامي أن يزيلوا عن بيت الله غربته على الأبعاد والأصعدة كافة».

ص: ٢٧

ولهذا حذر من أن يكون هذا الاجتماع المليونى للمسلمين الآتين من كل فج عميق، مصداقاً للرواية القائلة: «ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج»!

وهناك مقولته رائعه للإمام تعبّر عن مدى المنافع والعطاءات لفريضة الحج، وعلى جميع الأصعدة، وهى: «الحجّ كالقرآن مائدة ينتفع منها الجميع»، ولذا فإنه يرى الاستفادة من جواهر بحره تختلف بحسب اختلاف مستويات الناس الفكرية والثقافية، وحملهم لهموم الأمة الإسلامية، وشعورهم بآلامها وآمالها.

كما يرى أنّ الحجّ يشبه القرآن فى غربته ومهجوريته، حيث يقول: «الحجّ مهجور كالقرآن».

من هنا ندرك أنّ الإمام يرى أنّ الحجّ كالقرآن فى أعماقه، وكالقرآن فى غربته.

من هذا المنطلق يوجب مفسّرنا الإمام على جميع المسلمين «أن يسعوا من أجل إعادة الحياة إلى الحجّ والقرآن معاً»، كما يدعو علماء الإسلام الملتزمين إلى «أن يضطلعوا بمسؤولية تقديم وإعطاء التفاسير السليمة والواقعية لفلسفة الحج ومناسكه، بعيداً عما تنسجه خيالات وتصوّرات (علماء البلاط) من خرافات».

(المنافع): البعد السياسى - الاجتماعى

لقد ركّز الإمام على البعد (السياسى - الاجتماعى) فى قوله تعالى: ليشهدوا منافع لهم؛ أكثر ممّا ركّز على البعد (النفسى - العرفانى)، رغم تصريحه بأنّ البعد الثانى هو الأساس، وهو المنطلق لكلّ الأبعاد الأخرى، حيث صرّح قائلاً:

«إنّ البعد (السياسى - الاجتماعى) لا يتحقّق إلّا بتحقيق بُعده المعنوى الإلهى».

وقد كان يؤكّد فى كتبه أنّه: ما لم تتكسّر أصنام كعبة القلب، لا يمكن للإنسان أن يكسّر الأصنام الأخرى الحجرية والبشرية المتمثلة بالطاغوت

ص: ٢٨

السياسى - الاجتماعى، ذلك لأنَّ الإنانِيَّة هي أمَّ الأوثان وأعدى أعداء الإنسان، وأنَّ «كُلَّ جهود الأنبياء من آدم حتَّى الخاتم استهدفت كسر صنم الذاتِيَّة الذى هو أكبر الأصنام، ثمَّ كسر بقيَّة الأصنام».

ولهذا يرى أنَّ الطواف حول الكعبة «يرمز إلى عدم الالتفاف حول غير الله»، كما هو «رمزٌ إلى عشق الله وتنزيهه للنفس من أن تخاف غيره تعالى»، كما أنَّ الصفا والمروة يمثِّل «السعى لإيجاد المحبوب».

بيد أنَّ سرَّ تركيز الإمام على البعد (السياسى - الاجتماعى) فى فريضة الحج يكمن فى إيمانه بأنَّ أعداء الإسلام ما تأمروا على بُعد من أبعاد الحجِّ أكثر ممَّا تأمروا على هذا البعد السياسى الاجتماعى، من أجل أن يفرغوا فريضة الحج منه، حتى غدا الحج أبعد ما يكون عن السياسة والاجتماع!! يقول الإمام:

«إنَّ من أكثر أبعاد الحجِّ تعرُّضاً للغفلة والهجران هو البعد السياسى لهذه المناسك العظيمة. ولقد عملت الأيدي الآثمة أكثر ما عملت - ولا زالت - على هجرانه».

ولهذا فإنَّ «المسلمين اليوم، وفى هذا العصر - عصر الغاب - مسؤولون أكثر من أىَّ وقتٍ مضى على إبرازه وإزالته الحجب عنه».

تغيب البعد السياسى: مؤامرة كبرى

يرى الإمام قدس سره أنَّ تغيب البعد السياسى الاجتماعى الثورى لفريضة الحج ومناسكه إنَّما هو مؤامرة كبرى تولَّى كبرها عناصر ثلاثة:

العنصر الأوَّل: الاستكبار العالمى (المتلاعبون الدوليون).

العنصر الثانى: الحكَّام العملاء التابعون.

العنصر الثالث: العلماء (المزيِّفون + المتحجِّرون).

ولا يخفى أنَّ العنصر الثالث يتضمَّن طائفتين:

أ- المزيِّفون المأجورون (وعاظ السلاطين)، أو (علماء البلاط).

ص: ٢٩

ب- المتنسكون المتحجرون (المتزمتون).

ولا- يكاد يخلو خطاب سنوى تاريخى من خطابات الإمام فى موسم الحج، من تسليط الأضواء على هذه المؤامرة الكبرى بأطرافها الثلاثة، التى نجحت إلى حد كبير فى إفراغ الحج من محتواه السياسى، ومضمونه الاجتماعى الثورى.

ففى عام ١٤٠٤ هـ كشف الغطاء بصراحته عن مثلث التآمر، قائلاً:

«لقد عملت الأيدي الآثمة أكثر ما عملت- وما زالت- على تغييره وهجرانه، يسانداهم فى ذلك- عن علم أو غير علم- عملاؤهم الطامعون والغافلون الجهلة، وعلماء الدين المأجورون أو المنحرفون، والمتنسكون المتزمتون المتحجرون».

وهذا النص يشير بصراحته إلى مثلث التآمر برؤوسه الثلاثة.

وفى بدايه ذات الخطاب أكد على العنصر الأول والثانى باعتبارهما الأخطر؛ لأن العدو الداخلى أخطر بكثير من العدو الخارجى، حيث يقول:

«ومن المؤسف أن الأبعاد المختلفة والمتنوعة لهذه الفريضة المصيرية العظيمة، بقيت مغيبة من وراء حجب، بسبب انحرافات حكومات الجور فى البلدان الإسلامية [العنصر الثانى]، ووعاظ السلاطين السافلين [العنصر الثالث- أ]، وسوء فهم بعض علماء الدين المتزمتين المتحجرين فى العالم الإسلامى [العنصر الثالث- ب]».

ومن دون شك فإن العنصر الأخطر فى هذه المؤامرة هو العنصر الثالث بكلا قسميه، وقد عانى الإمام منهم- كما صرح بذلك- أكثر مما عانى من أمريكا!!

يقول الإمام: «وقد بلغ الأمر بهؤلاء المنحرفين إلى أن وقفوا معارضين لإقامة الحكومة الإسلامية، واعتبروها أسوأ من حكومة الطاغوت، وحصروا فريضة الحج الكبرى بطواهر فارغة، واعتبروا طرح مشاكل المسلمين والبلدان الإسلامية (فى هذا المؤتمر الإسلامى المليونى) مخالفة للشريعة، بل يصل إلى حد الكفر!!

ص: ٣٠

هؤلاء العملاء المرتبطون بالحكومات الجائرة المنحرفة صوّروا صرخة المظلومين المجتمعين من أرجاء العالم، وفي مركز النداء هذا، بأنها زندقته مخالفة للإسلام!!

هؤلاء المهزّجون- من أجل إبقاء المسلمين على تخلفهم، وفتح الطريق أمام الغزاة والسلطويين... حصروا الإسلام في زوايا المساجد والمعابد، واعتبروا الاهتمام بأمور المسلمين مخالفاً للإسلام ولواجبات المسلمين وعلماء الإسلام!!.

وعاظ السلاطين يدينون رسول الله صلى الله عليه وآله!

«إنّ الحجّ- منذ انبثاقه- لا يقلّ بعده السياسى أهميّة عن بعده العبادى، بل إنّ البعد السياسى هو بذاته عبادة»، وإنّ «البعد السياسى» يمثّل «إحدى حكم الحجّ الكبرى»، وإنّ «الحجّ إنّما هو لهذه المسائل (السياسية- الاجتماعية..) إنّما هو لقيام الناس قياماً للناس، لكى يدرك المسلمون مشاكلهم ويسعوا فى حلّها».

ولهذا فإنّه خاطب عام ١٤٠٣ هـ، أحد وعَظ السلاطين الذى أفتى بمخالفة الهتاف ضد أمريكا وإسرائيل لمراسم الحجّ وقدسيتّه بيت الله الحرام، قائلاً له:

«هل التأسى برسول الله وأتباع أمر الله مخالف لمراسم الحجّ؟!

هل تنزهون مراسم الحجّ من البراءة من المشركين؟!

أتكتمون أوامر الله ورسوله من أجل متاع الحياة الدنيا، وترون إعلان البراءة من أعداء الإسلام والظالمين كفراً؟!

وفى نفس الخطاب، أكّد على الدور السيئ ل (وعَظ السلاطين) فى إفراغ الحجّ من محتواه ومضمونه بإبعاده عن السياسة والاجتماع، وأنّهم بمقولاتهم «يدّينون رسول الله صلى الله عليه وآله، ويدّينون أئمّة الهدى».

وفى عام ١٤٠٧ هـ، أشار الإمام فى خطابه التاريخى إلى تصاعد دور (العناصر الثلاثة) فى الوقوف أمام الوعي السياسى لفريضة الحجّ ومناسكه، الذى بدأ ينتشر فى صفوف المسلمين، وحذّر من تسخير (الناهيين الدوليين) لعلماء البلاط،

ص: ٣١

السلطين؛ لإشاعة فلسفاتهم وتحليلاتهم الخاطئة والمنحرفة، التى تجرد الحج من مقاصده السياسية وغاياته الاجتماعية تحت شعار قدسية الكعبة وحرمتها). هذا إضافة إلى (المتنسين الجاهلين) [العنصر الثالث- ب] الذين يرون أن الحج ليس له علاقة بالأمور السياسية.

يرى الإمام أن مقولات هؤلاء هى «من إحياءات ومكر السياسات الخفية للناهيين الدوليين».

وفى آخر نداء تاريخى له وجهه عام (١٤٠٨ هـ) إلى الحجيج الآتين من كل فج عميق، سلط الأضواء على الدور الخطير لمن أسماهم ب (أحفاد بلعم بن باعورا) فى طمس فلسفة ومقاصد فريضة الحج، وتفرغها من محتواها الفاعل؛ ليكون الحج «ما هو إلأ رحلة سياحية يتم فيها زيارة (القبلة) و (المدينة) لا- أكثر!، وذلك من خلال تساؤلاتهم التعجيبية الاستنكارية حول علاقة الحج بالسياسة ومشاكل المسلمين والناس المستضعفين فى العالم:

ما علاقة الحج بالبحث عن أساليب الجهاد والنضال، وسبل مواجهة قوى الشرك والاستكبار؟!

ما علاقة الحج بالمطالبة بحقوق المسلمين والمستضعفين من الظالمين الجائرين؟!

ما علاقة الحج بمشاكل المسلمين ومعاناتهم، والتفكير بإيجاد الحلول لها؟!

ما علاقة الحج بظهور المسلمين كقوة كبرى ومقتدرة فى العالم؟!

ما علاقة الحج بدعوة المسلمين إلى القيام والنهوض والانتفاضه ضد الأنظمة الطاغوتية العميلة التى تتحكم على رقابهم؟!.

أهم (المنافع) السياسية

فى كثير من خطابات السنوية فى موسم الحج أعطى الإمام أهم المفردات السياسية والاجتماعية لمنافع ذلك الحشد المليونى الهائل للمسلمين الملتين نداء الحج، من شرق الأرض وغربها.

ص: ٣٢

ومن خلال استقراء تلك الخطابات والنداءات نستطيع أن نتلمس أهم تلك المنافع والمفردات: المنفعة الأولى: قطع يد الاستكبار العالمى عن الامة الإسلامية.

يصرّح الإمام فى أكثر من خطاب بأنّه لا- توجد منفعة أعظم وأسمى من قطع يد الاستكبار العالمى عن أمتنا الإسلامية بل عن المستضعفين جميعاً:

«وَأَيُّ منافع أعظم وأسمى من قطع يد جبايرة العالم والظالمين من السيطرة على البلدان المظلومة، ومن أن تكون الذخائر المادية العظيمة للبلدان ملكاً لشعوبها؟!».

وفى خطاب آخر يقول:

«على المسلمين المجتمعين فى مواقف هذه العبادة الرامية إلى تجميع المسلمين من كلّ أرجاء الأرض؛ ليشهدوا منافع لكلّ المستضعفين فى العالم، وأيّ منافع أعظم من قطع يد الطامعين عن البلدان الإسلامية؟!».

المنفعة الثانية: التفاهم وترسيخ الاخوة بين المسلمين.

يعتبر الإمام «أنّ واحداً من أهم أركان فلسفة الحج هو إيجاد التفاهم وترسيخ الاخوة بين المسلمين».

ولا يكاد يخلو خطاب للإمام فى موسم الحج من الدعوة إلى وحدة الكلمة بين المسلمين، وضرورة نبذ الفرقة والتمزق والتشتت الذى يسعى أعداء الإسلام إلى إبقائه والمحافظة عليه.

ولهذا يرى الإمام أنّ «من واجبات هذا التجمّع العظيم، دعوة الناس والمجتمعات الإسلامية إلى وحدة الكلمة، وإزالة الخلافات بين فئات المسلمين. وعلى الخطباء والوعاظ والكتّاب أن يهتموا بهذا الأمر الحيوى، ويسعوا إلى إيجاد جبهة للمستضعفين للتحرّر- بوحدة الجبهة ووحدة الكلمة وشعار (لا إله إلّا الله- من أسر القوى الأجنبية الشيطانية والمستعمرة».

ص: ٣٣

من هذا النص يظهر جلياً أنّ المنفعة الأولى (قطع يد الاستكبار) لا تأتى إلّا بتحقيق المنفعة الثانية (الوحدة والتآزر).

من هذا المنطلق يخاطب الإمام حجاج بيت الله الحرام كافة قائلاً:

«تبادلوا وجهات النظر، وتفاهموا لحلّ مشاكل المسلمين المستعصية.

اعلموا أنّ هذا الاجتماع الكبير الذى يعقد سنوياً بأمر الله فى هذه الأرض المقدّسة يفرض عليكم- أنتم المسلمون- أن تبذلوا الجهود على طريق الأهداف الإسلامية المقدّسة ومقاصد الشريعة المطهّرة السامية، وعلى طريق تقدّم المسلمين وتعاليمهم واتحاد المجتمع الإسلامى وتلاحمه».

المنفعة الثالثة: اجتماع رجال السياسة فى العالم الإسلامى

يرى الإمام أنّ هناك فرصة ذهبية لزعماء السياسة فى العالم الإسلامى أن يستثمروا موسم الحج؛ ليعقدوا فى مكّة مؤتمراً إسلامياً عالمياً يطرحوا فيه كلّ مشاكل المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ليكتشفوا لها الحلول الناجعة:

«على زعماء القوم أن يجتمعوا فى مكّة المعظّمة استجابةً لأمر الله تبارك وتعالى، وأن يطرحوا مشاكلهم بينهم ويتغلّبوا عليها. ولو حدث ذلك ما استطاعت القوى الأخرى أن تقف بوجههم مهما كانت عظمتها».

ويتساءل الإمام مستغرباً ومتعجباً على ما آلت إليه أوضاع المسلمين:

لماذا يغفل المسلمون عن قدره الإسلام العظيمة التى مكّنت شعباً ليغلب بيد خالية دولة غاصبه كبرى؟

لماذا تعيش الحكومات الإسلامية الغفلة عن هذه القوة العظيمة المقتدرة؟

لماذا تتلقّى الحكومات العربيه الصفعات خلال السنوات المتتالية من الصهيونية؟

لماذا كلّ هذا الاستسلام والرضوخ لسيطرة القوى الأجنبية؟

لماذا لا يجتمعون ولا يتعاضدون ليكونوا تجسيدا لقول النبى الأعظم صلى الله عليه وآله: (وهم

ص: ٣٤

يداً على من سواهم).

إنَّ مشكلة المسلمين تكمن في العداء المرير بين الحكومات الإسلامية الذي أنشأه الاستعمار بعد الحرب العالمية.

من هذا المنطلق يقترح الإمام ذهاب رجال السياسة والفكر والأدب والثقافة إلى الحج، وأن لا يقتصر الحج على عامة الناس.

إنَّه ينفث زفرات اللوعة والأسف على غفلة المسلمين عن هذا الأمر الحيوى والفاعل، حيث يقول:

«نحن الآن ليس لنا من التشرف بمكة وحج بيت الله الحرام سوى ذهاب مجموعة من عامة الناس إلى هناك، ومع الأسف الشديد فإنَّ

مسألة ذهاب أشخاص فاعلين من الحكومات ورجال القوم (من أصحاب الفكر والكتاب والثقافة)؛ ليجتمعوا هناك ويدرسوا مسائل

الإسلام والمسائل السياسية والاجتماعية للمسلمين، هذه المسألة مغفولٌ عنها.

إنَّ مشاكل المسلمين كثيرة، ولكن مشكلة المسلمين الكبرى هي أنَّهم وضعوا القرآن الكريم جانباً وانضوا تحت لواء الآخرين».

«القرآن الكريم يقول: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ولو عمل المسلمون بهذه الآية الواحدة؛ لانحلَّت جميع مشاكلهم

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من دون التشبُّث بالآخرين».

المبحث الثانى: آية البراءة من المشركين

انطلاقاً من آية البراءة: وأذانٌ من الله ورسوله يوم الحج الأكبر أنَّ الله برىء من المشركين ورسوله، دعا الإمام الخمينى الحجاج الآتين

من كلِّ فجٍّ عميق ليشهدوا منافع لهم، إلى ضرورة إعلان البراءة من المشركين والمستكبرين فى موسم الحج، وفى مكة المكرمة؛

ليطلقوا «بجوار بيت التوحيد صرخة البراءة من المشركين والملحدين من مستكبر رأسه أمريكا المجرمة».

ص: ٣٥

وما ركز الإمام على آية من الآيات المباركة في فريضة الحج، كما ركز على آية البراءة، حيث إنَّه سلَّط الأضواء الكاشفة على هذه الآية، ودعا بكلِّ قوَّة وإصرار إلى تجسيدها في واقعنا المعاصر.. حتَّى لا نعيش التفسير الدلالي والمفاهيمي للقرآن بعيداً عن التجسيد والتطبيق.

ولا يكاد يخلو خطاب من خطابات الإمام في موسم الحج من ذكر لآية البراءة ودعوة إلى تجسيدها في واقعنا المعاصر. ويمكن تلخيص تفسيره الدلالي والتطبيقي لآية البراءة بالنقاط التالية:

أولاً: إعلان البراءة: إحياء لذكرى حادثة سياسية كبرى

يرى الإمام أنَّ «إرسال سورة (براءة) لقراءتها في ذلك الجمع إنَّما كان يستهدف تعليمنا ضرورة قراءة سورة براءة في ذلك المكان». كما يرى أنَّ إعلان البراءة في موسم الحج يعتبر «إحياءً لذكرى أهمِّ وأكبر حركةٍ سياسيةٍ للرسول صلى الله عليه وآله، التي عبَّر عنها القرآن بقوله: وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجِّ الأكبر أنَّ الله بريءٌ من المشركين ورسوله، ذلك لأنَّ سنَّة الرسول صلى الله عليه وآله وإعلان البراءة لن يلبيا».

إنَّ «إعلان البراءة من المشركين في موسم الحج، هو إعلانٌ سياسى - عبادى».

ومهما اختلف المفسِّرون في تعيين المراد من يوم الحجِّ الأكبر - يوم النحر كما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام أو يوم عرفة أو جميع أيَّام الحج - فإنَّ الآية المباركة واضحة في دلالتها في إعلان البراءة من المشركين في أكبر يوم من أيَّام الحج، حيث يجتمع المسلمون الآتون من كلِّ فجٍّ عميق؛ ليشتركوا في مراسم إعلان صرخة البراءة تلك، وليكونوا على اهبة الاستعداد لإنفاذ أمر الله فيهم بقتال أعداء الله بعد انسلاخ الأشهر الحرم حيث وجدتموهم في أى زمان ومكان، في حلٍّ أو حرم، وبأى وسيلة ممكنة بالأخذ أو الحصر أو القعود لهم في كلِّ مرصد وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مرصد حتَّى ينفوا عن آخرهم، وتطهر الأرض

ص: ٣٦

من وجودهم.

وقد ذكر المفسرون من الفريقين أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان قد بعث أبا بكر مع (براءة) ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل عليه السلام فقال: لا- يبلغ عنك إلّا على، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً أن يلحق أبا بكر ليأخذها منه ويقرأها على الناس.

فقد جاء فى الدر المنثور للسيوطى: أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند، وأبو الشيخ وابن مردويه عن على بن رضى الله عنه قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبى صلى الله عليه وآله دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعانى فقال لى؛ أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه. ورجع أبو بكر، فقال: يارسول الله نزل فى شىء؟

قال: لا، ولكن جبريل جاءنى فقال لى: لن يؤدى عنك إلّا أنت أو رجل منك.

وفى الدر المنثور كذلك: أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر ببراءة إلى أهل مكة، ثم بعث علياً على أثره، فأخذها منه فكأن أبا بكر وجد فى نفسه، فقال النبى صلى الله عليه وآله: يا أبا بكر إنه لا يؤدى عنى إلّا أنا أو رجل منى.

من هذا المنطلق يعتبر الإمام أنّ إعلان البراءة يمثل حدثاً تاريخياً عظيماً فى مسيرة الإسلام بقيادة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، قد حقق انعطافه فى الموقف تجاه المشركين وأعداء الدين، وأتينا إذا قمنا بإعلان البراءة فى موسم الحج فإنما هو تأسيس برسول الله صلى الله عليه وآله وإحياء لسنّته.

ولهذا يستنكر الإمام على فتاوى (وعاظ السلاطين) و (علماء البلاط) من تحريمهم إعلان البراءة فى مكة، وفى موسم الحج، بحجة الأمن والسلامة وقدسيّة الكعبة المشرفة!!

يخاطب الإمام ذلك «الواعظ العميل الذى يرى الهتاف ضدّ أمريكا وإسرائيل مخالفاً لمراسم الحج»، قائلاً: «وهل التأسيى برسول الله واتباع أمر الله مخالف لمراسم الحج؟!

ص: ٣٧

هل أنت وأمثالك من الوعَّاظ الأمريكيين تخطئون فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر الله؟!!

هل التأسَّى بتلك الشخصية الكبرى، وإطاعة أمر الله تعالى مخالف للإسلام؟!!

هل تنزهون مراسم الحجَّ من البراءة من الكفار؟!!

أتغطون على أوامر الله ورسوله من أجل مصالحكم الدنيويَّة، وترون البراءة من أعداء الله من محاربى المسلمين ومن الظالمين ولعنهم كفرة؟!!

ولم يشجب الإمام (وعَّاظ السلاطين) فحسب، بل هناك ممَّن يستيهم «المتنسكين الجاهلين» يدعون- كذلك- أن حرمة وقديسيَّة الكعبة المعظَّمة، تنتهك برفع الشعارات وإقامة التظاهرات والمسيرات وإعلان البراءة!!

ويعتبر الإمام أن «مثل هذه الأقاويل هي من إحياءات وخبث السياسات الخفيَّة للناهيين الدوليين، ولا بدَّ للمسلمين أن ينهضوا، وبكلِّ ما لديهم من إمكانات... لخوض المواجهة الجادَّة، والدفاع عن القيم الإلهيَّة ومصالح المسلمين».

ثانيًا: الكعبة أجدر وأنسب بيت لإعلان البراءة

يتساءل الإمام متعجباً ومستنكراً على أولئك الذين يعتبرون إعلان البراءة في موسم الحجَّ يسيئ إلى فريضة الحجَّ ومناسكها، كما يسيئ إلى قداسة البيت الحرام، قائلاً:

«وأيُّ بيت أفضل وأنسب وأجدر من (الكعبة) المشرفة، بيت الأمن والطهارة والناس؛ لإعلان البراءة، قولاً وعملاً، بوجه كلِّ أشكال الظلم والاستغلال والعبودية والدناءة واللاإنسانيَّة؟!!».

«إذا لم يعلن المسلمون براءتهم من أعداء الله، في بيت الناس وبيت الله، فأين إذن يُعلنون البراءة؟!!

وإذا لم يكن الحرم والكعبة والمسجد والمحراب معاقل وسنداً لجنود الله والمدافعين عن الحرم وحرمه الأنبياء، فأين إذن يكمن مأمنهم وملجأهم؟!!».

ص: ٣٨

ينطلق الإمام بنظرته هذه إلى دور الكعبة والمسجد الحرام، من منطلق القرآن، الذي تعطى آياته بكل صراحة ووضوح ذلك الدور العظيم الذي لا ينفك عن القيام والنهوض والبراءة من المشركين والمستكبرين.

الآية الأولى: جَعَلَ اللَّهُ الكعبة البيت الحرام قياماً للناس.

يرى الإمام: أن الله عز وجل في هذه الآية المباركة «يقرر أن سرّ الحج وبواعثه والغاية من الكعبة والبيت الحرام هي نهوض المسلمين وقيامهم في سبيل مصالح الناس والجماهير المستضعفة في العالم».

لقد بدأ خطابه عام ١٤٠١ والموجه إلى حجاج بيت الله الحرام، بآية القيام، أعطى فيه السبل التي تجعل من ذلك التجمع المليوني في موسم الحج مصدر نهوض المسلمين وقيامهم في سبيل مصالح الناس المستضعفين في العالم.

ولن يتحقق ذلك القيام إلّا إذا وعى المسلمون الآتون من كل فج عميق مقاصد وأهداف الحج الكبرى، وعرفوا واجباتهم في ذلك «التجمع الإلهي العظيم الذي لا تستطيع أيّ قدرة سوى قدرة الله أن تعقده».

ودراسة مشاكل المسلمين، وبذل الجهود في سبيل إيجاد الحلول لها، هو الواجب الأول الذي يجب أن يضطلع به أولئك الحافون حول بيت الله الحرام.

ويرى الإمام: أن «إحدى أكبر هذه المشاكل وأكثرها أهمية هي عدم الوحدة بين المسلمين وتمزقهم وتشتهم».

«هذا المسجد الحرام ومساجد عصر رسول الله صلى الله عليه وآله كانت مركز الحروب، ومركز السياسات والشؤون الاجتماعية والسياسية».

«لو أننا ذهبنا إلى الحج، ولم نأخذ بنظر الاعتبار مصالح المسلمين، بل وخلافاً لمصالح المسلمين نغطى على الجرائم التي ترتكب بحقهم، ولا ندع المسلمين يتداولون ما ترتكبه بحقهم الحكومات والقوى الكبرى من جرائم ومظالم، فليس هذا بحج؛ لأنه صورة فاقدة للمعنى، وشكل مفرغ من المضمون».

ص: ٣٩

الآية الثانية: وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىً وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود.

انطلاقاً من هذه الآية المباركة يرى الإمام أن «الكعبة التي هي أم القرى وما امتدّ منها حتى آخر نقطة في الأرض - وإلى آخر يوم من حياة العالم - ينبغي أن تطهر من لوثة الأصنام مهما كانت هياكل أم شمساً أم قمراً أم حيواناً أم إنساناً. وأى منهم أسوأ من (الطواغيت) على مرّ التاريخ، ابتداءً من زمان آدم صفى الله ومروراً بإبراهيم خليل الله ومحمّد حبيب الله... حتى آخر الزمان، حيث يرفع محطّم الأصنام الأخير نداء التوحيد من الكعبة؟!».

ويشجب الإمام النظرة الضيقة الخاطئة للأصنام، التي تحصرها بالأصنام الحجرية فحسب، حيث يتساءل: «أليست القوى الكبرى في زماننا هذا أصناماً كبرى تدعو الناس إلى طاعتها وعبادتها والخضوع لها، وتفرض نفسها عليهم بالقوّة والمال والتزوير؟! مَكَّة المعظّمة هي المركز الوحيد لتحطيم هذه الأصنام. إنّ إبراهيم الخليل عليه السلام، وحبيب الله محمّداً صلى الله عليه وآله، وابنه العزيز المهدى الموعود - روى فداه - رفعوا وسيرفعون نداء التوحيد في آخر الزمان من الكعبة المشرفة».

«والمهدى المنتظر على لسان كلّ الأديان وإجماع المسلمين يرفع نداءه من الكعبة، ويدعو البشرية إلى التوحيد، والجميع يرفعون نداءهم من مكّة، وعلينا أن نتبعهم، ونعلن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة من ذلك المكان المقدّس».

«وما لم نعقد الاجتماعات الحيّة المدويّة في مركز تجمع المسلمين (مكة المكرمة)، وما لم نكسر الأصنام ونرجم الشياطين وعلى رأسهم الشيطان الأكبر في (العقبات)، لن يكون حجّنا حجّ خليل الله وحبيب الله وولّي الله المهدى العزيز، ولقيل في حقنا: «ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج»!.

ص: ٤٠

الآية الثالثة: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيَّكُهُ مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ.

هذه الآية المباركة- كما يرى الإمام- تقرّر أنه ليس هناك أولوية بيت الله على سائر الناس، لشخص أو مجموعة أو طائفة.. فَإِنَّ النَّاسَ جَمِيعًا، أَيْنَمَا كَانُوا، وَفِي أَىِّ بَقْعَةٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا، مَكْلُفُونَ أَنْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَجْتَمِعُوا فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي وَضَعَ لِلنَّاسِ، وَأَنْ يَزُورُوا هَذَا الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ.

«بيت الله الحرام هو أول بيت وضع للناس، إنه بيت عام، ليس لشخص ولا- لنظام ولا- لطائفة حق الأولوية فيه، سواء فيه أهل البادية وسكنه الصحراء والمتقلون، والعاكفون وسكنه المدن»: سواء العاكف فيه والباد.

«هذا البيت المعظم بنى للناس، ولقيام الناس، وللنهوض العام، ولمنافع الناس، وأى منافع أعظم وأسمى من قطع يد جابرة العالم والظالمين من السيطرة على البلدان المظلومة».

ثالثاً: صرخة البراءة هي صرخة المستضعفين المظلومين.

يرى الإمام أن إعلان البراءة لا- يتجرأ؛ لأنه يمثل صرخة براءة المستضعفين والمحرومين بوجه المستكبرين الظالمين.. وبالتالي يُعبّر إعلان البراءة فى موسم الحج من قبل المسلمين الآتين من أصقاع الأرض الإسلامية عن الرفض لكل الظالمين الذين يتحكمون بقراب المسلمين.

يقول الإمام: «إِنَّ صَرْخَةَ بَرَاءَتِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ الْيَوْمَ هِيَ صَرْخَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالظَّالِمِينَ، هِيَ صَرْخَةُ أُمَّةٍ ضَاقَتْ ذُرْعًا بِاعْتِدَاءَاتِ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَمْرِيكَ وَأَذْنَابُهَا، وَغَضَبُ مَنْ نُهَبَ بَيْتُهَا وَثُرَوَاتُهَا». ثم يقول:

«إِنَّ صَرْخَةَ بَرَاءَتِنَا هِيَ صَرْخَةُ الشَّعْبِ الْأَفْغَانِيِّ الْمَظْلُومِ ضِدَّ الْإِتِّحَادِ السُّوفِيَّتِيِّ».

«وإِنَّ صَرْخَةَ بَرَاءَتِنَا هِيَ صَرْخَةُ الشُّعُوبِ الْمُسْلِمَةِ الْمَضْطَّهَدَةِ فِي أُفْرِيْقِيَا».

ص: ٤١

«إنَّ صرخة براءتنا هي صرخة الشيعين اللبناني والفلسطيني..».

«إنَّ صرخة براءتنا هي صرخة جميع الذين ما عادوا يتحمّلون فرعنة أمريكا وتواجدها السلطوى..».

«إنَّ صرخة براءتنا هي صرخة الدفاع عن الشعوب والكرامات والنواميس..».

«إنَّ صرخة براءتنا هي صرخة الفقراء والجوع والمحرّومين الذين نهب الجشعون والقراصنة الدوليون حصيلة كدّ يمينهم وعرق جبينهم..».

المبحث الثالث: آية سقاية الحاج

حرص القرآن الكريم على تحديد مقاصد وأهداف فريضة الحج ومناسكها، والدور الذى يضطلع به بيت الله الحرام، واستنكر المحاولات التى تجعل ما ليس فى المقاصد والأهداف والقيم مقصداً أكبر وهدفاً أسمى وقيمةً أعلى.

من هذا المنطلق نزلت آية (سقاية الحاج) لتحبط إحدى تلك المحاولات الخاطئة فى تشخيص القيم والأولويات، على أثر تلك الحادثة المعروفة التى يذكرها المفسّرون فى أسباب نزول قوله تعالى:

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستون عند الله....

يرى الإمام الخميني أنّ هذه الآية الشريفة كأنها نزلت اليوم، وفى واقعنا المعاصر، حيث اعتبر بعض أنّ سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من أكبر الأعمال والمنجزات والمقاصد فى موسم الحج، وراح يفتخر بذلك.. من خلال الحديث عن الخدمات التى يوفّرها، والتوسعات المعمارية التى أنشأها، وما إلى ذلك من الامور التى تدخل تحت عنوان (سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام).

ولهذا يقول الإمام:

«كأنّ هذه الآية الشريفة نزلت فى عصرنا، وتحكى عن حالنا، وتصف الانشغال بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام- مع الغفلة عن الإيمان بالله وباليوم الآخر،

ص: ٤٢

والابتعاد عن الجهاد في سبيل الله- بأنه ظلم، وتعتبر الفاعلين لذلك ظالمين».

وقد نبه الإمام إلى هذه الحقيقة القرآنية، قائلاً:

«ها أنا أغتنم هذه الفرصة؛ لأشير إلى إحدى آيات الكتاب الكريم، حيث يقول جلّ وعلا: أجعلتم سقاية الحاج وعمارَةَ المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين.

ويوضح الإمام دلالات الآية المباركة بقوله:

«إنَّ الله سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية: أنتم ذوى القلوب العمياء، أمِنَ الممكن أن تساووا بين سقاية الحجيج وعمارَةَ المسجد الحرام، وبين أولئك الذين آمنوا بالله ويوم الجزاء وجاهدوا في سبيل الله؟!

حاشا أن تساووا أنتم وأولئك، فالله لا يهدي القوم الظالمين».

ثم يستفيد من سياق الآية المباركة نكتة رائعة، بذكر الجهاد في سبيل الله بعد الايمان بالله واليوم الآخر، فيقول:

«إنَّ ما يلفت النظر في هذه الآية هو أنَّ الله سبحانه قد ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد اختار من بين كلِّ القيم الإسلامية الإنسانية، الجهاد في سبيل الله ضدَّ أعداء الله وأعداء البشرية، وجاء به مباشرةً بعد الايمان بالله ويوم الجزاء، وقد علم المسلمون كافَّةً من هذا الاختيار أنَّ أهميَّة الجهاد تفوق كلَّ شيء».

ويؤكد الإمام- في خطابٍ آخر، وانطلاقاً من آية (سقاية الحاج)- أنَّ «سدانة البيت وسقاية الحاج وعمارَةَ المسجد الحرام غير كافية، ولا ترتبط بالهدف والمقصد».

ولهذا يرى أنَّ «بساطة البيت والمسجد- كما كانا عليه زمان إبراهيم عليه السلام وفي صدر الإسلام- مع تلاحم المسلمين الوافدين على ذلك المكان البسيط، أفضل ألف مرّة من تزيين الكعبة والأبنية المرتفعة فيها، مع الغفلة عن الهدف الأصلي، والمقصد الأساس المتمثّل بقيام الناس وشهود المنافع: أجعلتم سقاية الحاج وعمارَةَ المسجد الحرام

ص: ٤٣

كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين، كأن هذه الآية الشريفة نزلت في عصرنا، وتحكى عن حالنا!!».

المسجد: مركز انطلاق زحف القوّات الإسلامية

«إنّ المسجد في صدر الإسلام، كان دوماً مركز النهضة والتحرّكات الإسلامية.

من المسجد كانت تنطلق الدعوة إلى الإسلام. ومن المسجد كانت تزحف القوات الإسلامية لقمع الكفّار، أو لجذبهم تحت راية الإسلام».

«هذا المسجد الحرام ومساجد عصر الرسول صلى الله عليه وآله كانت مركز الحروب والمعارك، ومركز السياسات والشؤون الاجتماعية والسياسية. لم يكن مسجد النبي صلى الله عليه وآله مقتصراً على المسائل العبادية كالصلاة والصيام فحسب بل إنّ مسأله السياسية كانت أكثر، فمتى ما أرادوا إرسال المقاتلين إلى ساحات القتال والجهاد، وتعبّتهم في الحروب والمعارك، كان المسجد هو المركز والمنطلق».

لقد كان الإمام- وانطلاقاً من آيات القرآن التي تتحدّث عن الكعبة ودورها في القيام والنهضة- يرى أنّ البيت الحرام «أسس للقيام.. لقيام الناس، كما أسس للناس.. فيجب- إذن- الاجتماع فيه لهذا الهدف الكبير، ويجب تحقيق منافع الناس في هذه المواقف المشرفة»، ويؤكد- انطلاقاً من آية (سقاية الحاج)- على أنّ «سدانة البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام غير كافية، ولا ترتبط بالهدف والمقصد».

ولهذا كان يخاطب الحجاج الوافدين على بيت الله بأنّ يتجهزوا من (مركز تحطيم الأصنام) لتحطيم الأصنام السياسية والطاغوتية في العالم، حيث يقول:

«أنتم يا حجاج بيت الله الحرام، يا من وفدتم من أقطار العالم وأكنافه على بيت الله، مركز التوحيد ومهبط الوحي ومقام إبراهيم ومحمد الرجلين العظيمين الثائرين على

ص: ٤٤

المستكبرين، وسارعتم للوصول إلى المواقف الكريمة التي كانت في عصر الوحي أرضاً يابسَةً وهضاباً قاحلةً، غير أنّها كانت مهبط ملائكة الله ومحلاً لهجوم جنود الله... اعرفوا هذه المشاعر الكبرى وتجهّزوا من مركز تحطيم الأصنام لتحطيم الأصنام الكبرى التي ظهرت على شكل قوى شيطانية، وغزاة يمتصون الدماء، ولا تخشوا هذه القوى الفارغة من الإيمان. وفي هذه المواقف الكريمة، وبالتوكل على الله العظيم، اعدّوا بينكم ميثاق الاتحاد والاتفاق في مواجهة جنود الشرك والشيطان، واحذروا من التفريق والتنازع ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».

«إنّ ربح الإيمان والإسلام- التي هي أساس النصر والقوّة- تزول وتذهب بالتنازع والتشردم المنطلق من الأهواء النفسية والانانيات».

إعلان البراءة: الخطوة الأولى في طريق الجهاد والنضال

يؤكد الإمام أنّ إعلان البراءة في موسم الحج، في مكة المكرمة، ليس مجرد «شعارات وهتافات» فحسب، بل إنّ يتعدّى ذلك «إلى تعبئة الأمة وتنظيم جنود الله في مواجهة جنود إبليس».

ويصرّح: بأنّ إعلان البراءة «هو المرحلة الأولى في طريق الجهاد والكفاح، وأنّ مواصلة المراحل الأخرى هي من واجبنا، حيث إنّ أدائه في كلّ عصر وزمان يختلف باختلاف الأساليب ومتطلبات العصر».

ويشجب الإمام تلك المحاولات التي تريد تفريغ الحج من مضمونه الجهادي الثوري التعبوي، من خلال:

أولاً: «إلقاء روح اليأس والعجز والخنوع في نفوس المسلمين».

ثانياً: «الإيحاء بأنّ محاربة ومقارعة الأنبياء للأصنام وعبادة الأوثان، تنحصر وتقتصر على الحجارة والأخشاب الجامدة التي لا روح فيها، وأنّ أنبياء من مثل (إبراهيم) الذي كان سباقاً في تحطيم الأصنام، قد اقتصر عمله- والعياذ بالله- على تلك الأصنام الحجرية، وترك ساحة الجهاد وميدان النضال ضدّ الظالمين».

ص: ٤٥

ويردّ الإمام على هؤلاء المتآمرين على الحقائق القرآنية والتاريخية بأنّ «كلّ ما أقدم عليه النبي إبراهيم من تحطيم الأصنام وجهاد النمروديين وعبدة الشمس والقمر والنجوم، ما هو إلّا مقدّمة لهجرة كبرى، وإنّ كلّ تلك الهجرات والشدائد والصعاب والعيش في وادٍ (غير ذى زرع) وبناء البيت والتضحية بإسماعيل، كانت مقدّمة لبعثه ورساله ختمت فيها الرسل، وضمت عودة لحديث أول وآخر بناء ومؤسسى الكعبة، وأبلغت رسالتها الأبدية بكلام خالد: إنّي برىء ممّا تشركون!

مقارعة الأوثان المعاصرة

يرى الإمام أنّ الاختصار على الرؤية التاريخية القديمة للأصنام ومعابدها، يوصلنا إلى نتيجة خاطئة وهى: «عدم وجود صنم أو وثن وعبادته فى هذا العصر»، ولذا يرى أنّه لا يوجد إنسان عاقل فى الدنيا «لا يدرك عبادة الأصنام الجديدة وأحاييلها، ولا يعرف هيمنة معابد الأصنام فى واقعنا المعاصر - كالببت (الأسود) الأمريكى - على البلاد الإسلامية، وعلى أرواح وأعراض المسلمين والعالم الثالث..».

يرى الإمام أنّ عصرنا زاخرٌ بالأصنام والأوثان ومعابدها، وأنّ الطاغوت السياسى هو الصنم الكبير الذى دعانا القرآن إلى رفضه والثورة عليه:

فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

إنّ الصراع التاريخى المرير بين أولياء الله وأولياء الطاغوت، وما صراعنا المعاصر إلّا امتداد لذلك الصراع والتدافع، وتبقى المصاديق للطاغوت والظلمات ثابتة فى مضمونها وإن اختلفت أشكالها.

ويعطى الإمام المصاديق المتنوعة للظلمات:

ص: ٤٦

(الجهل) و (المعصية) و (التبعية للغرب والانبهار به)، ويعتبر الأخير من أشدّ الظلمات «لأنّ جميع مشاكلنا ومصائبنا تكمن في أننا فقدنا أنفسنا، ونسينا مفاخرنا، وقضينا على كرامتنا واستقلالنا ووطنيتنا. كلّ هذه ظلمات، والطاغوت هو الذى أخرجنا من نور الاستقلال والوطنية والإبداع العلمى، إلى ظلمات التبعية والذيلية والشعور بالدونية».

بيد أن أكبر هذه الظلمات وأخطرها هي ظلمة (الأنانية) لأنها «العدوّ الأسوء من كلّ الأعداء، والوثن الأكبر من كلّ الأوثان، بل هي أمّ الأوثان، وما لم يحطّم الإنسان هذا الوثن لا- يمكن أن يُصبح إلهياً؛ لأنّه لا- يمكن الجمع بين الله والوثن، وبين الإلهية والأنانية».

ومن منطلق هذه الرؤية القرآنية الرائعة والمعاصرة لمعنى (الطاغوت) و (الوثن) و (الصنم) يمتزج البعد السياسى- الاجتماعى لفريضة الحجّ بالبعد النفسى- العرفانى؛ ليشهد الحجّج الآتون من كلّ فجّ عميق منافع على أصعدة متعدّدة، وساحات متنوّعة، وميادين شتى. إنّ هذا الالتحام الرائع بين أبعاد الحجّ وآفاقه لا يتحقق إلّا بوعينا لأبعاد (الطاغوت) ومصاديقه، التى تمتدّ من ميدان النفس إلى ميادين القتال والجهاد والنضال.

ومن هنا ندرك مقولة الإمام ومدى دلالاتها العميقة:

«إنّ البعد (السياسى- الاجتماعى) للحج لا يتحقق إلّا بتحقيق بعده (المعنوى- الإلهى)»!

ولهذا يدعوا حجاج بيت الله الحرام قائلاً:

«لتكن تلبّياتكم تلبية لدعوة الله، وليكن إحرامكم من أجل الوصول إلى ساحة الحضور الإلهى. وأنتم تلبّون ارفضوا الشرك بجميع مراتبه، وهاجروا من ذواتكم التى هي مصدر الشرك الأكبر إلى الله عزّ وجلّ».

ص: ٤٧

ويتمنى للحجاج المهاجرين الوصول إلى «الوفاء التي تعقب الهجرة، لينالوا ما وقع على الله من أجر». وهذه إشارة واضحة إلى آية الهجرة: ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. وآية الهجرة هذه طالما ركز عليها الإمام في خطابه ورسائله وكتبه إلى درجة تكاد تكون في المقام الثاني بعد آية القيام، ذلك لأنه يؤمن إيماناً عميقاً بأن وصول السالك إلى مرحلة الفناء التام، والمحو المطلق، ثم الصحو بعد المحو، هو الذي يجعله ذا إرادة نافذة للحق تعالى، حينما يزول غبار الكثرة، وتتكسر أصنام كعبة القلب، وما لم تتكسر تلك الأصنام لا يمكن للإنسان أن يسعى في تكسير الأصنام الأخرى الحجرية أو البشرية المتمثلة بالطاغوت السياسي - الاجتماعي.

من هذا المنطلق يؤكد الإمام على حقيقة بعثه الأنبياء والمرسلين، والمقصد الأساس وراء إنزال الكتب السماوية، قائلاً: «لقد بعث الأنبياء كافة، وأنزلت الكتب السماوية كافة، من أجل إخراج الإنسان من معبد الأصنام هذا - (الأنانية التي هي أم الأوثان) - وتحطيمها، وتحويله إلى عابد لله»، وعندما يخرج الإنسان من ظلمات الأنانية «يصبح عاملاً لله، مقاتلاً في سبيل الله».

من هذا المنطلق - أيضاً - يخاطب الإمام حجاج بيت الله قائلاً: «ما دمت مكبليين بأغلال ذاتياتكم وأهوائكم وأنانياتكم لا تستطيعون الجهاد في سبيل الله، ولا الدفاع عن حريم الله».

«ولو تحقق في الإنسان هذا الجانب العرفاني والمعنوي وحده، واقرنت التلبية - (لبيك اللهم لبيك) - صدقاً بنداء الله تعالى، فإن الإنسان سيحقق الانتصار في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية، وحتى العسكرية.

وإن مثل هذا الإنسان لا يفهم معنى الهزيمة والفشل».

ص: ٤٨

«بتلييتكم قولوا (لا) لكل الأصنام. وأى صنم أكبر من الشيطان الأكبر أمريكا الطامعة؟!»

أرفضوا كل الطواغيت الصغار والكبار.

اجعلوا قلوبكم في الطواف حول بيت الله خالية من غير الله، فإن الطواف يرمز إلى عشق الله.

نزهوا أنفسكم من أن تخاف من غير الله تعالى.

تبرأوا- مع عشق الله- من الأصنام الكبيرة والصغيرة، ومن الطواغيت وأتباعهم..

وفي لمسكم للحجر الأسود بايعوا الله لأن تكونوا أعداء أعداء الله ورسوله والصالحين والأحرار..

اقتلوا جذور الخوف من قلوبكم فإن كيد أعداء الله- وعلى رأسهم الشيطان الأكبر- كان ضعيفاً، مهما تفوقوا في وسائل القتل والدمار

والإجرام..

وفي السعي بين (الصفاء) و (المروءة) اسعوا- بصدق وإخلاص- لتجدوا المحبوب، فإن وجدتموه يقطع كل انشداد إلى الدنيا، وينقلع

كل شك وتردد، وتنفصم كل القيود، وعندها تفتتح براعم الحرية وتتحطم الأغلال التي كبل بها الطواغيت عباد الله، وأسروهم

واستعبدوهم.

واتجهوا إلى (المشعر الحرام) و (عرفات) بشعور وعرفان، وزيدوا دوماً من ثقتكم بوعد الله وحكمته المستضعفين، وتفكروا بآيات الله

في هدوء وسكون.. وفكروا في إنقاذ المحرومين والمستضعفين من مخالف المستكبرين.

اذهبوا إلى (منى) لتناولوا فيها الأمانى الحقّة المتمثلة في تقديم أعز ما عندكم قرباناً على طريق المحبوب..».

«برجمكم (العقبات الثلاثة) عاهدوا الله على رجم وطرد شياطين الإنس والقوى المستكبرة من بلدان العالم الإسلامي».

وهكذا تلتحم الثورة والعرفان، وتتعاقد السياسة والعبادة، ويتزامن السعي

ص: ٤٩

بين الصفا والمروة بالسعى نحو تحقيق الأمانى الحرّة، ورجم العقبات برجم الطاغوت، وطواف الكعبة بالقيام والنهضة والثورة. وهكذا- أيضاً- يتحوّل عيد الأضحى المبارك إلى عيد التضحية والبذل والفداء والعطاء فى سبيل الله، ومقارعة الظالمين والطاعين؛ لأنه «العيد الذى يذكر الواعين بالتضحية الإبراهيمية، ويقدم دروس الفداء والجهد فى سبيل الله إلى أبناء آدم وأصفياء الله وأوليائه». لقد علمنا إبراهيم- شيخ الموحدين ومحطّ الأصنام ومؤسس الإيثار- كيف نعيّد ومتى، «علمنا وعلم الجميع أن نقدّم أعزّ ثمار حياتنا فى طريق الله، ثم نعيّد!!»: فلما أسلما وتلّهُ للجبن* ونادياه أن يا إبراهيم* قد صدّقت الرؤيا إنّنا كذلك نجزي المحسنين* إنّ هذا لهو البلاء الممين* وفديناه بذبحٍ عظيم* وتركنا عليه فى الآخرين. الهوامش:

ص: ٥٥

فتاوى الإمام فى الحجّ

فتاوى الإمام فى الحجّ

فتاوى الإمام فى الحجّ

محمّد جواد الطبسى

عندما نتصفّح الآراء الفقهيّة للإمام الخمينى رحمه الله فى فريضه الحجّ نظنّ أنّ شرطاً كبيراً منها صدرت طبقاً لرعايه الحاج وتسهيلاً عليه فى بعض مناسكه.

ومن أجل ذلك ترك كثيرًا من الاحتياطات، التى قالها بعض مراجع الإسلام رعايه لموقعهم المكانى والزمانى، فإننا وإن لم يسعنا القول بأنّ كل فتاواه صادرة بالنظر إلى هذه المصلحه التسهيليه على العباد، ويمكن أن اجتهاده أدّى إلى هذا القول، ولكن بالقياس إلى كثرة احتياطات مراجع الإسلام فى هذا المجال وقلمه احتياطاته، نخلص إلى هذه النتيجة: بأن فتاواه فى الحجّ أسهل بكثير للعمل من فتاوى الآخرين.

ويشهد بذلك أنه أحال كلّ الاحتياطات فى الحجّ إلى من لا يحتاط فى ذلك، ممّا يؤكد أنه كان يريد التسهيل عليهم حتى فى المواضع الاحتياطيه بنحو الوجوب وإرجاعهم إلى الآخرين لئلا يقعوا فى الحرج مهما أمكن.

فقال فى جواب السائل: هل يجب عندكم الترتيب بين الرمى والذبح والحلق؟ وهل يمكن الرجوع إلى مجتهد آخر لا يرى الترتيب لازماً حتى فى

ص: ٥٦

حال الاختيار؟ وهل تجيزون الرجوع فى حدّ المطاف إلى مجتهد قد توسّع فى أمره؟
قال: رعاية الترتيب واجبة على الأحوط، ويمكن الرجوع إلى الغير فى هذا الاحتياط وفى غيره من الاحتياطات». وإليك جملة من هذه الفتاوى كما يلي:

١- وجوب تبعية حكم القاضى بثبوت الهلال:

أفتى الإمام رحمه الله بمتابعة قول الحاكم فى ثبوت هلال شهر ذى الحجة وإن لم يثبت عندنا، وإن لم يمكن العمل على طبق المذهب الحق بلا تقيّة وخوف.

وقال فى بحث الوقوف بعرفات فى المسألة السابعة: لو ثبت هلال ذى الحجة عند القاضى من العامة وحكم به ولم يثبت عندنا، فإن أمكن العمل على طبق المذهب الحق بلا تقيّة وخوف وجب، وإلاّ وجبت التبعية عنهم وصح الحج لو لم تبين المخالفة للواقع، بل لا يبعد الصحة مع العلم بالمخالفة، ولا تجوز المخالفة، بل فى صحة الحج مع مخالفة التقيّة إشكال...

وأجاب سماحته فى المسألة ١٨ عن هذا السؤال:

ذكرتم أنه إذا حكم قاضى مكّة بأنّ اليوم عيد ولم تكن على يقين بخلافه، تجوز لنا متابعتة، فإذا كنّا نستطيع فى هذا الفرض الاحتياط والإتيان بوقوف عرفات والمشعر وأعمال منى بدون محذور حتى نحرز الواقع، فهل يكون ذلك واجباً أم لا؟
قال رحمه الله: تجب التبعية حتى مع العلم بالخلاف.

٢- كفاية الصلاة جماعة مع المسلمين:

وأفتى الإمام رحمه الله بجواز الصلاة خلف العامة، وبكفاية كلّ صلاة صلّاها فى المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف جماعة معهم ولا يحتاج إلى إعادة ذلك. فنراه حين سئل: هل يجب على من يصلّى الصبح جماعة مع المسلمين أن يعيدها بعد أن تضىء السماء أم تكفى تلك الصلاة؟

فيجب الإمام رحمه الله: الصلاة فى الفرض المذكور جماعة صحيحة ولا إعادة.

ص: ٥٧

٣- جواز الصلاة بنحو دائري في المسجد الحرام:

وسئل: لو صلى في المسجد الحرام جماعة بنحو دائري بحيث كان واقفاً مقابل إمام الجماعة أو على جانبه هل تحتاج الصلاة إلى إعادة؟

فأجاب رحمه الله: لا تجب إعادة الصلاة مع هذا الوضع الفعلي.

٤- جواز السجود على السجّاد في مسجد النبي صلى الله عليه وآله

وأفتى سماحته بجواز السجود على السجّاد المفروش في المسجد النبوي الشريف، وبعدم وجوب اختيار مكان آخر غير مفروش، أو استصحاب حصير للسجود عليه، فقال: لا مانع من السجود في مسجد النبي على السجّاد، ولا يجوز وضع التربة، ولا يجب عليه اختيار المكان الموجود فيه حجر للصلاة، ولا يجب عليه أيضاً أن يأخذ معه حصيراً ونحوه، ولكن إن روى ذلك بحيث لا يوجب الوهن، وأخذ معه حصيراً للصلاة وصلى عليها بحيث يكون ذلك متعارفاً عليه عند سائر المسلمين فلا إشكال، لكن يؤكّد الاجتناب عن كلّ عمل يوجب الهتك والشهرة.

وأجاب عن السؤال التالي أيضاً:

هل يجوز بعد الإنتهاء من صلاة الجماعة في مسجد النبي السجود على سجّاد المسجد، أم يجب الذهاب إلى حيث يوجد حجر والصلاة عليه؟

فقال رحمه الله: لا يجب إختيار مكان يوجد فيه حجر.

٥- عدم لزوم مراعاة مكة القديمة:

ومن فتاواه الميسرة في مكة هو عدم وجوب مراعاة مكة القديمة لمسائل منها الإستظلال محرماً إلى المسجد الحرام وركوبه السيارات المسقفة وغير ذلك كما سيأتى، فعلى حسب رأى الإمام رحمه الله أن المحرم لو نزل مكة وإن كان البيت الذي نزل فيه بعيداً عن المسجد الحرام، فيما أنه يصدق أنه مكة ومن بيوت مكة، فلا بأس بالاستظلال منها نهائياً إلى المسجد الحرام، وهذه الفتوى في مقابل من احتاط بدخول المحرم من مكة القديمة ومن ذلك المكان، لا بأس بالاستظلال إذا اتجه إلى المسجد الحرام لأداء المناسك وإتيان العمرة. وإليك

ص: ٥٨

بعض فتاواه:

أ- جواز الاستظلال من منزله وإن كان بعيداً:

قال الإمام رحمه الله: بعد وصول المحرم إلى المنزل ولو إلى الأماكن الجديدة فى مكة البعيدة عن المسجد الحرام، يجوز الذهاب منها إلى المسجد بسيارة مسقوفة كما يجوز الاستظلال.

ب- جواز الاستظلال من التنعيم إلى مكة

وهكذا أفتى بجواز الاستظلال من التنعيم إلى مكة لو أحرم منها وأراد الاستظلال، أو أراد أن يركب السيارات المسقوفة للذهاب إلى المسجد الحرام.

وأجاب عن سؤال السائل: ما حكم الاستظلال لمن أحرم فى التنعيم؟

قال: حيث إنّ التنعيم جزء من مكة ومكة منزل من المنازل، فلا مانع من الاستظلال فى فرض السؤال.

وأجاب عن السؤال التالى: ميقات العمرة المفردة مكة، فهل يستطيع من أحرم فيها لعمرة مفردة أن يركب سيارة مسقوفة أم لا مع الالتفات إلى أن مكة محل سكنه؟

الجواب: لا مانع منه فى الفرض المذكور.

ج- جواز إحرام الحج من كل مكان يصدق عليه مكة:

قال فى مناسكه: محل الإحرام للحج مدينة مكة فى أى موضع منها حتى الأمكنة الجديدة.

وأجاب عن هذا السؤال بأنّ: هناك أماكن جديدة مستحدثة فى مكة تبعد عن المسجد الحرام أكثر من ١٨ كيلومتراً، ولعلّها عرفاً من توابع مكة دون أن تكون من مكة؛ لأنهم عندما يضعون اللافتات يحدّدون فيها أين تبدأ مكة، فهل يمكن الإحرام فى تلك الأماكن؟

الجواب: إن كانت من محلات مكة فلا مانع، وإن لم تكن أو شكّ فى كونها كذلك فلا يصح.

وسئل أيضاً أنه: تحيط بمكة عدّة جبال شاهقة ومرتفعة وقد بنى على طرفى الجبل، فأحياناً يحتاج الذهاب من أحد الجانبين إلى الآخر لاجتياز عدّة كيلومترات، علماً بأن سكان أحد الجانبين منفصلون عن الجانب الآخر

ص: ٥٩

مثل شعب بنى عامر القريه من المسجد الحرام والعزيمه التى هى فى الجانب الآخر على بُعد ٩ كيلومترات أو أكثر، لكن حسب المسافه العرفيه يقال لجميع هذه النقاط مكّه، فهل يصح الإحرام لحج التمتع من هذه النقاط وشبهها أم لا؟
الجواب: إن كانت من مكّه صحّ الإحرام منها للحجّ، وإن كانت الأبنيه حديثه البناء.

٦- جواز الاستظلال فى الليل

وأفتى سماحته بجواز الاستظلال ليلاً لمن أراد السير من مسجد الشجره أو الجحفه فى حال الإحرام إلى مكّه فى مقابل من قال بالاحتياط الوجوبى فى ذلك.

فقال: يجوز الاستظلال فى الليل، فيجوز للمحرم الذهاب إلى مكّه بسياره مسقوفه فى الليل لكن لا يجوز فى النهار، وإن كان هناك كثافه غيوم، إلّا إذا كانت هناك ظلمه بحيث لا يصدق الاستظلال.

٧- عدم لزوم إعادة الأعمال لثلاث طوائف لو انكشف الخلاف:

وقال عند البحث عن جواز تقديم أربع طوائف المناسك الخمسه الباقية بعد أيام التشريق من الطواف وصلاته والسعى وطواف النساء.

المسأله ٣: لا يجوز تقديم المناسك الخمسه المتقدمه على الوقوف بعرفات والمشعر ومناسك منى اختياراً ويجوز التقديم لطوائف:

الأولى: النساء إذا خفن عروض الحيض أو النفاس عليهنّ بعد الرجوع ولم تتمكّن من البقاء إلى الظهر.

الثانيه: الرجال والنساء إذا عجزوا عن الطواف بعد الرجوع لكثرة الزحام، أو عجزوا عن الرجوع إلى مكّه.

الثالثه: المرضى إذا عجزوا عن الطواف بعد الرجوع للازدحام أو خافوا منه.

الرابعه: من يعلم أنه لا يتمكن من الأعمال إلى آخر ذى الحجّه.

مسأله ٤: لو انكشف الخلاف فيما عدا الأخيره من الطوائف، كما لو لم يتفق الحيض والنفاس أو سلم المريض، أو لم يكن الازدحام بما يخاف منه، لا تجب عليهم إعادة مناسكهم وإن كان أحوط.

ص: ٦٠

٨- من خالف الترتيب يوم العيد سهواً أو جهلاً:

لا- يخفى أن على الحاج في يوم العيد ثلاثة أعمال: الرمي والهدى والحلق أو التقصير، فيجب عليه أن يأتي بهذه الأعمال بالترتيب المذكور، فلو قدم كلاً من الحلق والهدى على الرمي عمداً، يجب عليه الإعادة بنحو الترتيب المذكور إلّا الساهى والجاهل على فتوى الإمام رحمه الله فإنه لا يجب عليه إعادة الأعمال للحصول على الترتيب المذكور.

قال الإمام الخميني رحمه الله: الأحوط تأخير الحلق والتقصير عن الذبح وهو عن الرمي، فلو خالف الترتيب سهواً لا- تجب الإعادة لتحصيله، ولا يبعد إلحاق الجاهل بالساهى.

٩- جواز الرمي من الطابق الأعلى:

ومن فتاواه الميسرة في الحج أنه أفتى بجواز الرمي من الطابق الأعلى بخلاف من احتاط في ذلك، وقال: يجوز الرمي في الطابق الثاني للجمار، ولا يجب الرمي في الطابق الأول.

١٠- جواز الحلق في الليل:

وقال رحمه الله في المسائل المتفرقة في الحلق في المسألة الثانية:

والحلق في الليل صحيح أيضاً ومجز.

١١- كفاية الذبح في الليل:

وأفتى أيضاً بكفاية الذبح في الليل في مقابل من احتاط أو قال بعدم الإجزاء، فقال في المسائل المتفرقة في الهدى في المسألة الخامسة:

لا يجوز تأخير الذبح عن يوم العيد عمداً على الأحوط، لكن لو أخر عمداً أو جهلاً أو نسياناً يكفى الذبح في الليل.

١٢- كفاية الذبح في المسلخ الجديد:

قال رحمه الله: يقال: إن المسلخ الفعلي قد أخذ شيئاً من وادي محسر، وفي هذه الحال ليكن الذبح في منى إن أمكن ولو بالتأخير إلى آخر ذى الحجة، لكن الذبح في المسلخ الجديد مجز.

١٣- كفاية صلاة الملحون لمن لا يقدر على التصحيح:

وأفتى الإمام أيضاً بكفاية صلاة الطواف للذي حاول على تصحيح صلاته، أو ضاق الوقت ولم يقدر على

ص: ٦١

إتيان الصلاة الصحيحة من حيث القراءة فإنه قال بكفاية صلاة الملحون ولم يحتط كما احتاط الآخرون من إتيان الصلاة جماعة، أو من يصلى عنه نيابة وأنه وإن احتاط فى صورة الإمكان لتلقين هذا الشخص هذه الصلاة أو الاقتداء بشخص عادل، ولكن صرح بأنه لا يكتفى به ولا- بالنائب، ويجب عليه إتيان الصلاة بنفسه بأى صورة أمكن. فقال: لو لم يتمكن من القراءة الصحيحة ولم يتمكن من التعلّم، صلى بما أمكنه وصحّت ولو أمكن تلقينه للأحوط ذلك، والأحوط الاقتداء بشخص عادل، لكن لا يكتفى به كما لا يكتفى بالنائب.

١٤- كفاية طواف نساء واحد عن عمرات متعدّدة:

وأفتى أيضاً بكفاية طواف نساء واحد عن عمرات متعدّدة فى مقابل من احتاط بعدم كفاية طواف نساء واحد وقال: لكلّ عمره طواف نساء.

وقال: إذا أتى الشخص بعدّة عمرات مفردة، لكن من دون طواف النساء يكفى عن الجميع طواف نساء واحد.

١٥- عدم وجوب الرجوع إلى منى لمن خرج قبل الزوال وإن عصى:

وأفتى أيضاً بعدم وجوب رجوع الحاج إلى منى للنفر فى اليوم الثانى عشر بعد الزوال لمن خرج من منى قبل الزوال، وإن عصى بخروجه قبل الزوال.

فى قبال من احتاط لذلك وقال برجوعه ليصدق النفر.

قال رحمه الله: إذا أتى الحاج إلى مكة قبل الزوال لا يجب عليه العود إلى منى للنفر بعد الظهر، وإن كان لا يجوز له الذهاب إلى مكة قبل الزوال.

١٦- جواز خروج من لم يأت بأعمال مكة:

وأفتى أيضاً بجواز خروج من فرغ من أعمال منى ولم يأت بعد، بأعمال من بعد منى، أن يخرج من مكة ويرجع متى شاء ويأتى بأعمال مكة، وله أن يؤخّر الأعمال إلى آخر ذى الحجة.

فقال فى جواب السائل: هل يمكن الخروج من مكة بعد الإتيان بأعمال منى وقبل الإتيان بأعمال مكة؟ فأجاب رحمه الله أنه: لا مانع فيه.

ص: ٦٢

١٧- عدم وجوب تثليث الهدى:

ومن فتاواه الميسرة في هذا المجال عدم إلزام تقسيم الهدى إلى ثلاثة أقسام، كما ألزمه بعض ولو بنحو الاحتياط. فقال رحمه الله: لا يجب تقسيم الهدى ثلاثة أقسام وبيع حصّة الفقير أو هبتها قبل الذبح وبدون القبض باطل، وعليه فما يقوم به البعض إذ يدعون الفقراء أو الوكالة عن فقير ويبيعون ثلث الفقير من الذبيحة للحاج أو يهبونه إياه غير صحيح. كان هذا عرضاً موجزاً لبعض الفتاوى الفقهية الميسرة للإمام رحمه الله في الحج، ومن أراد أكثر من ذلك فعليه بالمناسك وسائر الاستفتاءات المخصّصة بذلك.

الهوامش:

ص: ٦٤

الابداع السياسى عند الامام الخمينى (قدس سره)

الابداع السياسى عند الامام الخمينى قدس سره

الابداع السياسى عند الامام الخمينى قدس سره

خضير جعفر

الفراة التاريخة التي اتسمت بها شخصية الإمام الخمينى قدس سره صيرت منه رجلاً استثنائياً بكلّ ما تحمل الكلمة من معان فرضت نفسها على الواقع، الذى أطلّ عليه الإمام رضى الله عنه ليهبه من روحه ما لَوْن به وجه الحياة وألبسها من برود الثورة وأردية الثوار أكاليل فخار سوف تظل معالم مجدها تحكى قصة الثورة الاسلامية، التي فجرها الخمينى الخالد فى عصر جديب راهن فيه الكثيرون على استحالة عودة الاسلام الى صلب الحياة برنامج عمل ونظام حكم ومنهج حياة، وإلى الحد الذى كان يترأى للمحللين السياسيين أنّ هذا الثائر المارد لا يمكن إلّا أن يكون أحد الساسة اليساريين، وإلا كيف يمكن لعالم دين يناهز السبعين عاماً أن ينطلق فى نهايات القرن العشرين من خارج اللعبة الدولية؛ ليؤسس نظاماً إسلامياً فى منطقة امتيازات استراتيجية لا يمكن أن تغفل الدول الكبرى عنها لتتنصب بؤرة ثورة ومثابة ثوار يتبنون الاسلام فكراً وعقيدة ونظاماً، ولذلك جاءت الثورة الاسلامية مباغتة للعالم الذى صحا فى الحادى عشر من شباط ١٩٧٩ م على صوت زلزال هزّ العالم.

ص: ٦٥

وكما حير الخميني العظيم دهاقنة السياسة وأساطينها عند انتصاره، فقد حيرهم أيضاً أدائه السياسي بعد الانتصار حينما قلب الطاولة على رؤوس المنظرين السياسيين وأثبت بطلان مقولاتهم، فظلوا أمام إبداعاته مبهوتين، قد سمرت عمامته السوداء أبصارهم، وهم في حالة ذهول لا يدرون ماذا تخفى تلك العمامة من أفكار في رأس رجل أبي إلّا أن يتمرد على الدنيا، ويلوى أذرع الممسكين بأسباب القوة فيها؛ ليعلم عندها قانون (عجز القوة المادية) عن قهر إرادة الشعوب وقادتها الأحرار الكبار.

فلقد كانت ولادة الثورة الإسلامية بقيادة ربّان سفينها الامام الخميني ولادة قيصرية عسيرة راهن الكثيرون على إمكانية إجهاضها من قبل القوى الكبرى، التي لا يروق لها ولادة ثورة خارج رحم اللعبة الدولية في عالمنا الاسلامي، لكن الخميني العظيم الذي أصرّ على الإبحار باتجاه معاكس لمجاري المياه الاستكبارية وتياراتها الجارفة كان مع النصر على موعد قد آمن به من الأعماق معتمداً على الأمل بنصر الله ومتوكئاً على الثقة التي منحتها له الجماهير.

فانطلق الإمام عملاقاً مارداً لا يعرف التوقف ولا الالتفات الى الوراء؛ ولذلك تميّز بصلابته المواقف رافضاً أنصاف الحلول أو الهدنة المؤقتة رغم علمه بفداحة الخسائر، وأنهار الدماء التي سالت في شوارع طهران والمدن الإيرانية الأخرى، وكأنه يعلم أنّ شجرة الثورة عطشى لتلك الدماء النازفة، ولا يمكن أن يتوقف النزف إلّا عند الانتصار، أو كأن شجرة الثورة لا يمكن أن تثمر نصراً حتى ترتوى؛ ولذلك كلما أصرّ شاه ايران على تصفية الحساب مع الشارع الثائر بالمزيد من الرصاص والموت والدماء أصرّ الخميني على المواجهة ومهما كانت التضحيات الى أن أبطل نظرية الحكم الشاهنشاهي القائمة على القمع والمراهنة على العنف، فسقط الشاه بسقوط تلك النظرية، التي لم تقوَ على مقاومة تيار الثورة الهادر والمصمم على مواصلة الدرب حتى النهاية. عندها لم يجد الشاه مخرجاً من هذا النفق

ص: ٦٦

المسدود غير التوجه الى مطار مهرآباد ليترك إيران فاراً بجلده غير مأسوف عليه.

وما إن انتهت ملحمة المواجهة الخمينية مع قوات الشاه، إلّا لتبدأ مرحلة ثانية في مواجهة واجهة أخرى من صنائع الشاه من عسكريين مغامرين ومدنيين طامحين في السلطة، لكن الإمام ظلّ مصرّاً على المواجهة حتى أسقط من خلفهم الشاه بطهران فسقطوا واحداً تلو الآخر؛ ليعلن عندها بثقة واطمئنان كلمته الشهيرة في مقبرة (جنّة الزهراء) بطهران: (أنا الذى سأعين الحكومة).

وما إن أعلن الحكومة المؤقتة حتى التفت الى الجماهير ليستفتيها في نوع الحكم الذى تريد محدداً خياراتها بين أمرين: نعم للجمهورية الاسلامية أم لا.

فجاءت النتائج لتقول (نعم) وبنسبة تناهز الإجماع؛ ليثبت بذلك حجر الزاوية للنظام الاسلامى، وليؤسس عليه دستور البلاد، فيقطع الطريق على كلّ محاولات الالتفاف المستقبلية، التى ربما يسعى لها الذين فى قلوبهم مرض يوماً ما، وليظل ذلك التصويت الجماهيرى وذلك الدستور صمام أمان وضمانة كبرى لديمومة الحكم الاسلامى الذى اختارته الأمة وصوّتت لصالحه الجماهير المسلمة، ومن هنا يمكن القول: إنّ الإمام الخمينى قد قسّم التاريخ المعاصر الى حقبتين: حقبة ما قبل الخمينى وحقبة ما بعده، وإذا ما كانت الحقبة الأولى قد تميّزت بالهيمنة الاستكبارية والتفرعن الطاغوتى فى مقابل الانسحاق والشعور بالتبعية من قبل المسلمين، وإذا ما اتسمت الحقبة الأولى أيضاً بالاستثثار؛ الاستكبارى والاستهتار؛ ليشعر معها المسلمون بالتهميش والإلغاء والمصادرة والحيث، فإنّ حقبة ما بعد الخمينى قد غيّرت المعادلة لصالح الاسلام والمسلمين، وحوّلتهم من مواقع الهزيمة الى خنادق المقاومة، ومن مواضع الإنزواء والإنكفاء الى خطوط التحدى والتصدى، بل ومن مواضع الدفاع الى مواقع الهجوم، وبذلك صير الإمام الخمينى من الأرقام المهمشة للجماهير رقماً صعباً يستعصى على الإلغاء والشطب والتغيب فى كلّ المعادلات السياسية، وكان رهان الإمام فى منازلته مع الحكم

ص: ٦٧

الطاغوتى على الأمة وحركتها ومقاومتها وتضحياتها، رافضاً ما تعارف عليه ثوار العالم الثالث من منطق الانقلابات العسكرية، التى لا دور فيها للجماهير إلّا الاستماع الى الراديو والتلفزيون، وهما يعلنان البيان الأول للثورة، وعندها تتساءل الجماهير عن هوية الثورة وقادتها الذين يمتطون ظهور الدبابات ويعلنون حالة الطوارئ ومنع التجول الى إشعار آخر. فى حين تحرك الإمام الخمينى من وسط الجماهير وقادها لمواجهة الدبابات والقوات العسكرية، التى عجزت عن مواجهه الشارع حتى أذعنت لصدوده وإصراره بعد حين.

عناصر القوة فى قيادة الإمام

يمكن إجمال عناصر القوة فى قيادة الخمينى للشارع الايرانى بما يلى:

١- الشخصية الفذة للإمام، التى امتلكت من قوة الايمان بالله والثقة بالجماهير والوضوح فى الرؤية والفهم الواعى للواقع ما مكنها من خوض معتركات الجهاد وسوح المنازلة دون تردد، غير هيابٍ مما لدى السلطة من وسائل ردع وأسباب قوة ودعم خارجى ووسائل إعلام قادرة على تزييف الحقائق وتضليل الجماهير.

٢- قدرة الإمام الخمينى على ربط الشارع بالشرعية، وتبنى الطرح الاسلامى حلاً لمشكلات الحياة والمجتمع، وبذلك استطاع الإمام أن ينفذ الى عمق الانسان ويوظف كل قدراته فى هذا الاتجاه، ومن هنا فإن الإمام الخمينى تمكن من أسلمة الصراع وإضفاء الطابع العقائدى والايديولوجى على حركته المباركة فتعامل الجمهور معها على أنها تكليف شرعى يتطلب بذل المال والجهد والروح دونما منه أو استكثار، وبذلك لم يُمَنَّ الإمام أتباعه بمصالح دنيوية ومكاسب مادية، وإنما وضع مفهوم رضا الله نصب أعين جمهوره، وصير من ثقافة الاستشهاد فى سبيل الله منبعاً متدفقاً بالعطاء لا يطاله الجذب ولا يخشى عليه الجفاف، ولذلك اندفع الشارع الايرانى باستبسال نحو فوهات المدافع والرشاشات والدبابات حتى إذا ما سقط شهيد برصاص قوات الشاه تدافع الجمهور على حمله وتشيعه وهم

ص: ٦٨

يصبغون أيديهم وثيابهم بدمه، عندها أدرك الشعب أنّ من يطلب الموت ستوهب له الحياة، كما أدرك الشاه أنّ المستميت لا يموت؛ ولذلك صار المواطن العادى يقع على الموت وهو يبحث عنه ولا ينتظر الموت لكى يقع عليه.

٣- اعتماد الإمام الخمينى على الامكانيات الذاتية، ولم يفكر - مجرد تفكير - بالالتكاء على الغير، فقد رفض الارتباط بأيّة قوة أجنبية، وتوجه للجمهور الذى لم ييخل على قائده بالغالى والنفيس فأعطاه من المال ما مؤّن الثورة بأسباب الديمومة والتصعيد، ومن الجهد ما دوّخ به النظام وأجهزته الأمنية، التى عجزت عن إيقاف عملية الثورة أو تعطيلها كما قدّم أنهار الدماء؛ ليصير منها زيتاً يتوقد بوعى وإيثار كى لا تنطفئ شعله الثورة الوهاجة التيرة.

إنّ الإمام الخمينى لم يكن يرى ضرورة للاعتماد على أية قوة خارجية، بل كان يرى فى ذلك خطراً على الثورة ومستقبلها خاصة وأنّ القوى الداعمة لأية ثورة لا يمكن أن تدعمها حبّاً فى سواد عيون الثوار، وإنّما كان لها مصالحها وحساباتها، التى قد تتقاطع مع مصالح الثورة وطموحات جماهيرها، هذا فضلاً عن تشخيص الإمام بأنّ عالمنا المادى لا وجود فيه لقوة يمكن أن تناصر الاسلام وقيمه الخيرة وجماهيره الثائرة؛ ولذلك قطع الطريق على من كان يفكر بمدّ جسور التفاهم مع الآخرين لدعم الثورة، وبذلك تمكن من قطع الأيدى الخارجية عن التدخل بالثورة، وشؤونها، فحفظ للثورة أجيالها، ومنحها فضيلة الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتى، فعزّز قوتها وضمن ديمومة حركتها وسلامة خطّها من الانحراف، وقد انطلق الإمام فى هذا النهج من خلال رؤية قد تفرّد بها فى تقسيم العالم الى معسكرين:

أولهما: معسكر المستكبرين الذى يضم القوى الكبرى وعملاءها المحليين الذين تعاقدوا مع أسيادهم الكبار على خدمة مصالحهم فى المنطقة وحراستها حتّى لو اقتضى ذلك قمع شعوبهم واضطهادها ونهب خيرات بلدانهم وتسليمها للأجانب

ص: ٦٩

أولياء نعمه العملاء المتحكمين فى رقاب شعوبهم بقوة الحديد والنار.

وثانيهما: معسكر المستضعفين، والذى يضم كل ضحايا القمع والاضطهاد من شعوب الأرض المغلوب على أمرها والتواقه للتحرر والاعتاق، ووفق هذه الرؤية الموضوعية الجديدة يكون الإمام الخمينى قد صنف الواقع السياسى بدقة لينحاز بشكل طبيعى للمعسكر الثانى، الذى لم يجد معه المستضعفون خياراً غير الانتماء لخط الإمام ومناصرته.

أمّا القوى الكبرى فلأنها متورطة بالأساس فى قمع الشعوب وقهرها؛ ولذلك لا يرى الإمام الخمينى فى الاتكاء عليها أو التعاون معها إلهامية تكريس للقمع والقهر والاضطهاد، ولا يمكن للمستكبرين أن يكونوا أنصاراً للثوار والأحرار والمستضعفين حينما يتورون على القهر ويتمردون على الطغيان، ولذلك لم يجد ضرورة ولا مبرراً للاعتماد على القوى الأجنبية ودعمها للثورة والثوار.

٤- مصادرة الإمام لكل الشعارات، التى طرحتها القوى السياسية إبان الثورة رغم راديكاليته، وبذلك استقطب اهتمامات الشارع الايرانى، الذى وجد فى نهج الإمام صلابه الموقف وأصالة التفكير والرؤية الواضحة للأهداف، وبالتالي لم تملك القوى السياسية غير خيار المتابعة واللتحق بركب الخط الخمينى المتسارع الخطى، كما فوّت الفرصة على الذين كانت أنفسهم تحدّثهم بالمرونة وترحيل المطالب والرضا ببعضها، وتأجيل البعض الآخر منها لوقتٍ قد يحين فيما بعد، فى حين كان الإمام الخمينى يرى أنّ الثمرة الناضجة قد حان قطافها، وأنّ التراخى فى حسم الموقف هو ضياع للفرص، ومنح النظام الطاغوتى مجالاً لترتيب اوضاعه المنهارة وإعطاؤه فرصة مثالية لإعادة تنظيم قواه، ومن ثم الإجهاز على الثورة وتشيت قواها.

٥- استحضار الإمام الخمينى للرمز الاسلامى الأمل، الذى يشكل فى وعى الجماهير، وفى عمق تفكيرها النموذج الاسلامى الجدير بالافتاء به، فكانت

ص: ٧٠

شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وحكومة الإمام على وعدله، وتضحيات الإمام الحسين وصحبه، ومواقف الزهراء البتول وجهادها حاضرة في ميدان المواجهة وشاخصة في الذاكرة. ولم يترك الإمام الخميني فرصة إلا ويذكر الأمة بمواقف هذه الشخصيات العظيمة، ودورها في معركة الحق ضد الباطل، وبذلك يكون الإمام قد قفز بأفكار الجماهير وعنفوانها الثوري الى القمة، وهي ترى نفسها على نفس الخط الذي سار عليه النبي وأهل بيته الكرام عليهم السلام. مما مؤّن النهضة الخمينية بزخم ثوري هائل لا يمكن توفيره دون استحضار تلك القمم الشامخة، واستذكار مواقفها التاريخية الرائعة.

٦- التنظيم الهرمي للثورة الذي اعتمدته الإمام الخميني كان له أكبر الأثر في ربط مفاصل التحرك الجماهيري، حيث تربّع الإمام على قمة الهرم وأشرف عليه بشكل مباشر من خلال دائرة الخبراء والمقررين من أنصاره ومؤيديه من رجال الثورة وعلماء الحوزة العلمية، الذين شكلوا الدائرة الأقرب للإمام، والذين ارتبطوا بوكلاء السيد الإمام في كل المدن والقرى الإيرانية، والذين كان لهم تماس يومي مع الجماهير هناك، وبذلك التنظيم أوجد الإمام عملية ارتباط مباشرة ومتبادلة بينه وبين الجماهير من خلال النسخ النازل، الذي كانت تمثله تعاليم الإمام للجماهير وتوجيهاته لها سواء عبر النقل الشفوي أو التحريري أو الصوتي المباشر من خلال (الكاسيت) فكانت تعاليمه رضوان الله عليه تصل إلى أقصى نقطة في إيران بوقت قياسي، بينما تواصل النسخ الصاعد من القاعدة الجماهيرية الى الإمام القائد من خلال قنوات التوصيل، التي وفّرها هذا التنظيم الهرمي المتناسك، وبذلك كان الإمام على بينة من نبض الشارع وأحاسيسه ومشكلات الثورة وإنجازاتها وهمومها واهتماماتها.

أما الجماهير التي تتابع حركة الإمام وتنفيذ قراراته فقد كانت تدرك أيضاً متابعة الإمام لحركتها، وبالتالي فقد أدى هذا التواصل الى تعميق الصلة بين

ص: ٧١

الجماهير والقيادة، واختزل بينهما المسافات والفواصل، وصير من قرارات الإمام وتوصياته مواقف ميدانية تلامس الواقع وتسير ايقاعاته عن كتب.

٧- الروح الاستيعابية للإمام جسدت مقولة السياسيين وهم يعرفون السياسة بأنها فنّ الممكنات في إدارة التناقضات، فقد تمكن الإمام الخميني من ادارة الثورة واستيعاب كل مفردات التحرك من خلال انفتاحه الايجابي على كلّ الممكنات تاركاً لنقاط الاختلاف مجالها النظري خارج إطار حركة الثورة المتفاعلة ميدانياً وفقاً للأهداف الاستراتيجية المشتركة، وبذلك استطاع الامام أن يستقطب أقصى اليمين وأقصى اليسار، ويصب جهود الجميع في بحر الثورة الذي اتسع أفقه ليشمل كل أعداء السلطة، وبغض النظر عن نقاط الاختلاف بين تلك الفصائل، وبذلك جمع كلّ الطاقات وصبّها في الاتجاه الصحيح، وجنّب الثورة كلّ الصراعات الداخلية والنزاعات الهامشية التي لا- تخدم إلّا العدو المشترك. كما قرر الإمام عدم الدخول في صراع مع أولئك الذين وقفوا ضده، ولم يترددوا في استخدام كلّ الأسلحة لمواجهة، وجرّ الثورة الى صراعات داخلية غير مبررة، وبذلك قضى الإمام بصمت على خصومه الذين أزاقتهم جرافات الثورة عن الطريق، ورمى بهم تيار الوعي خارج دائرة الأحداث، فلا تسمع لهم إلّا همساً سرعان ما خفتت أصواته عندما لم تجد لها أذنّاً صاغية بين أبناء الشعب.

٨- نظرية ولاية الفقيه التي اعتمدها الإمام الخميني أساساً لحركته ومنطلقاً لثورته، ومن ثم اعتبارها الركيزة الكبرى للنظام السياسى الاسلامى والتي تمثل ركناً أساسياً يقوم عليه الحكم الاسلامى في إيران، هي النظرية التي جنبت تطبيقاتها النظام الاسلامى الكثير من المطبات، وشكّلت ضمانه كبرى لسلامة الوطن من التشرذم والتمزق والانقسام، خاصة وأنّ القوى الاسلاميه جميعها تؤمن بهذه النظرية، وترى في الولي الفقيه مرجعية سياسيه ودينيه يحتكم إليها في حالة بروز أى خلاف، ويؤخذ برأيها عند كل تقاطع، وتمارس الإشراف على مجمل

ص: ٧٢

السياسة العامة وخطوطها الكلية.

وبالرغم من المكانة المهمة للولي الفقيه في النظام الاسلامي، إلّا أنّ الإمام أصرّ على ضرورة الرجوع الى رأى الأمة في اختيار الشخصية المؤهلة لمثل هذا الموقع الحساس، فكان انتخاب مجلس الخبراء من قبل الشعب تصويماً شعبياً على الولي الفقيه، الذي أعطى المجلس صلاحيات اختياره وعزله بوصفه ممثلاً لإرادة الشعب واختياراته.

٩- الرؤية الاسلامية الأصيلة للإمام قد أمدّت الثورة برصيد إسلامي وإنساني هائل حينما طرح الاسلام مشروعاً حضارياً لقيادة الحياة متجاوزاً كلّ الأطر القومية والاقليمية وهو يصرخ بأنّ (وطننا هو الاسلام وليس البصرة أو الشام) ولذلك انطلق من هذا الفهم لمناصرة الشعوب وقضاياها العادلة سواء في العراق أو فلسطين أو كشمير أو لبنان وغيرها، بل تجاوز ذلك الى ما هو أكثر بعداً حيث يخاطب مستضعفى العالم وأبناء الشعوب المقهورة وهو يدعوها الى الثورة والتحرر ويمدّ يده اليها دون أن يعير أى اهتمام لردود فعل القوى الاستكبارية، التي ترى في مشروع تصدير الثورة خطراً حقيقياً على مصالحها وامتيازاتها وأطماعها الاستعمارية مما أكسب الإمام الخميني رصيماً بشرياً هائلاً غيّر الكثير من معادلات السياسة وحسابات السياسيين، الذين هرعوا لمحاصرة الثورة الاسلامية والوقوف بوجه أعاصيرها الهادرة، ولم يدّخروا وسعاً في محاربتها وتشويه سمعتها والقضاء عليها، لكن إرادة الله ووعد الجماهير وإيمانها بالثورة والاسلام كان أكبر من كلّ كيد وعدوان؛ ولذلك سقطت المؤامرات كلّها، وبقيت الثورة رقماً صعباً وواقعاً يفرض نفسه على الدنيا بأسرها شاء من شاء وأبى من أبى.

١٠- شكّلت القراءة الجديدة الواعية لمفهوم الحجّ إحدى أهمّ تجلّيات الإبداع السياسي لدى الإمام الخميني قدس سره مع الإصرار على ضرورة الاحتفاظ بالأطر التعبديّة لهذه الفريضة المقدّسة، الأمر الذي جمع بين قداسة الحجّ من جهة

ص: ٧٣

والتعاطى مع الواقع الجديد بكل ما فيه من معطيات وتداعيات ومتغيرات من جهة أخرى، وهو ما أضفى على هذه الشعيرة بعداً سياسياً قد غُيب عنها زمناً ليس بالقصير، لكن مبادرة الإمام الخميني انطلقت هادفةً لكي يعود الحجّ حجاجاً إبراهيمياً يستوعب مفهوم قياماً للناس و مثابته و أمناً ويتعاطى هذا الفهم القديم الجديد مع واقع الأمة الإسلامية التي دبّت في أوصالها عافية الوعي وحيوية الإحساس بالحرّة والكرامة في ظلال حضارة الإسلام المنقذة.

ولذلك جاءت المبادرة الخمينية ومعها كلّ أسباب نجاحها، الأمر الذي عضد من أواصر الترابط بين حجاج بيت الله الحرام ومتنّ عرى التواصل بينهم من خلال الشعور المشترك بضرورة تحويل موسم الحجّ المبارك إلى مؤتمر شعبي تتلاقح في أجوائه الرؤى والآمال المشتركة للمسلمين كافّة.

لذلك تحوّلت مسيرة البراءة من المشرّكين إلى ظاهرة سياسيّة مثيرة للاهتمام والاحترام بقدر ما هي مثيرة أيضاً للهواجس والجدل والخصام، وظلّت الشعارات المطروحة في تلك المسيرة تمتلأ نضجاً سياسياً يغلق الطريق على كلّ أولئك الذين لا يروق لهم أن يتحوّل الحجّ المبارك إلى مدرسة وعي، وحلقته تواصل بين عموم المسلمين من خلال ممثليهم الذين كتب الله لهم أن يكونوا ضيوفه في الديار المقدّسة وفي أيام معلومات، فجاءت تلك الشعارات المركزيّة مدروسة واعية ومعبرة عن الشعور بالكراهيّة للاستكبار العالمي من خلال شعار (الموت لأمريكا) وهو شعار لا يختلف على أهمّيته وجدواه مسلمان.

كما جاءت تحكي رغبة إسلاميّة عارمة من خلال تصعيد وتأثر الكراهيّة للصهيويّة العالميّة وكيانها الغاصب، ثمّ التشديد على ضرورة قيام الوحدة الإسلاميّة التي تمثل رغبة شعبيّة شاملة عبر شعار مركزي جادّ تهتف به الجماهير بحماس (يا أيّها المسلمون اتّحدوا اتّحدوا).

وقد شهدت شعاب مكّة وشوارعها حضوراً إسلامياً واسعاً اصطفّ فيه

ص: ٧٤

الطيب الإسلامى الملوّن من شرق الأرض وغربها هاتفاً بهذه الشعارات متبنيّاً لها مشيراً بضرورة العمل وفق سياقاتها، لكن تفجير هذا الوعى الشعبى فى مثل هذا المكان المقدّس والزمان المطلوب أربع أطرافاً دوليّة وإقليميّة واستفزّها، فأبت إلا مواجهة الجماهير الملتية لدعوة الله سبحانه، وحالت دون سريان هذا الطوفان البشرى الواعد المتوعّد، وقد جسّدت هذه المواجهة أهميّة وخطورة المبادرة الخميّية الرائدة، إذ لو كانت حدثاً عابراً لما أثارت اهتمام أحد، لكن عمق مضامينها وسرعة الاستجابة لها وسعة مدياتها التى ملأ أجواءها الحماس، أفقدت صواب المتوجسين خيفةً منها، فأقدموا على المواجهة التى خسروا معها المصداقيّة، وأعانوا على أنفسهم فى فهم هويّتهم وتوجّهاتهم ونواياهم المبيتة التى كاد الإعلام المضلل أن يغطّى عليها، لكن الإمام الخمينى كان قد سلط عليها الأضواء الكاشفة فانجلت غبرة التضليل عن وقائع وحقائق ستظلّ تلاحق أعداء الوعى إلى أمد بعيد.

١١- مثل الإمام الخمينى النموذج الأمثل والقدوة الصالحة للأمة حينما وجدته خلال عقود جهاده سواء قبل انتصار الثورة الاسلاميّة أو بعدها رجلاً كاملاً الإيمان، لا يخشى أحداً غير الله حيث عظم الخالق فى نفسه فصغر ما دونه فى عينه؛ ولذلك نازل الكبار واستخفّ بقدراتهم وتحداهم، وكأنه قوة كبرى قادرة على مواجهة الاستكبار كلّ.

فلقد عرفت الجماهير قائدها إنساناً يعيش للإسلام، ويضحى بوجوده من أجله، وظل مع الفقراء والمحرومين يعيش كما يعيشون ويحيى كما يحيون، رحل من الدنيا ولم يترك فيها داراً ولا عقاراً ولا ادخاراً؛ ولذلك ظلّ رمزاً للثورة وبقي سلوكه معياراً للثوار.

المصطلح السياسى عند الامام الخمينى

تفرد الإمام الخمينى فى الكثير من آرائه السياسيّة؛ ولذلك لا يمكن لأى من

ص: ٧٥

المحللين السياسيين أن يعتبره منتماً لمدرسة سياسية معينة، وإنما أرسى بنفسه قواعد مدرسة سياسية جديدة يمكن أن نطلق عليها اسم (المدرسة الخمينية) التي اعتمدت الاسلام فكراً والقرآن دليلاً في التنظير السياسي، ولذلك حينما تلقى حزمة ضوء على المصطلح السياسي عند الإمام الخميني فإنما نحاول من خلال ذلك أن نستكمل صور الإبداع السياسي لديه (رضوان الله عليه) إذ يشكل المصطلح السياسي عنده بعض مفردات تفردته السياسي الذي تميز به عن غيره من قادة الدنيا وساستها.

فهو يتبنى فكرة (اللاشرقية واللاغربية) التي تعني فيما تعني فك الارتباط التبعية بالشرق والغرب والوقوف على أرضية الثقة بالنفس والمبادئ والامكانات دون أن يعني ذلك بالضرورة تقاطعاً مع الغرب والشرق، وإنما يعني الاستقلالية الكاملة، التي لا يجوز فيها الانحياز لهذا المعسكر أو ذاك مع ضرورة الانفتاح على الشرق والغرب وفق صيغ متكافئة من الاحترام المتبادل، التي لا تتعرض فيها مصالح الأمة واستقلالها لابتزاز وتأثيرات هذا الطريق أو ذاك، وبهذا يكون الإمام قد حدد معالم الشخصية المستقلة للأمة، ووضعها على الطريق الصحيح، وقطع كل علاقة مذلة لها بالآخرين.

اما مصطلح الاستكبار والمستكبرين والاستضعاف والمستضعفين ومصطلح الشيطان الأكبر، فهي إن دلت على شيء فإنما تدل على اهتمام الإمام بالرؤية القرآنية، ولفت أنظار المسلمين الى ما لديهم من خزين معرفي وفكر سياسي يؤهلهم للتميز والتفرد ليس فقط في العمل والأداء السياسي، وإنما في إطار التنظير والفكر السياسي القائم على أساس الاسلام والقرآن والسنة المطهرة. وأخيراً وليس آخراً يظل الإمام الخميني وأفكاره السياسية التي بشر بها وجسد مقولاتها شاهداً شاخصاً على عظمة النظرية الاسلامية وقدرتها على التصدي لقيادة الحياة في عصرنا الحاضر وفي المستقبل.

ص: ٧٦

معطيات الحج ومناسكه في رؤية الإمام

معطيات الحج ومناسكه في رؤية الإمام

معطيات الحج ومناسكه في رؤية الإمام

محمد سليمان

عنت لي - وأنا اهبي نفسي لكتابه شيء عن رؤية السيد الإمام إلى فريضة الحج مناسك ومفاهيم.. وهل هي رؤية فريدة من نوعها أم أنها تكرار لغيرها من الرؤى؟ وهل كانت رؤاه تتسم بالجديّة والارتقاء إلى مستوى تطبيقها العملي أم أنها مجرد رؤى لا غير؟ - عنت لي ملاحظات تتعلق بالفريضة نفسها، فهذا المنسك المبارك بكلّ مفاصله أستطيع أن أقول عنه:

إنّه من أعظم العبادات - على عظمتها وقدرها - سعة وشمولاً وثماراً..

ليشهدوا منافع لهم ثمّ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات.. فهو ينطوي - إضافة إلى عبادة الله تعالى في الأيام المقرّرة، وما أعظمه من هدف! - على هدف آخر عظيم وخطير طالما اشرأت إليه الأعناق، وتناولت إليه الرقاب، وعاشتته النفوس أملاً عظيماً، وطموحاً كبيراً، وهدفاً مقدساً، وهو توحيد المسلمين شعوباً وقبائل بغضّ النظر عن مذاهبهم وقومياتهم.. وصهرها في بوتقة التوحيد، هذه العقيدة التي تدل على الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم

ص: ٧٧

يولد* ولم يكن له كفواً أحد، بعيداً عما يفرّق الكلم، ويوغر الصدور، ويضعف الهمم ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وترفعاً عن التكاثر في الأموال والأنفس والأنساب.. ليبقى ميزان التفاضل بينهم هو التقوى لا غير «لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى»، هذا النص النبوي الذي لا يقبل الجدل والتأويل قبس من نور كتاب الله تعالى إذ صرح بكلّ قوة: إن أكرمكم عند الله أتقاكم وقد جسد هذا الهدف مظاهر متعدّدة في هذه الفريضة يلمسها كلّ واحد منّا، كما تكشف هذه المظاهر هي الأخرى عما تنطوي عليه فريضة الحج، هذه المناسبة المباركة، من قيم عليا ومبادئ كبرى وأهداف سامية قلّ نظيرها في أي عبادة وفي أي شعيرة من الشعائر السماوية الأخرى على قدرها وعظمتها وسموها، فضلاً عما يشرّعه الآخرون ويسنّونه ويهيئونه من مناسبات..

ومن تلك المظاهر التي صهرت في وهج بوتقة عقيدة الواحد الأحد: وقوف الحجاج في جمعهم العظيم وحشدهم الهائل وفي كتلهم البشرية المتراسة يجمعها هدف واحد وزى واحد خالٍ من التفاخر والتعظيم والاستعلاء، ومكان واحد في عرفات وفي المزدلفة ومنى، ثم البيت المبارك والصفاء والمروة، وفي مناسك واحدة في إحرامهم وطوافهم وفي سعيهم.. إضافة إلى تواجدهم في أماكن أخرى من أضرحة الأولياء ومراقد الصالحين، ومعالم الرسالة وآثار النبوة..

حقاً إنّها صورة رائعة مهيبّة تحكي لنا قيام مجتمع مسلم على ثوابت وأسس متينة من الحب والتعاطف والتسامح والتعاون والتآزر.. بعيداً عما يلوّث النفوس من رفث وفسوق وجدال فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، حتى تطهر النفوس والأرواح، وحتى تصان أجسادنا وأرواحنا وعقولنا من العبث والدنس، فتصل مناسكنا مع طهارة نفوسنا إلى ذروة كمالها الروحي والعبادي.. «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمّه» فكلّ شيء في هذا الحرم المبارك ينبغي أن يكون في طهر وأمن وسلام.. نموذجاً رائعاً تتجلّى فيه المحبّة والرحمة..

ص: ٧٨

أساس المفاهيم الإسلامية..

فإذا نظرنا إلى هكذا تجمع عظيم فإننا نجد فيه ما يشد من عزائنا، ويقوى، إيماننا ويحقق آمالنا بإمكان قيام مجتمع مسلم كبير تذب فيه الفوارق والطبقات، وتسود فيه بدل ذلك كله المحبة والوآم والاخوة والإلفة والعزة والكرامة في ظل إله عادل كريم رحيم، وتعاليم رسول صادق أمين وعلى خلق عظيم.

إنها حقاً تجربة مصغرة رائعة لدولة كريمة يعز بها الإسلام وأهله ويدل بها النفاق وأهله، ومجتمع نبيل موحد طالما كان هدفاً للإسلام، وأنشودة يرددها المسلمون الثوار الواعون عبر كفاحهم المرير، وجهادهم الدؤوب، وتضحياتهم الجسيمة.

إن الحج لا يمكن أن يحقق ذلك الهدف التوحيدي ولا أظنه ينهض بذلك إذا لم يؤد إلأبصورتها الإبراهيمية وهو ما سعى إليه الإمام. ولا يمكن فهم هذه الفريضة خارج تأريخها وبعيداً عن تشريعها وأهدافها.. ويجب أن تكون مواكبة لحركة الأنبياء والصالحين، وحرّة أى خالية من أى قيد فيما عدا قيود الشريعة وضوابطها.

فهى فريضة تتجه نحو تحقيق هدف إلهى، وهذا لا يتم إلأعبر ما تريده السماء لا ما نريده نحن.

هذا مضافاً إلى أنها شعيرة يلتقى فيها- إضافة إلى أمور أخرى- جانبان رئيسيان: الجانب الروحى والجانب السياسى، فخلوها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعنى غياب الريادة للإسلام وتغييباً للجوانب الرسالية وللنموذج الإبراهيمى المحمّدى الأصيل، وعندها يكون الحج ليس مخالفاً للشرع فحسب، بل يكون معاكساً لحركة الحج التاريخية.

فيجب أن نعرف أن فريضة الحج كالإسلام نفسه يتقاذفها عاملان أو خطآن مهمّان:

خط الرسالة الأصيل.

ص: ٧٩

والخط المنحرف.

فإذا ما ابتعدنا عن الخط الأول خطوة فإننا نقرب من الخط الثاني بقدرها وهكذا، فأى تنازل عن قيم الخط الأول معناه الانضمام إلى مبنى ما يريده الخط الثاني، وتدرجاً نصل إلى نتيجة لا تخفى على ذى عينين، أننا نؤدى الفريضة لا بخطها المرسوم لها من قبل السماء الذى يمثل الخط الأول، وإنما بشكل آخر يتعد كثيراً عن روح الشريعة ومقاصدها وأهدافها، إنه شكل مفرغ من كل شىء ويبقى مجرد إطار عام لا غير.

وبدلاً من أن يقود الحج الإنسان إلى ما فيه خيره، ويقتطف ثماره ويستحصل منافعه كما أرادته السماء، راح الإنسان يرسم للحج منهجه، وبالتالي يجعله وسيلة لتحقيق ما يبتغيه من طموحات دنيوية ومصالح نفعية قد يصبّ أغلبها لصالح المستكبرين والطمع، ولم يكن للمستضعفين فيه نصيب يذكر.. إنما هو بخدمة الحكام وأتباعهم وأنظمتهم. وبدلاً من أن تكون علاقة تعبدية واعية أى علاقة مبنية على تحرك واضح مسؤول نحو الله تعالى ومنهجه، تكون علاقة غير واعية تنتج بالتالى تحركاً غير مسؤول، بل هو تحرك ميت لا غير.

ما أراده السيد الإمام:

لأجل ذلك كله ولغيره كان عنصر البراءة الذى نادى بها السيد الإمام إلزاماً بما تريده الشريعة الأصلية، أساساً متيناً لهذه الفريضة، وروحاً وثابة لها ولديمومتها وبقائها عبادة حية تؤتى أكلها فى حياة الأمة، وتنمى مسارها، وتقوى عزيمتها، وبالتالي تحول دون سقوطها بشباك الظلمة. إضافة إلى هذا كله فإن البراءة تذكير للأمة بالحج الإبراهيمي المحمدي الأصيل، وهذا عامل مهم بل رئيسى فى شدّة الأمة بتاريخها وأمجادها وفكرها الأصيل، والوقوف عنده وعدم تجاوزه أو التخلف عنه. فعنصر البراءة - حقاً - لم يعد بعداً أجنبياً عن الفريضة أو شيئاً دخيلاً عليها

ص: ٨٠

وإنما هو عنصر الوقاية وصمّام الأمان، وعنصر الثبات والاستقامة فيها.

من هنا نهض السيد الإمام الخميني ليعيد لهذه الفريضة صفاءها وجوهرها وتأريخها المشرق، وأن يبعدها عن كونها ألفاظاً جوفاء، وحركات تؤدى لا علاقة لها بروح الدين وروح الفريضة، وبما يعانيه المسلمون من مشاكل وأزمات وصعاب كان سبب أكثرها بُعد الآمية عن إسلامها، وحيلولة الحكّام عن انبثاق وعى الآمية وتطلعاتها.. لهذا راح رضوان الله عليه يصوغ نظراته وفق ما يريده الشرع المقدّس ووفق مثل عليا آخذاً بنظر الاعتبار واقعاً إسلامياً متدهوراً يريد إنقاذه.

لقد قاد حركة تاريخية كبيرة وخطيرة هدفها التغيير الشامل لكل محاور ومفاصل حياتنا العبادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية... وإعادة صياغتها وفق ما تريده السماء بعد تغييب متعمّد للشرعية، وبعد إلغاء لدورها أو تحريف لها، وبعد غياب الحكم الإسلامى الفاعل لأكثر من ١٤٠٠ سنة، ومن ضمن تلك المحاور فريضة الحجّ التي رأى فيها مجالاً واسعاً وساحة عظيمة لبث روح الإسلام من جديد، وإيقاظ المسلمين على واقع فاسد مريض آخذ في التدهور، وتنبيههم إلى مخاطر ذلك على دينهم وعلى دنياهم. لقد أراد الإمام الخميني أن لا تكون هذه الفريضة تبريراً للواقع، وإنما أرادها ثورة تطيح بكل ما فى الواقع من مفسد، وأيضاً أرادها أن تفجر طاقات الآمية نحو البناء والجهاد، كما أرادها وسيلة للإطاحة بغطرسة وانحراف الحكّام، ومنقذة من هيمنتهم، لا أن تكون وسيلة مهادنة لهم وللوضع القائم وتبريراً للأمر الواقع.

كان يقول: «حوّلوا وبالتنسيق مع الزوار الذين جاؤوا من أنحاء العالم مركز مكة المكرمة إلى مركز رفض للظلم والظالمين، حيث يعتبر هذا الأمر أحد أسرار الحج، وأن الله غنى عن التلبية وعبادات البشر».

وانظره يقول: من المسلم أن حجاً دون روح ودون حركة ونهوض، وحجاً دون

ص: ٨١

براءة، وحجاً دون وحده، وحجاً لا ينتج هدماً للكفر والشرك، ليس حجاً.

دور القرآن:

وراح أيضاً يبين ما يجب على المسلمين من السعي لأجل تجديد حياة القرآن ودوره العظيم، وإعادته ثانيةً إلى ساحه حياتهم، بكلّ محاورها:

يقول سماحته:

إنّني أذكر الحجاج المحترمين أن لا يغفلوا في جميع المواقف المعظمة وطيلة فترة سفرهم إلى مكّة المكرمة والمدينة المنورة عن الاستئناس بالقرآن الكريم... لأنّ كلّ ما عند المسلمين وما سيكون، على طول امتداد التاريخ الماضي وكذلك في المستقبل، إنّما هو من بركات هذا الكتاب المقدّس. وراح سماحته يوصي العلماء والمفكرين بأن يستفيدوا من هذه الفرصة، ولا يغفلوا عن هذا الكتاب المقدّس وهو تبياناً لكلّ شيء.. هذا الكتاب السماوي الإلهي الذي هو الصورة العينية والكتبية لجميع الأسماء والصفات والآيات البينات..

وفي رفضه لتحريف القرآن وهجرانه يقول سماحته:

.. والآل وهو في صورته المدونة بعد نزوله بلسان الوحي وصلنا دون نقص أو زيادة حرف، معاذ الله أن يصبح مهجوراً.. ثمّ راح يوصي المخلصين من أبناء الإسلام:

بأن ينهضوا ويخلصوا القرآن الكريم من شرّ الجاهلين المتنسكين والعلماء المتهتكين..

و على المحققين المؤمنين بالإسلام أن يبينوا التفاسير الصحيحة للقرآن والواقعية لفلسفه الحج، ويرموا في البحر كلّ نسيج خرافات وادعاءات علماء البلاط.

وغير هذا الكثير وهو ما سنجدّه مفصّلاً في كلماته وأحاديثه عن أبعاد فريضة الحج وعن مفاصلها ومعطياتها المختلفة.

رعايته للوحدة الإسلامية

أكّد الإمام في كلّ كلماته ووصاياه بل وأوامره للحجاج جميعاً أن يطوفوا حول الكعبة المباركة «بالطواف المتعارف على النحو الذي يقوم به جميع الحجاج، وأن

ص: ٨٢

يحترزوا من الأعمال التي يفعلها الأشخاص الجاهلون..

كما أنه أكد على الحجاج الشيعة: أن يقفوا الوقوفين مع إخوانهم المسلمين من المذاهب الأخرى، فإن اتباع قضاء أهل السنة لازم ومبرئ للذمة. حتى وإن قطع بالخلاف.

كما راح يبين لشيعه سائر البلدان ضرورة بل «وجوب الاحتراز من الأعمال الجاهلة التي تؤدي لتفرقة المسلمين».

كما أكد على أنه «ينبغي الحضور بين جماعات أهل السنة» بل «اجتناب الصلاة جماعة في المنازل».

وأما استعمال مكبرات الصوت بشكل يخالف المتعارف فقد أكد سماحته على وجوب اجتناب ذلك.

ولم يكتف بذلك كله بل راح يلاحق في فتاويه بعض الشيعة، في أن «يجتنبوا الارتقاء على القبور المطهرة»، بل واجتناب كل «الأعمال التي تكون أحياناً مخالفة للشرع الحنيف».

ولم يكتف سماحته عند الفتاوى، بل راح يحذر - حرصاً منه على وحدة المسلمين - من التفرقة وأصحابها والمروجين لها، يقول سماحته:

في موسم الحج يمكن أن يقوم بعض الأشخاص حتى من المعممين بزرع بذور الخلافات بين الشيعة والسنة، ويعملوا على اتساع هذه الظاهرة فيصدقهم بعض السذج، ويكونوا سبباً للتفرقة والفساد.

يجب على الاخوة والأخوات من كلتا الفرقتين أن يكونوا حذرين، وليعلموا أن هؤلاء أصحاب القلوب العمياء يريدون باسم الإسلام والقرآن المجيد والسنة النبوية اقتلاع الإسلام والقرآن والسنة من بين المسلمين أو على الأقل يسبغون باتجاه انحرافه...

إن التكليف الإلهي للحجاج في هذا المقطع الزماني هو استنكار أي كلام يشمّون من خلاله رائحة الخلاف بين صفوف المسلمين، وأن يعلموا أن تكليفهم في المواقف

ص: ٨٣

الكريمة هو البراءة من الكفار وأسيادهم حتى يكون حجّهم حجّاً إبراهيمياً وحجّاً محمّدياً، وإلّا كانوا مصداقاً لـ «ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج».

وواصل الإمام حديثه بقوله:

ويجب أن تعلموا أنّ الطريق الأساس في ظل وحدة المسلمين،.. هو في قطع يد القوى العظمى عن الدول الإسلامية، وتطبيق ثمار المواقف الكريمة والمشاهد المشرفة عملياً في بلادهم والاستفادة منها في حياتهم.

تشديده على إعلان البراءة من المشركين

وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنّ الله برىء من المشركين ورسوله...

فبعد أن يصرح السيد الإمام بأن إعلان البراءة من المشركين يعدّ من الأركان التوحيدية والواجبات السياسية للحج؛ وأنّ حقيقة الدين هي أن تحبّ الحق وتبغض الباطل؛ لذا يجب أن تنظّم المسيرات والمظاهرات الكبرى في أيام الحج بكل صلابته وعظمته يقول:

على الحجّاج أن يطلقوا بجوار بيت التوحيد صرخة البراءة من المشركين والملحدين والمستكبرين وعلى رأسهم أمريكا المجرمة، ولا يغفلوا عن إظهار حقدهم وسخطهم على أعداء الله وأعداء خلقه، فهل تحقيق الدين هو غير إعلان المحبة والإخلاص للحق وإعلان

الغضب والبراءة من الباطل؟

فحاشا أن يتحقّق إخلاص الموحّدين في حبّهم بغير إظهار السخط على المشركين والمنافقين، وأى بيت هو أفضل من الكعبة البيت الآمن والطاهر، بيت الناس؛ لنبد كلّ أشكال الظلم والعدوان والاستغلال والرقّ والدناءة والانسانية قولاً وفعلًا، وتحطيم أصنام الآلهة تجديداً لميثاقه: ألسنت برّبكم وذلك إحياء لذكري أهم وأكبر حركة سياسية للرسول التي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله: وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر..

ص: ٨٤

ذلك أن سنّة الرسول وإعلان البراءة لن يلبيا؛ لأنّ إعلان البراءة لا يقتصر فقط على أيام الحج. إذ على المسلمين أن يملأوا أجواء العالم بالمحبّة والعشق للبارئ. وبالبغض والاستياء والرفض لأعداء الله، ويجب ألا يصغوا إلى وسوسة الخناسين وشبهات المشككين والجهّال والمنحرفين، وألا يغفلوا لحظة واحدة عن هذا النشيد التوحيدي المقدّس والشامل. ومن المسلّم به أنّ الطامعين وأعداء الشعوب لن يكون لهم قرار بعد ذلك. وسيتمسكون بمختلف الأحيال والألاعيب والوجوه المختلفة، كأن يتجه أدياء الإسلام ووعاظ السلاطين ومرترقة البلاطات والليبراليون والمنافقون إلى عرض فلسفات وتحاليل واستنباطات خاطئة ومنحرفة ويمارسون كلّ عمل في سبيل نزع سلاح المسلمين، وتوجيه الضربة إلى قدره وعظمه وصلابه أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وقد يقول الجاهلون:

إنه يجب عدم المساس بقداسه بيت الله والكعبة المشرفة بالشعارات والمظاهرات والمسيرات وإعلان البراءة من المشركين. وإنّ الحج هو مكان للعبادة وذكر الله وليس ساحة للتناحر والافتتال. وقد يعمد العلماء المزيّفون المتهتكون إلى طرح هذه الفكرة وهي: أنّ الجهاد والبراءة من أعداء الله والحرب والمواجهة هي من عمل أصحاب الدنيا ومحبيها. وأنّ التدخّل في المسائل السياسيّة خلال أيام الحج ليس من شأن علماء الدين والروحانيين..

وهنا يقف بصلافة ليحيب هؤلاء: إنّ هذا هو أمر يعتبر بحدّ ذاته من السياسات الاستفزازية الخفية التي يخطّط لها أكلة العالم، وعلى المسلمين أن ينهضوا بجميع إمكانياتهم المتوفرة من أجل التصدّي لهذه المؤامرة، والدفاع عن القيم الإلهية ومصالح المسلمين، ويرضوا صفوفهم الجهادية ويمارسوا دفاعهم المقدّس، ولا يسمحوا لهؤلاء الجهلة الميتهّ قلوبهم من أتباع الشياطين بمهاجمة عقائد وعزّة المسلمين أكثر من هذا...

نعيش مع كلماته لنرى أنّه كم كان واثقاً من موقفه وسلامته برغم كلّ ما أثير حوله من إشكالات واتّهامات، وأنّ اصراره على إعلان البراءة وإدامتها لم يكن مخالفاً للشرع بل هو واجب بقوله: إنّنا لا نستطيع أن نعدل عن هذا الواجب الذي حدّده

ص: ٨٥

لنا الإسلام. وإنّ البراءة من المشركين هي من وظائف الحجّ السياسيّة وبدونها لا يعتبر حجّنا حجّاً. إنّ صرخة البراءة من المشركين في مراسم الحجّ وهي صرخة سياسيّة - عباديّة قد أمر بها رسول الله صلى الله عليه وآله، لذا يجب أن نقول لذلك المعّم العميل الذي يرى أن شعار الموت لأمريكا وإسرائيل والاتحاد السوفياتي خلاف الإسلام، هل التأسّي برسول الله، واتّباع أوامر الله تعالى خلاف مراسم الحجّ؟ فهل أنت وأمّالك أيّها المعّم الأمريكي تخطئ فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وتعارض أوامر الله؟ وهل ترى أن التأسّي بذلك الرسول العظيم وطاعة أوامر الحق تعالى مخالفة لذلك؟ وهل تتناسى أوامر الله ورسوله من أجل مصالحك ومنافعك الدنيويّة؟ وهل تعتبر أن البراءة من أعداء الإسلام واللّعنّة عليهم وعلى محاربي وظالمي المسلمين كفرًا؟

إنّ صرخة البراءة من المشركين لم تختص بزمان خاص. هذا دستور خالد، وإن انقضى المشركون من الحجاز «فنهضة الناس» ليست مختصة بزمان بل هي دستور كل زمان ومكان. وفي هذا التجمّع البشري العام تعتبر سنوياً من جملة العبادات المهمّة الخالدة إلى الأبد. وينبغي على حجاج بيت الله الحرام أن يطلقوا بقوة صرخة البراءة من الظالمين في هذا التجمّع العام والسيّل البشري الهادر... حول المسجد الحرام - مركز ثقل الإسلام ومهبط ملائكة الله ومحل نزول الوحي - في سبيل إحياء مراسم الحجّ العباديّة - السياسيّة ليقوموا بتكليفهم الإلهي والقرآني، ويعلنوا ويطلقوا صرخة البراءة من المشركين التي نفّذها خاتم الأنبياء رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام في الحجّ الأكبر.

أهداف البراءة من المشركين:

إنّ للبراءة - وهي صرخة جميع الشعوب - أهدافاً كثيرة ومنافع عظيمة، منها كما يقول السيد الإمام: «وإذا ما أعلن ممثلو المليار مسلم بالشكل والمضمون براءتهم من المعتدين على

ص: ٨٦

حقوق المظلومين والدول الإسلامية وطالبوا بقطع أياديهم سوف لن تتمكّن أى قوة من الوقوف بوجههم ومقاومتهم...
 هي صرخة مظلومي العالم الإسلامي والشعوب التي تزرع تحت سلطة قوى الجناة، وإيقاظ النائمين والساكّنين أمام الجابرة...
 إنّ صرخة براءتنا هي صرخة الشعوب المسلمة في أفريقيا. صرخة إخواننا وأخواتنا في الدين الذين يكتوون بسياط ظلم الظالمين
 العنصريين بسبب لونهم الأسود.

إنّ صرخة براءتنا هي صرخة الشعيين اللبناني والفلسطيني، وجميع الشعوب والبلدان الاخرى التي تنظر إليها القوتان العظميان الشرقية والغربية، خاصة أمريكا وإسرائيل بعين الطمع.. إن صرخة براءتنا هي صرخة جميع الذين لم يقدرُوا على تحمّل تفرعن أمريكا وتواجدها السلطوي.

إن صرخة براءتنا هي صرخة الدفاع عن العقيدة والكرامات والنواميس، صرخة الدفاع عن الثروات. إنها صرخة المتألمين من الشعوب التي مزّقت قلوبها خناجر الكفر والنفاق. صرخة براءتنا هي صرخة الفقراء والجياع والمحرومين والمعدمين والحفّاء الذين نهب الجشعون والقراصنة الدوليون ما حصلوا عليه بعرق جبينهم وتعب ليلهم ونهارهم، أولئك الذين امتصوا دماء قلوب الشعوب الفقيرة والفلاحين والعَمّال والكادحين باسم الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية.

فلسفة الحجّ

وقد بين سبب آلام ومشاكل العالم الإسلامي أنّهم لم يدركوا فلسفة ومعنى هذه العبادات وفلسفتها وأسرارها، وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون، يقول رحمه الله:

إنّ من أكبر مصائب وآلام المجتمعات الإسلامية أنّهم لم يدركوا حتى الآن الفلسفة الواقعية للأحكام الإلهية، والحجّ مع أهميته سرّه وعظمته ما زال عبارة عن عبادة جافّة وحركة لا فائدة منها وغير مثمرة، وإن إحدى الوظائف الكبيرة للمسلمين هي متابعة هذا

ص: ٨٧

الواقع، ما هو الحج؟ ولماذا على الإنسان أن يصرف قسماً من إمكاناته المادية والمعنوية لأجل القيام بهذا التكليف؟ والشئ الوحيد الذي يُقال عن فلسفة الحج من هؤلاء الجاهلين أو المحللين المغرضين النفعيين هو أن الحج عبارة عن عبادة جماعية ورحلة سياحية. وما شأن الحج في كيف يجب أن نعيش وكيف يجب أن نقاوم؟ وعلى أي نحو يجب الوقوف في مواجهة العالم الرأسمالي والشيوعي؟ ما شأن الحج في كيفية استرداد المسلمين والمحرومين لحقوقهم من الظالمين؟ ما شأن الحج فيما ينبغي فعله لنفكر بحل ما بخصوص الضغوطات الروحية والجسدية على المسلمين؟ ما شأن الحج فيما يجب فعله ليظهر المسلمون أنفسهم كقوة كبيرة وقدره في العالم الثالث؟ ما شأن الحج في كيف يثور المسلمون على الحكومات المرتبطة والعميلة؟ فهل الحج هو سفر سياحي لأجل رؤية القبلة والمدينة المنورة فقط؟

وهنا راح سماعته يرسم أهداف وفلسفة الحج ومنافعه فيقول: إن الحج هو للتقرب واتصال الإنسان بصاحب البيت، وأن الحج ليس ألفاظاً وحركات وأعمالاً فلن يصل الإنسان إلى الله بالكلام والألفاظ والحركات الجامدة. الحج هو مركز المعارف الإلهية التي تنبثق منها مضامين السياسة الإسلامية التي يجب البحث والتفتيش عنها في جميع زوايا الحياة.

وهناك إرشادات أخرى ووصايا تفضل بها سماعته للحجاج ليعين فيها فلسفة كل عمل يؤدونه وكل منسك يتواجدون عنده. وكانت وصاياه تنبع من نفس اتصفت بالطهر والنقاء، وبثها لجميع الحجاج بكل صدق وإخلاص، وأكدها في كل كلماته وخطبه فما ترى كلمة له أو خطبة إلا ورأيتها يوصي وينصح الحجاج للاستفادة من هذه الأماكن المقدسة والمواقف الشريفة:

ص: ٨٨

الطواف:

وإنَّ الطواف حول الكعبة المشرفة يعنى أنَّ الإنسان لن يطوف لغير الله.
وأثناء الطواف في حرم الله حيث يتجلى العشق الإلهي، خلّوا قلوبكم من الآخرين، وطهّروا أرواحكم من أى خوف لغير الله.
الحجر الأسود:

وحيث تلمسون الحجر الأسود أعقدوا البيعة مع الله أن تكونوا أعداء لأعداء الله ورسوله والصالحين والأبرار. ومطيعين وعبداً له أينما كنتم وكيفما كنتم. ولا تحنوا رؤوسكم واطردوا الخوف من قلوبكم، واعلموا أنَّ أعداء الله وعلى رأسهم الشيطان الأكبر جبناء، وإن كانوا متفوقين في قتل البشر وفي جرائمهم وجنایاتهم.

الصفاء والمروة:

أثناء سعيكم بين الصفا والمروة اسعوا سعي من يريد الوصول إلى المحبوب حتى إذا ما وجدتموه هانت كلّ الامور الدنيوية، وتنتهى كلّ الشكوك والترددات، وتزول كلّ المخاوف والحبائل الشيطانية، وتزول كلّ الارتباطات القلبية المادية، وتزدهر الحرية وتنكسر القيود الشيطانية والطاغوتية التي أسرت عباد الله.

المشعر وعرفات:

سيروا إلى المشعر الحرام وعرفات وأنتم في حالة إحساس وعرفان، وكونوا في أى موقف مطمئن القلب لوعده الله الحق بإقامته حكم المستضعفين، وبسكون وهدوء فكروا بآيات الله الحق، وفكّروا بتخليص المحرومين والمستضعفين من براثن الاستكبار العالمي، واطلبوا من الحق تعالى في تلك المواقف الكريمة تحقيق سُبُل النجاة.

منى:

عندما تذهبون إلى منى اطلبوا هناك أن تتحقّق الآمال الحقة حيث التضحية هناك بأثمن وأحبّ شيء في طريق المحبوب المطلق. واعلموا أنه ما لم تتجاوزوا هذه الرغبات، التي أعلاها حبّ النفس وحبّ الدنيا التابع لها، فسوف لن تصلوا إلى المحبوب المطلق.

ص: ٨٩

الرجم:

وأنتم عندما ترجمون عاهدوا الله أن تقتلوا شياطين الإنس والقوى العظمى من البلاد الإسلامية.. تبرأوا من الأصنام الكبيرة والصغيرة والطواغيت وعمالئهم وأزلامهم، حيث إن الله ومحبيه تبرأوا منهم، وإن جميع أحرار العالم بريئون منهم. ارجموا الشيطان واطردوا الشيطان من أنفسكم، وكثروا رجم الشيطان فى مواقع مختلفه بناءً على الأوامر الإلهية؛ لدفع شر الشياطين وأبنائهم عنكم.

فى هذا السفر الإلهى الذى تذهبون إليه وترجمون فيه الشيطان، إذا ما كنتم لا سمح الله من جنود الشيطان سترجمون أنفسكم أيضاً، يجب أن تكونوا فيه رحمانين وأن تصبحوا رحمانين، حتى يكون رجمكم رجم أتباع الرحمن ورجم جنود الرحمن الشيطان. ومن وصاياه العامة:

أنتم تقفون فى تلك المواقف والمواضع الكريمة، معاذ الله أن يتلوث وقوفكم بشيء خلاف الشرع، أو يتلوث بالمعصية، ففضلاً عن إراقه ماء الوجه أمام الله تسقط كرامه الإسلام فى الدنيا، اليوم كرامه الإسلام متقومة بوجودكم، أنتم الذين تذهبون جماعات جماعات إلى تلك المواقف الكريمة ويشاهدكم سائر المسلمين.

ظهر لنا إذن أن الحج الذى سعى له سيدنا طيلة حياته قبل انتصار الثورة الإسلامية وبعدها هو الحج التوحيدى الخالص، البعيد عن الشوائب والتلوث ومناهج الظالمين والمنحرفين الذين سعوا لأن تكون هذه الفريضة كما أرادوه لها، وأن يكون أداؤها بشكل يدرّ عليهم بالنفع، وتكريسها بما يثبت أنظمتهم ومصالحهم..

إن السيد الإمام كان صادقاً مع آرائه ونظراته لهذه الفريضة وهى تنسجم بل هى التطبيق الفعلى لأحكام الحج ومفاهيمه حتى يؤتى ثماره ومنافعه.

حقاً إنها رؤية تتسم بالفراة من حيث إعلانها بعد سنين عجاف طويلة مرت

ص: ٩٠

على المنهج المتبع في أداء هذه الفريضة، ومن حيث إنّ الحجاج والمسلمين عامّة قد تعودوا على نمط معيّن موروث لأدائها، ومن حيث سعى الإمام الجادّ لتطبيق رؤاه وتفانيه في الدفاع عنها والوقوف بقوة ضدّ كلّ من يريد العبث بمناسك هذه الفريضة وأهدافها أو تسخيرها لمنافعه.

الهوامش:

ص: ٩١

دور الحج في تحقيق القيادة الموحدة

دور الحج في تحقيق القيادة الموحدة

دور الحج في تحقيق القيادة الموحدة

عباس على عميد الزنجاني

قال الله الحكيم: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس.

إنَّ عبادة الحجَّ قادرةٌ على أن تؤدَّى الدور الكبير على صعيد التوعية والتوجيه الديني، وتوطيد عرى التلاحم بين أبناء امتنا الإسلامية؛ ولأجل ذلك لقد أُعطى للحج مكانةً خاصيةً في الشريعة الإسلامية بين سائر الأحكام والفرائض، ولو ألقينا نظرةً واسعةً على موقفه ومدى اهتمام القرآن والسنة بهذه الفريضة الكبرى وجذوره التاريخية، والعلاقة الوطيدة المتشابكة بينه وبين أصل التوحيد؛ لأمكننا أن نفهم الأبعاد الواسعة لفلسفة الحج والأسرار العميقة، التي تنطوي عليها هذه العبادة الجماعية، وبالتالي أن نتعرّف على مكانة الحج ودوره الكبير في تمهيد القدرات على صعيد تجسيد الإسلام وتحقيق أهدافه السامية، وأن تثير الوعي الجديد الإسلامي في الجيل المسلم الذي تحول إلى حركةٍ ثوريةٍ إسلاميةٍ، جعلت العالم يتطّلع إلى الإسلام كموقع جديد من مواقع الثورة وكحركة رائدة من أجل تفسير المبادلات

ص: ٩٢

السياسية المعاصرة كقوة جديدة تستطيع أن تقضى على جميع القوى الشريرة شرقيها وغربيها في العالم. حين نتعرّف على هذه المكانة للحج والفلسفة الكامنة فيه وسائر أهداف الشريعة الإسلامية من هذه الفريضة الكبيرة، فسوف لا نسمح لأنفسنا أن نكتفى بأداء مراسيم شكلية وأعمال خاوية غير ذات محتوى، وأن نشهد كلّ عام إهدار كلّ هذه القوى والإمكانات ونمكث جالسين دون أن نستثمر المعطيات الحياتية العظيمة للحجّ.

نحن نتابع التحقيق في هذه المعطيات وفي الوقت نفسه نؤمن أن الحج وسائر الفرائض الإلهية أمر تعبدي ونلزم أنفسنا بالامتثال المطلق لها، وهذه الدراسة لا تضعف روح التعبد بل تتجه إلى تقويتها.

لا شك أن مناسك الحج وأحكامه لها أشكال تعبدية ثابتة لا تقبل التغيير، فكل تغيير وتصرف في الشكل الظاهري لمناسك الحج وأعماله بحجّة التفلسف وتحقيق الأهداف والأسرار مرفوض.

لكن مع ذلك هلّا يلزمنا التعريف بما يحتويه قوله صلى الله عليه وآله: لو أنفقت جبل قبيس ذهباً في سبيل الله ما أدركت فضيلة الحج.

وما يعنيه قول الإمام الصادق عليه السلام: لا تماثل الحج عبادة. وحديث عليّ عليه السلام يؤكّد عن عاقبة ترك الامة للحجّ، قال عليه السلام: لا تتركوا حجّ بيت ربكم فتهلكوا.

وفي حديث آخر يحذّر المسلمين وقادتهم من ترك الحجّ، ويرى أن ذلك يؤدي إلى سقوط شخصية الامة وزوال عزّها وشرفها وسيادتها أمام الأجانب، قال عليه السلام:

الله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا.

والإمام الصادق عليه السلام يبيّن هذه الحقيقة بتعبير آخر ويقول:

أما أن الناس لو تركوا حج هذا البيت لنزل بهم العذاب وما نوظروا؟!.

ولاشك أن ترك الحج على قسمين:

إمّا أن يترك العمل فلا يحجّ أحد، أو يحجّ بصورة شكلية غير ذات محتوى.

هذه الأخيرة هي التي ابتلى بها العالم الإسلامي اليوم، فبالتالي نزل بهم

ص: ٩٣

العذاب ألا وهو الأسر السياسي والاقتصادي وسقوط شخصية الأمة وزوال سيادتها. هذه الأحاديث - وما أكثر عددها - تدعو إلى التأمل وتشير إلى أن الحج مدرسة لتخريج رجال أكفاء مع الغزاة في سبيل الله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الغازي في سبيل الله والحاج وفود الله دعاهم.

الحج عامل قيام الأمة

انطلاقاً من قوله سبحانه وتعالى:

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس نستطيع أن نستدل على أن الحج له دور عظيم في تمهيد الطريق إلى قيام الأمة وإعطائها القدرة كي تحصل على استقلالها وسيادتها وتحقق أهداف الإسلام.

لأن كلمة القيام تنطوي على الوجود والاستقلال والحركة والسيادة والشخصية والاتجاه والتنظيم ووحدة المسير والمساهمة الجادة والاعتماد على الذات وعدم التبعية، وكل المفاهيم السياسية المعاصرة للأمة لإيجاد الكيان الإسلامي الموحد في العالم.

كما أن كلمة المثابة والأمن في قوله سبحانه وتعالى: وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً.

تتضمن عدّة مفاهيم سياسية بارزة يلزمنا التعرف عليها في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية والحكم الإسلامي الموحد في العالم الإسلامي.

لاشك أن مثل هذا الشعور له القدرة على توحيد صفوف المسلمين وعلى تنظيم شؤونهم الحياتية وإعدادهم لتحطيم كل الأغلال السياسية والعسكرية والاقتصادية التي تكبلهم.

عنصر الأمل في التحرك السياسي

التحريك السياسي مهما كان لونه وطبيعته واتجاهه يحتاج إلى عنصر الأمل كي يدفعه نحو غاياته المرجوة، والحجاج الذين يقضون خلال موسم الحج دورة إعداد لتأهيلهم على الحركة السياسية في مجتمعاتهم يبيتون ليال في أرض الآمال (منى) حيث قيل لإبراهيم عليه السلام هناك: يا إبراهيم تمنّ على ربّك ما شئت؛ ولذلك سمّيت هذه الأرض (منى). إن عنصر الأمل من خصائص الأمة الإسلامية يقول سبحانه وتعالى: ولا تهنوا في ابتغاء

ص: ٩٤

القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون.

لأبد من إحياء عصر الأمل في النفوس إلى جانب التضحية ورجم الشيطان وتنقية النفس والروح، وإذا ماتت الآمال تنتهي حياة الإنسان كما قال الرسول صلى الله عليه وآله:

لا تقوم الساعة حتى لا تحج في البيت.

إحياء الأمل في نفوس المستمعين يعطى لهم التأهيل للتغلب على مشاكلهم السياسية وعلى رأسها السيطرة الأجنبية الشيطانية على مقدّرات المسلمين، وأن يتخذوا الخطوات اللازمة لإحباط مؤامرات الاستكبار العالمي عدو الإسلام والشعوب الإسلامية وينسّقون مساعيهم على هذا الطريق طريق النضال ضد عوامل السيطرة والنهب والدمار.

نظام الأمة والإمامة يتجلّى في الحج

القرآن الكريم يُطلق اسم الأمة الواحدة على كلّ المسلمين بمختلف ألوانهم وقومياتهم وثقافتهم وأصقاعهم، يقول سبحانه وتعالى:

إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون.

عناصر هذه الأمة الواحدة تتجلّى في العقيدة المشتركة والنظام المشترك والأهداف الموحّدة. مثل هذه الوحدة بحاجة طبعاً إلى تفسير ومركزية وقيادة، وهذه القيادة ينبغي أن تكون بالقوّة وبالفعل على مستوى دفع عجلة هذه الأمّة نحو تحقيق أهدافها المنشودة على أساس من العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامي.

هذه الحركة المنسجمة السائرة على خط واحد وفي إطار واسع من حياة الأمّة تحتاج إلى مرانٍ وتعوّد.

ويعتبر الحج أروع صعيد لهذا المران على الحركة الجماعية المنسجمة، درجة تجلّي روح الأمّة في الحج تستطيع أن نفهمها من حديث الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: من عرف إمامه عرف الله ودينه ومن أنكره أنكر الله ودينه... فلذلك إن معرفّة الرجال دين الله كما إن الأحكام

ص: ٩٥

كلمة أنما تعرف بالنبى صلى الله عليه وآله.. وإنما هذه الرجل.

فالإمام ضالّه المؤمن فى الحج فيستمد القوة من مناسك الحج ليضع كلّ إمكاناته تحت تصرّف القائد الذى سوف يجده حينما يسلك فى الحج سلوكك امّة تحت قيادة إمامها.

كما كان المسلمون يلتقون حول الرسول صلوات الله عليه فى حجة الوداع كالتفاف السوار بالمعصم ويسرون خلفه مقتدين آثاره. وهذا اللون من الحركة فى موسم الحج يؤكّد دور القيادة فى هذا الموسم، وبغير وجود القيادة فإنّ الحجّ افراد مبعثون لا يجمعهم محور ولا يشدّهم رباط، وهم غناء كغناء السيل لا يتجه اتجاهاً واعياً مدروساً كما أراده الله سبحانه وتعالى.

حجة الإسلام وحجنا

لقد كانت صيحة الله أكبر وحدها فى صدر الإسلام تبعث الرعب والفرع فى قلوب أعداء الله، فما بالك بصلاة الجماعة والجمعة بل ما بالك بالحجّ؟

لقد كان حجّ رسول الله صلوات الله عليه بدايةً لزوال الشرك فى الجزيرة العربية، وإيداناً بتزلزل عروش الكفر والشرك فى كل العالم. فإذن ماذا يفعل حجنا اليوم؟

هل يحرك ساكناً؟

هل ينقذ مظلوماً؟

هل يجيب دعوة المستضعفين فى لبنان وفلسطين وأفغانستان والفلبين وفى معارك التضحية والإيثار فى إيران الإسلام؟ هل يؤدّى الحجّ اليوم دوره فى التوعية، وفى تركيز التفاف الامّة الإسلامية حول قيادتها الموحّدة؟ وهل نستطيع مع كلّ هذا أن ندعى بأنّ حجنا اليوم يقوم على أساس القرآن والسنة؟

ما هو معنى الجدال المحظور فى الحجّ؟

لاشكّ فى أن أعداء الإسلام ما كان بمقدورهم أن يقضوا على ظاهرة الحج نهائياً بين المسلمين، فعمدوا إلى إفراغها من محتواها ومن مبدأ البراءة، لتفقد عطاءها التغيرى الفاعل، بل ولتكون أكثر من ذلك وسيلة بيد الطغاة؛ لتعميق غفلة المسلمين ولتعميق انفصال الدين

ص: ٩٦

عن ساحة الحياة الاجتماعية.

والمرحلة الحساسة من مؤامرة الاستكبار والطواغيت تتمثل في البحث عن الصيغة الفقهية، التي تحوّل مراكز اليقظة إلى مراكز غفلة. وما هذا بعسير فقد كان دوماً في خدمة الظالمين فئة تشتري بآيات الله ثمناً قليلاً فتحرف الكلم عن مواضعه لتضلّ الناس: ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ألا- ساء ما يزرون آخر ما أفرزته عقول المحاربين للصحوّة الإسلامية المباركة المتجلية في موسم الحج يتمثل في طرح خطر الجدل في الحجّ مستندين إلى قوله سبحانه وتعالى: ولا جدال في الحجّ متخذين قول الله وسيلة لإخماد الأصوات الإلهية المطالبة بالعودة إلى حج رسول الله صلوات الله عليه في الشكل والمحتوى. وهكذا تتكرّر تجربة ضربة الدين بالدين لإفراغ الدين من محتواه وللقضاء على كل صحوّة وتحرك إسلامي أصيل. ولاشك في أن الجدل المحظور في الحج هو الجدل الخاص أو المنازعة، أو ما يوجب الخصومة والبغضاء بين المؤمنين. كيف، والجدال في الدين يعتبر طاعة وسبيلاً إلى معرفة الله؟ فالجدال في الحجّ ضمّ طاعة إلى طاعة فكان أولى بالترغيب فيه. فإذن الجدل المحظور في الحج هو الجدل الذي يثير العداء بين المسلمين، وكلّنا نعلم أن هذه الحركة المقدّسة العبادية السياسية التي تحدث في أيام الحج بركة صحوّة الشعوب المسلمة وبفضل انتشار الوعي الإسلامي لا تشير أي عداء بين المسلمين. نعم قد تجرّ إلى العداء، ولكن ينبغي أن نعرف الجانب الآخر من هذه المعاداة، هل هي معاداة بين المسلمين أم معاداة بين أبناء الأمة من جهة وبين السلطويين المستعمرين الغزاة وكلّ أعداء الإسلام من جهة أخرى؟ كيف، وهذه المعاداة من أهداف الإسلام وغاياته وليست حراماً، بل

ص: ٩٧

من واجبات الإسلام، قال سبحانه وتعالى: وقد امروا أن يكفروا به فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت؟

نحن أيضاً نؤمن بضرورة السيطرة على جوانب الحج، ولا نريد إيجاد جوّ مفتوح مضطرب ملئ بالارتباك والفوضى، ونلتزم بضرورة الوقوف بوجه العناصر الفاسدة المرتبطة بالسياسات الشرقية والغربية، التي تريد أن تستغل اجتماع الحج العظيم لإثارة الحزازات وإلقاء الشبهات وخلق الفوضى والمشاكل.

لكن نحن وإخواننا من شتى الشعوب الإسلامية خلال تجربتنا قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران وخلالها وبعد انتصارها اكتسبنا اسلوباً ناجحاً ضمن إطار متعقل ملتزم بتعاليم الشريعة وآدابها، وبهذا الاسلوب نستطيع أن نواجه الانحراف في كلّ شؤون حياتنا وعباداتنا بما في ذلك أداؤنا لمناسك الحج.

الحرم يتعلّق بجميع المسلمين

ان الله سبحانه وتعالى جعل الحرم وبيته للناس ليعبدوا الله فيه، وقد قال سبحانه: إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يُرد فيه بإلحاد نذقه من عذاب أليم.

إنّ الكثير من المفسّرين يعتبرون أنّ حكم العموم الوارد في هذه الآية بخصوص المسجد الحرام يشمل أيضاً جميع منطقة الحرم، وذلك لأنّ المشركين كانوا قد منعوا الرسول صلوات الله عليه والمسلمين من الدخول إلى الحرم فضلاً عن منعهم من المسجد الحرام. فقدسية الحرم وتعظيمه واحترامه وخدمته لا ينحصر بشخص أو جماعة خاصة، بل إنّ هذا الحق يعبر عن حقيقة عبادة الحج والعمرة ويتعلّق بالعالم الإسلامي، وجميع المسلمين متساوون في تمتّعهم بهذا الحق.

لاشك أن مفهوم هذه الآية هو إخراج الحرم من احتكار مجموعة أو مذهب معيّن، كما أن مفهوم سواء

ص: ٩٨

العاكف فيه والباد هو تساوى الناس الموحّدين والذين يعبدون الله في هذه الأرض من حيث أداء المناسك العبادية، وإنّ هذا النوع من الحرية يشمل بالتأكيد جميع العقائد ووجهات النظر الموجودة بين المسلمين في إطار المبادئ الإسلامية والقرآنية. استناداً إلى هذا المبدأ فإنّه عندما تحبس عبادات المسلمين في الحرم والمسجد الحرام داخل إطار مبادئ مذهب معيّن ووجهة نظر خاصّة، وعندما يفرض الطوق على عقائد وآراء باقى المسلمين، وتسلب حرية العمل في العبادة لأتباع المذاهب الإسلامية لصالح أتباع مذهب المجموعة الحاكمة، فإنّ ذلك يصبح مصداقاً آخر للآية المباركة:

ومن يُرد بالحاد بظلم ندقه من عذابٍ أليم.

الحرم أرض إسلامية حرّة

يعتقد أكثر علماء المسلمين أنّ منطقة الحرم تعدّ أرضاً حرّة، ويجوز لأى وافد لها أن يتخذ منزلاً من أية زاوية منها، ولقد كانت بيوت مدينة مكّة المكرّمة مفتوحة على مصراعيها بوجه الزائرين في صدر الإسلام. بل كانت تلك البيوت بلا أبواب، وكان الصحابة يبدون انزعاجهم من بعض سكّان مكّة؛ لأنهم وضعوا أبواباً لبيوتهم خشية أن تُسرق، وكانوا يقولون لهم بالحرف الواحد: هل تقفلون بيوتكم بوجه حجّاج بيت الله الحرام؟!

وكان الخلفاء يصدرّون أوامرهم في موسم الحج بإزالة أبواب بيوت مكّة، لكن تفتح البيوت بوجه الحجّاج. وجاء في حديث عبد الله بن عمر، قال رسول الله صلوات الله عليه: «إنّ الله حرم مكّة، فحرام بيع رباها وأكل ثمنها، ومن أكل من أجر بيوت مكّة شيئاً فإنّما يأكل ناراً».

في عهد خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان قثم بن عباس والى الإمام على مكّة، وكان يضطلع بمسؤولية إدارة هذا المركز بالنيابة عن الإمام.

وفى واحد من الأوامر التي أصدرها الإمام إلى حاكم مكّة؛ طلب منه أن يدعو أهل مكّة إلى عدم أخذ الاجور

ص: ٩٩

من الساكنين فيها، وقد استند الإمام في هذا الأمر إلى ما جاء في الآية المباركة:

سواء العاكف فيه والباد فقد أوضح الإمام ذلك قائلاً: «العاكف هو المقيم في مكة، والباد هو الوافد إلى مكة لأجل الحج، ولا يحسب من أهلها».

إنّ مسألة جعل مكة والحرم حرّاً وعالمياً للمسلمين لا تكتسب أهميّة من الناحية الاقتصادية فحسب، بل إنّ جوهر هذا الأمر وهدفه الرئيس هو حفظ هذه المنطقة المقدّسة التي وضعت للعبادة من أيّ نوع من الضغوط أو فرض الآراء، وخلق المضايقات المختلفة الهادفة إلى تجريدها من العبودية الصحيحة.

إنّ الصحوّة المباركة التي نشاهدها اليوم في أنحاء العالم الإسلامي ولا تزال تتزايد يوماً بعد يوم هي التي يعتبرها الاستكبار الأمريكي وأذناؤه خطراً إرهابياً في العالم.

وقد مارس المؤامرات المتنوّعة الشيطانية للقضاء عليها، وقد كان الهدف الأساسي لهذه المؤامرات القضاء على قيادة علماء الإسلام وإخماد الثورة الإسلامية وضربها في مركز انتصارها؛ كي لا تحصل تلك اليقظة لدى بقيّة الشعوب والدول الإسلامية كما حصلت لإيران بقيادة سماحة الإمام الخميني، والتي أدّت إلى طرد القوى العظمى والتخلّص من هيمنتها في هذا القطر الإسلامي.

لقد أعلن الإمام الخميني قدس سره زعيم الثورة الإسلامية ومؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران في لقاء مع ممثلي الدول الإسلامية بمناسبة عيد الأضحى بهذا الصدد وقال:

إنّنا عندما نقول: إنّ الثورة يجب أن تصدر إلى كلّ مكان، لا ينبغي لكم تأويل ذلك على أننا نريد فتح الدول.

إنّ المقصود من تصدير الثورة هو أن يحصل نفس الشيء الذي حصل في إيران من طرد القوى الاستكبارية والتخلّص من هيمنتها في بقيّة الأقطار الإسلامية.

ص: ١٠٠

الهوامش:

ص: ١٠١

الامام الخميني والمشروع الحضاري للحج في الحرم الآمن

ص: ١٠٢

الإمام الخميني والمشروع الحضاري للحج في الحرم الآمن

مائدة آل مرتضى

الثورات والحركات الأصيلة... تغير الواقع، وتبنى أمة... وتترك بصماتها على الأجيال.. وتصنع العمالق والأفذاذ، بعد أن صنعها وفجرها عملاق واحد، وهكذا رأينا ثورة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لتغير الواقع الانساني آنذاك بكل أبعاده، وكذا تبعه الأئمة الأطهار عليهم السلام.

وقد لمسنا في الثورة الاسلامية الايرانية هذا الأمر، على يد قائدها الفذ الامام الخميني الكبير قدس سره، رائد الصحوه الاسلاميه المعاصره، الذي سعى جاهداً باعلانه للعالم، أن لا منهج لسعادته الحقيقيه إلا بالرجوع الى منهج الاسلام المحمدي الأصيل. فأحيا رضوان الله عليه إيران الاسلام من وهدة الضياع والانحراف بمواصلته المسير، كما أحياها الاسلام أول مره في النصف الأول من القرن الأول لهجرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. أحياها بفكره ومعاناته ونضاله المرير، ودماء الأحرار، بتغير الواقع المر الذي كانت تعيشه في زمن الطاغوت الشاهنشاهي العميل، انطلاقاً من

ص: ١٠٣

قاعدة علمية رصينة، ونظرة واقعية تكوينية، بدءاً بإيران الاسلام والى العالم الاسلامى ومن ثم الى العالم أجمع. فشن حملة واسعة النطاق لتغيير بعض المناهج والأفكار المترسبة في الذهنية الاسلامية، والتي باتت النزعة الاستصحابية، والتحجر والجمود والانغلاق لدى البعض تخامر أذهانهم وعقولهم نحو فكرة البقاء على ما عليه واقعهم المعاصر أو الرجوع الى الوراء بدون وعي متطلبات الواقع المعاش.

فاستطاع الإمام الراحل أن يحقق بعمله الجبار حلم الأنبياء، وحلم الرواد الأوائل - قادة الإصلاح والتغيير - الذين ناضلوا من أجل تشكيل حكومة إسلامية إلهية، بدءاً بالسيد جمال الدين الأفغاني (ت ١٨٩٧)، ومروراً بالكواكبي عبدالرحمن (ت ١٩٠٢) المعاصر للشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥)، ومحمد اقبال (ت ١٩٣٨) في الباكستان، ثم بديع الزمان النورسي (ت ١٩٦٠ م) في تركيا، والشيخ مرتضى المطهرى (ت ١٩٧٩) في إيران، والسيد الشهيد الصدر (ت ١٩٨٠) في العراق الذي تشاطر النهضة المباركة مع الإمام الخميني، وأذاب وجوده فيها.

وسواهم ممن سبقهم من المخلصين الأحرار.

ولما أخذ الإمام الخميني رضى الله عنه على عاتقه مسؤولية التغيير والإصلاح ارتسمت في ذهنه مجموعة من القواعد الاساسية كان لها دور مهم وفعال في عملية البناء الثوري، وإعطاء زخم للحياة الروحية والاجتماعية، من هذه القواعد: (القضية الحسينية)، والأهم منها جميعاً: (الحج الابراهيمى)، لما له من الدور الخطير في حياة المسلمين. فأولاه عناية ورعاية استثنائيتين وخصص له خطاباً يتلى على ضيوف الرحمن كل عام؛ لاستكشاف أسرار هذه الفريضة (الاجتماعية - السياسية - الاقتصادية)، التي فرضها المولى سبحانه على عباده، لما فيها من الفوائد والمنافع، والعزة والمنعة، والأساس المتين الذي به تظل أمه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، تحمل لواء التوحيد، وتجسد وحدة الانسانية، وتحقق أسمى ما تصبو إليه البشرية من التكامل

ص: ١٠٤

الفردى والاجتماعى، والذى يؤدى بدوره الى تحقيق المشروع الحضارى الشامل لتحقيق إرادة السماء فى قضية الاستخلاف. ومن هذا المنطلق يؤكد الإمام القائد رضى الله عنه على الحضور الواعى والفعال فى الساحة الاسلامية، فى الجمعة والجماعة... فى التظاهرات والمسيرات... فى الحج (المؤتمر العالمى الكبير)، وذلك لتعظيم حرمت الله سبحانه وشعائره كما أرادها: ذلك ومن يعظم حرمت الله فهو خير له عند ربه.

ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب. وباستشفاف حقيقة هذا الاستدعاء الإلهى ورد فى قوله تعالى: وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، يتبين لنا أنه أداة لتحقيق الارتقاء العمودى نحو التكامل الاجتماعى والسياسى، فيما لو أدى المسلمون مناسكه بالصورة التى رسمها المولى سبحانه لنبه الكريم (صلوات الله عليه وآله)، فكثير من الأحكام العبادية تصدر عنها خدمات اجتماعية وسياسية، وعبادات الاسلام عادة «توأم سياساته وتدابيراته الاجتماعية، فصلاة الجماعة مثلاً واجتماع الحج والجمعه يؤديان -بالإضافة الى ما لها من آثار خلقية وعاطفية- الى نتائج وآثار سياسية»، ولأجل هذه الامور «استحدثت الاسلام هذه الاجتماعات، وندب الناس إليها، وألزمهم ببعضها، حتى تعم المعرفة الدينية، وتعم العواطف الأخوية، وتتماسك عرى الصداقة والتعارف بين الناس، وتنضج الأفكار وتنمو وتتلاقح، وتُبَحِّث المشكلات السياسية والاجتماعية وحلولها».

من هنا يبين الامام القائد القدرة الالهية فى عقد هذا الاجتماع الكبير، الذى لا يشابه اجتماعات البشر الوضعية بقوله: «فى الدول الاسلامية تنفق الملايين من ثروة البلاد وميزانيتها، من أجل عقد مثل هذه الاجتماعات، وإذا انعقدت فهى فى الغالب صورة شكلية تفتقر الى عنصر الصفاء وحسن النية والإخاء المهيمن على الناس فى اجتماعاتهم الاسلامية، ولا تؤدى بالتالى الى النتائج المثمرة، التى تؤدى إليها اجتماعاتنا

ص: ١٠٥

الاسلامية. فقد وضع الاسلام حوافز ودوافع باطنية تجعل الذهاب الى الحج من أغلى أمانى الحياة... فما علينا الا- أن نعتبر هذه الاجتماعات فرصاً ذهبية لخدمته المبدئ والعقيدة».

المبحث الأول: حرمة الحرم الآمن

لننصرى الزمان والمكان بالغ الأهمية فى هذه الفريضة الإلهية، فمكان الحج له أهميته الخاصة وموقعه التشريعى فى هذه العبادة، وهو أن جعل المولى - سبحانه - الكعبة المشرفة المكان المقصود فى الحج، فهى كما قال تعالى: إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين. وهذا البيت جعل الله سبحانه الحرم ملازمة له ولا تنفك عنه أبداً منذ أن اختاره لعباده الى قيام يوم الدين. وجعله حرماً آمناً ومن دخله كان آمناً ليحس الحاج بالسكينة والطمأنينة والراحة النفسية عند لجوئه الى بيت الله الحرام. وقد خاطب الله سبحانه نبيه آدم عليه السلام قائلاً: «اجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حرماً وأمناً، أحرم بحرmates ما فوقه، وما تحته، وما حوله، فمن حرمه بحرمتى فقد عظم حرماتى، ومن أحله فقد أباح حرماتى، ومن آمن أهله فقد استوجب بذلك أمانى، ومن أخافهم فقد أخفرنى فى ذمتى».

وقوله تعالى وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام، إن دل على شىء فإنما يدل على قداسة هذا البيت وأهمية استشعار الأمن فى ربوعه ليوحى للانسان قيمة هذه الحقيقة فى الحياة... حقيقة الامن والسلام. والله جعل لهذا البيت الحرم الأبدية - كما قلنا سابقاً - ولم يحلها للمرأة واحدة، وذلك لرسوله صلى الله عليه وآله عند دخوله مكة فى السنة الثامنة للهجرة المباركة.

المبحث الثانى: انتهاك حرمة الحرم الآمن

على الرغم من أن المولى سبحانه جعل لهذا البيت من الحرم والقداسة

ص: ١٠٦

الملازمين له، وجعله بلداً آمناً، لكن الطغاة وعلى مَرَّ العصور تعمدوا هتك حرمة وعائوا فيه فساداً بدءاً بولد اسماعيل الذين استبدلهم الله سبحانه بقبيلة (جرهم) الذين فعلوا الأعاجيب فى القتل والنهب والسلب فى البلد الحرام، حتى سلط الله سبحانه عليهم (العمالقة)، وهؤلاء لم يكونوا بأحسن حالاً ممن سبقهم، فانهم لم يراعوا لمؤمن إلّا ولا ذمّة، وما أبقوا للبيت قداسة وحرمة، وهم والذين من قبلهم على علم بالنتائج المترتبة عن الظلم والطغيان، بأنه ما ظلم فيه من أحد إلّا وسلط الله سبحانه عليه معاول غضبه. وهكذا نزل الغضب الإلهى على (العمالقة) وقُطع دابرهم، بعد أن لم تنفع معهم نصيحة حكمائهم وتحذيرهم لهم، فنجد أحد عقلاء القوم يقف خطيباً ناصحاً، قائلاً: «يا قوم ابقوا على أنفسكم، فقد رأيتم وسمعتم من هلك من صدر الأمم قبلكم... فلا تستخفوا بحرم الله وموضع بيته، وإياكم والظلم والالحاد فيه، فإنه ما سكنه أحد قط فظلم فيه وألحد إلّا قطع الله دابرهم واستأصل شأفتهم».

وبعد أن تمزّق (العمالقة) شرّ ممزّق على يد (الجراهمه) - الذين عادوا مرة أخرى - ذهبت جرهم هى الأخرى على يد خزاعة التى تمادت فى غيها عدّة مئات من السنين حتى انهارت سلطتها على يد (قريش)، وهذه الأخيرة هى كمن سبقها ممن توالى على سدانة الكعبة، وليست بأحسن حالاً منهم حتى بعث الله رسوله الكريم (صلوات الله عليه وآله)، فطهر البيت وما حوله من الشرك والطغيان، وعبادة الأوثان وهدم الله أركان قريش، فكسر شوكتهم وجبروتهم، واستسلموا فى نهاية الأمر، وذلك عند دخول الرسول الاكرم (صلوات الله عليه وآله) فى السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة - لفتح مكة - وهو يتلو قوله تعالى: «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

وشهدت مكة حالة من السكون والطمأنينة والاستقرار على عهد الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، ومن بعده الخلفاء، الى أن اعتلى يزيد بن معاوية سدة الحكم، وهو ممن

ص: ١٠٧

عُرف باستخفافه وهتكه للحرمت، وممن لا يقيم لشيء وزناً، ولا يتورع حتى من إراقه الدماء على جدران الكعبة، فرمى عامله على المدينة (الحصين بن نمير) - بأمر منه - الكعبة بالمنجنيق حتى تهدمت جدرانها، وعلى السبيل ذاتها سار (عبد الملك ابن مروان) فتابع السنة التى استنتها آل أمية، سنة (هتك الحرمت وسفك الدماء)، فأوعز إلى عامله (الحجاج بن يوسف الثقفى)، لقتل ابن الزبير وإن احتفى بالبيت وتعلق بأستاره.

هذا فى العهد الأموى المعروف بدمويته واستخفافه بالحرم، أما فى العهد العباسى، والدور المرعب الذى قام به القرامطة فى قتل (٢٠ ألفاً) من الحجاج الخراسانيين بعد أداء فريضة الحج سنة (٢٤٩ هـ).

وما فعله الطاغية (أبو طاهر القرمطى) مع أعوانه بضيوف الرحمن ما تصطك منه الأسماع، وتقشعر منه الجلود، برميهم جث القتلى فى بئر زمزم فضلاً عن السرقة والنهب والسلب، وأهم ما سرقوه الحجر الأسود.

وأحفاد القرامطة واليزيديين ورثوا البغى والطغيان من أسلافهم وزادوا عليهم من ترويع ضيوف الرحمن، حتى أحصوا عليهم أنفاسهم. وعشرات المرات تُنتهك حرمة البيت، والحكومات الإسلامية لا تنبس بنت شفه حتى بزغ فجر الثورة الإسلامية فى ايران الاسلام على يد قائدها الخمينى الكبير رضى الله عنه، الذى قام بتغييرات واسعة النطاق فى كافة الجهات، فكان من أولى اهتماماته تصديده ل (فريضة الحج)، باعتبارها من القواعد الأساسية لنهضة الأمة وتطورها.

المبحث الثالث: انتصار الثورة الإسلامية

وما إن انتصرت الأمة الإسلامية فى ايران، وعمت الصحوة العارمة أكثر شعوب المنطقة بل كافة البلدان الإسلامية، حتى حلق الامام نظره الى ذلك الاجتماع الكبير والمنبر العظيم الذى سيؤدى الدور المبارك فيما لو انطلقت منه صرخه (الله أكبر) من حناجر المستضعفين.

ص: ١٠٨

فأدرك الدور الخطير للحج وما له من الأثر الفعال فى التغيير الاجتماعى الناتج من تفاعل الأفراد من مختلف الثقافات والعادات والطباع البشرية، وذلك عن طريق تقريب الأفراد - بأجناسهم المتباينة - نحو بعضهم البعض، وتقصير المسافة المكائنة بينهم. فحدث الثورة الاسلامية المعاصرة، غير ميزان القوى، وأربك المعادلات السياسية، وأعاد للاسلام مركزه الرائد فى مسيرة الانسان، وحقق صحوة إسلامية عارمة تحطم القيود والأغلال، التى كبلت الأمة آماداً طويلة. وليستعيد المشروع الحضارى الاسلامى الشامل روح الحياة بالكامل، لابد من تكريس الصراع بين الحق والباطل، ومحاربة شياطين الانس والجن؛ لإقامة حكم الله فى الأرض. فانبرى الامام القائد رضى الله عنه، وفى أول حج بعد الانتصار المبارك بإصدار بيان تاريخى مهم؛ ليوظ المسلمين ويفتح أبصارهم وبصائرهم نحو الوضع المرير والواقع المر المخجل الذى وصلوا إليه، من خلال الجهل والضعف والسكوت عن البغى والطغيان من أجل إمرار المعاش.

فكان بيانه يقرع القلوب، ويفتح الأذهان، فاستطاع أن يوصل صوت المستضعفين الى كافة أصقاع الأرض، كما استطاع أن يعيد لهذه الفريضة الإلهية - التى أفرغت من محتواها بالكامل - دورها الدينامى الحركى القادر على تغيير الأمة نحو المستقبل المشرق، والى أمة قوية ذات عقيدة راسخة تحطم الأصنام وتفك القيود؛ لتتحرر من الظلم والاستضعاف، والتخلف والتبعية للاستكبار العالمى، ومن كل ألوان الشرك.

فقد خاطب قدس سره المسلمين جميعاً وفى كل مكان بقوله: «اعلموا أيها المسلمون، أن هذا التجمع الكبير، الذى ينعقد كل عام بأمر من الله تبارك وتعالى، يفرض عليكم بصفتمكم أمة مؤمنة ذات عقيدة راسخة، أن تبدلوا جهودكم فى سبيل تحقيق أهداف الاسلام السامية

ص: ١٠٩

وشريعته الغراء، وفى سبيل تقدم المسلمين وتضامنهم ووحدتهم الشاملة».

ويؤكد الامام فى كل رساله سنويه يبعثها لضيوف الرحمان على أخذ الفائدة التامة من هذه القدرة السماويه، فيقول: «هناك عوامل سياسيه عديده وراء عقد الاجتماعات والمجامع وخاصه اجتماع الحج القيم، والتي منها التعرف على المشاكل الأساسيه والقضايا السياسيه للإسلام والمسلمين، ولا يمكن ذلك إلا باجتماع رجال الدين والمفكرين والملتزمين الزائرين لبيت الله الحرام وذلك بعرض وتبادل الآراء لإيجاد الحلول، وفى العوده الى البلدان الاسلاميه يعرضونها فى المجامع العامه ويسعون فى رفع وحل مشاكلهم».

ثم يضيف فى خطابه السنوى محذراً الشعوب الاسلاميه من مغبه الركون الى الظالم، فيقول: «دافعوا عن كرامتكم الاسلاميه والوطنيه وصدوا أعداءكم المتمثلين فى أمريكا والصهيونية العالميه والقوى الكبرى سواء الشرقيه منها والغربيه، دونما خوف ووجل، ودون ملاحظه (بعض) الشعوب والدول الاسلاميه، واكتشفوا عن الظلم الذى يمارسه أعداء الاسلام».

ولو استقرأنا خطابات الامام السنويه الى ضيوف الرحمن؛ لتبين لنا أنها تكاد لا تخلو من وصايا وتحذيرات للشعوب الاسلاميه وقاداتها من مكر الدول الاستكباريه، فنراه من جانب يوصى زعماء الخليج الفارسى بألا يعملوا على تحقير أنفسهم وشعوبهم من أجل عنصر أفلس سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وأن لا يظهروا ضعفهم وعجزهم عن طريق اللجوء الى أحضان أمريكا، ولا يطلبوا العون من الذئاب والوحوش لرعيهم وحفظ مصالحهم، ومن جانب آخر يحذر جميع القوى العظمى الشرقيه والغربيه من التدخل فى مقدرات الشعوب الاسلاميه بل وغير الاسلاميه منها.

المبحث الرابع: مسيره البراءه من المشركين

أكثر ما أكد الامام عليه فى الحج هو: (مفهوم البراءه من المشركين)، انطلاقاً

ص: ١١٠

من الآية المباركة وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، وإحياءً لذكرى أهم وأكبر حركة سياسية للرسول الاكرم (صلوات الله عليه وآله)، أى براءة من كل ألوان الشرك ونبت كل أشكال الضلال والدناءة واللاإنسانية. وكما أدرك الإمام القائد رضى الله عنه الدور التربوى للحج، باعتباره القاعدة والأساس والمنطلق لوحدة المسلمين، وبه يتحرر الانسان المسلم آنذاك من المحيط الضيق، ومن الفكر العتيق، ويعيش حالة الشخصية العالمية بصفته جزءاً من أمة واسعة مترامية الأطراف. كذلك أدرك الاستكبار الدور الأساس والنتائج الطيبة التى ستجنيها الأمة الاسلامية من هذا الاجتماع العظيم فى الحرم الآمن بإطلاق صرخة البراءة من المشركين عن وعى وإدراك كاملين، فحاول - الاستكبار - الإخلال بمسيرات البراءة منذ انطلاقتها الأولى وحتى يومنا هذا بكل الطرق والوسائل الشيطانية الماكرة، عن طريق عملائه ومرتزقه؛ لإخماد صرخة الدفاع عن الشعوب المظلومة والمحرومة، التى ضاقت ذرعاً باعتداءات الشرق والغرب، صرخة الدفاع عن الكرامات المسحوقه.. صرخة الدفاع عن الثروات المنهوبة.. صرخة أمة تصدح بشعار الاسلام الخالد (هيهات منا الذلة).

ولطالما بين الامام القائد رضى الله عنه طريقة الدفاع عن حياض المسلمين ومقدساتهم، فيقول فى أحد خطاباته لضيوف الرحمن: «هيهات أن يسكت الخميني، ويبقى ساكناً أمام اعتداءات الأشرقياء.. لقد وضعت دمي وروحي الرخيصة على كفى بانتظار الفوز بالشهادة العظيمة فى سبيل الواجب والحق وأداء فريضة الذود عن حياض المسلمين».

ثم يقول قدس سره:

«إعلان البراءة، يعتبر من الأركان التوحيدية والواجبات السياسية للحج، ويجب أن تقام فى أيام الحج بكل صلابة وعظمة، مسيرات ومظاهرات كبرى... ويطلقوا بجوار بيت

ص: ١١١

التوحيد صرخة البراءة من المشركين والملحدين من مستكبر رأسه أمريكا المجرمة، فهل تحقيق الديانة هو غير إعلان المحبة والإخلاص للحق، وإعلان الغضب والبراءة من الباطل؟

وعلى أى حال فإن إعلان البراءة فى الحج هو تجديد العهد بالجهاد وتربية المجاهدين لمواصله الحرب ضد الكفر والشرك وعبادة الاصنام وهو لا يقتصر على الشعارات بل يتعدها لتعبئة جنود الله وتنظيمهم...

ليخرج الحجاج الاعزاء من أفضل اراضى العشق والجهاد وأكثرها قدسية، الى كعبة أكثر رفعة حيث يتوجهوا كسيد الشهداء، (الامام الحسين عليه السلام) من احرام الحج الى احرام الحرب، ومن طواف الكعبة والحرم الى طواف صاحب البيت، ومن التوضوء بزمزم الى غسل الشهادة والدم، ليتحولوا الى أمة لا تقهر وبنان مرصوص... لا شك أن روح الحج ورسالته، لن تتحققا إلا بعد أن يلتزم المسلمون بجهاد النفس، وجهاد الكفر والشرك».

وعلى هذا الأساس، نستطيع أن ندخل الى الواقع الاسلامى للإنسان المسلم، من خلال الحالة التكاملية التى يحصل عليها وهو ينطلق ليؤدى مناسك الحج عن وعى لحقيقته وأسراره.

لو يتساءل الانسان المسلم، ماذا يعنى البيت؟ وماذا يعنى الطواف حوله؟

وماذا يعنى رمى الجمرات والنحر؟ و.. و.. الخ، أليست هى التربية الإلهية للإنسان من خلال رموز عينها له ليتوجه اليها بقلبه وعقله ليعى معنى الشيطان؟ فمن هو الشيطان الحقيقى إذن؟ ولماذا تجب محاربته؟ وكيف؟ أسئلة كثيرة ترد فى ذهن الحاج وهو فى حال الرمى أو غيره..

وعلى الرغم من كل الموانع والعوائق التى حالت دون أداء هذه المسيرة المباركة، صمم الحجاج الايرانيون الأحرار وغيرهم على إقامتها على أتم وجه بما يرضى الله سبحانه ورسوله واستجابة لولى أمر المسلمين.

ولكن للأسف الشديد فى العام (١٤٠٧) فى اليوم السادس من شهر ذى

ص: ١١٢

الحجة الحرام، اليوم الذى استباح فيه (أبو طاهر القرمطى) بيت الله الحرام، كانت مكة المكرمة (الحرم الآمن) على موعد مع انتهاك عظيم آخر لحرمتها وقداستها وأمنها. فسفك الدم الحرام فى الشهر الحرام فى البلد الحرام.

وفى الذكرى الاولى لهذا الحادث المؤلم، ألقى الامام القائد رضى الله عنه خطاباً مهماً، والألم يعتصر قلبه الشريف، وهو يكشف فيه عن خيوط المؤامرة، إذ يقول: «لابد من التعرف على واقع ما جرى من مؤامرة خطط لها الشيطان الأ-كبر لذبح ضيوف الرحمن، وتشويش سعى الحجاج لفهم فلسفة الحج الحقّة».

وصمم الامام على تصدير الثورة، وإيصال صوت المستضعفين، خاصة عن طريق ذلك (المنبر المقدس العظيم)، فنراه يقول فى بيانه التاريخى الى حجاج بيت الله الحرام لعام (١٤٠٧): «سنطلع العالم على تجاربنا وسنرسم لكل المجاهدين طريق الحق والحرية، بدون أى مقابل، وذلك باطلاعهم على حصيله كفاحنا ودفاعنا ووقوفنا ضد الظالمين».

ولن تكون نتيجة الاستفادة من هذه التجارب الغنية سوى تحقيق الانتصار والاستقلال وانتشار تعاليم الاسلام بين الشعوب المضطهدة». ويتكلم الامام الراحل بصلاية محمدية وروح حسينية قائلاً: «إنى أعلن للعالم وبكل حزم بأنه إذا ما أراد السلطويون دنياهم، والناهيون الدوليون الوقوف أمام ديننا فإننا سوف نقف بوجههم ولن نستكين حتى القضاء عليهم جميعاً، فإما أن نتحرر جميعاً، وإما أن نبلى الحرية الكبرى ألا وهى الشهادة».

فإما أن نشد على أيدي بعضنا البعض فرحين بانتصار الاسلام فى أرجاء المعمورة كلها، أو أن نتوجه جميعاً نحو الحياة الأزلية والشهادة، ونستقبل الموت بعز وشوق، وفى كلا الحالين سيكون النصر حليفنا.

إن أهم علل ما تعانیه المجتمعات الاسلامية، هى أنها لم تدرك الفلسفة لكثير من الاحكام الالهية، والحج بما يشتمل عليه من أسرار وعظمه، لا زال يُمارس كعبادة جامدة

ص: ١١٣

وحرركات غير مثمرة؛ لذا فإن من الواجبات الكبرى على المسلمين أن يتوصلوا الى فهم حقيقة الحج...».

المبحث الخامس: معنى الحج عند الامام الخمينى رضى الله عنه

وهنا يطرح الامام القائد رضى الله عنه سؤالاً على زائرى بيت الله الحرام: ما هو الحج؟

ولماذا يجب على الحجاج ان يخصصوا جزءاً من إمكاناتهم المادية والمعنوية لأجل أدائه؟! فهل سيكون الجواب، وكما يصوره

المغرضون، بأن الحج عبادة جماعية وزيارة سياحية؟! فحقيقة الأمر يبينها الامام القائد فى خطابه فيقول:

«إن الحج هو:

اولاً: من أجل اقتراب الانسان من رب البيت وارتباطه به.

ثانياً: الحج منبع المعارف الإلهية، فيجب البحث فيه عن المحتوى الحق للسياسة الإسلامية لجميع شؤون الحياة.

ثالثاً: الحج مظهر تجلّ وإعادة تجسيد جميع ملاحم العشق الإلهي، عشق حياة الانسان الكامل، والمجتمع الكامل فى هذه الدنيا.

رابعاً: مناسك الحج هى مناسك الحياة برمتها، وعلى هذا يجب على شعوب الأمة الإسلامية من أى قومية كانت أن تصبح إبراهيمية؛

لتلتحق بصف أمة محمد صلى الله عليه وآله وتذوب فيه فتصبح معه يداً واحدة.

خامساً: الحج ميدان لتجلى عظمة طاقات المسلمين ولاختبار قواهم المادية والمعنوية.

سادساً: الحج تنظيم وتدريب وتأسيس لهذه الحياة التوحيدية.

سابعاً: الحج كالقرآن... مبارك ينتفع منه الجميع، ولكن العلماء والمتبحرين والعارفين بآلام الأمة الإسلامية، إذا فتحوا قلوبهم لبحر

معارفه ولم يرهبوا الغوص والتعمق فى أحكامه وسياساته الاجتماعية، فإنهم حاصلون من أصداف هذا البحر على لآلى الهداية والوعى

والحكمة والرشاد والتحرر أكثر

ص: ١١٤

من غيرهم، ولارتووا من خلال الحكمة والمعرفة الى الأبد.

ثامناً: أن الحج بغير روح، ولا حركه، ولا انتفاضة، وإن الحج بغير البراءة من المشركين، وإن الحج بغير وحده، وإن الحج الذى لا يؤدى إلى تدمير الكفر والشرك، وإن الحج بغير ذلك كله، ما هو بحج.

هذا هو الحج عند الامام القائد الفذ رضى الله عنه، الذى ينبثق عنه المشروع الحضارى الكبير الشامل حتى تحقيق الدولة العالمية الإلهية.

«فعلى كل المؤمنين الملتزمين، وعلى كل الباحثين المتعمقين أن يتصدوا لتبيان أسرار الحج وفلسفته الحققة. ومن دون معرفة ذلك كله، لا يمكن أن تقوم لهذه الأمة قائمة، ولا بد لها من أن تطأطئ رأسها للأمم الكبرى، بعد أن احتلت مكان الصدارة فى عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. ومن بعده - ولأجل إقصاء الأئمة عليهم السلام عن مناصبهم - بدت تلوح فى الأفق ملامح الانهيار والسقوط.

ومن خلال دخول مؤتمر الحج الكبير، وارتقاء ذلك المنبر العظيم الذى من شأنه أن يسمع فى ذروة سنام الانسانية صرخات المظلومين الى العالم أجمع، ويدوى منه فى الخافقين نداء التوحيد». فالامام القائد رضى الله عنه، أراد انزال الاسلام المحمدى الأصيل الى واقع الأمة الاسلامية، الإسلام الذى لا يعترف بوجود جانب واحد فى حياة الانسان، أى الجانب المادى فحسب، بل هناك جانبان يصنعان شخصية الانسان المتكاملة، ألا وهما الروح والمادة.

فالخطط الجهنمية التى أثارها الكفر العالمى فى وعى الأمة، أدت دورها فى حرف الازهان نحو الانعزال والفردية والتفوق والانانية، بقولهم: ليس لدينا دين ودنيا يشتركان معاً فى صنع حياة الانسان، فإن للدين دائرته، وللدنيا دائرتها، وللدين ربّه وللدنيا ربّها، فمن يرتضى قول المسيح الوارد فى إنجيل متى «اعط إذن، ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» فهل فى الاسلام يكون مثل هذا الفصل بين قيصر والله سبحانه؟ الاسلام دين العقل والتعقل، دين العلم والتدبر، وللعقل مكانة

ص: ١١٥

سامقة لا تضاهيها مكانة، مقابل الجوانب الانسانية الأخرى، والعقل يحكم (بأن الدنيا مزرعة الآخرة)، وأن الانسان خليفة الله فى أرضه، يحكم فيها بإرادة المستخلف لا بإرادة منفصلة عنه، كما هو الحاصل فى الغرب الظالم.

ولهذا حرص الاسلام على أن تكون مباني العقيدة قائمة على ركن وثيق من العلم والمنطق والعقل السليم، بل وعمد الى تفاصيل الحياة الجزئية، فأرفدها بنظم وتعليمات جعلت من مسيرة الانسان تخطو خطواتها المتشدة، واثقة من سلامة مواطني أقدامها، ومباهية الأمم برزانه ورسائه المبادئ والمعتقدات والسلوك الذى بنت عليه بنيانها وكيانها الشامخ.

وعلى هذا الاساس المتين، نرى الامام القائد رضى الله عنه، وهو الغيور على مقدسات الاسلام والمسلمين، والحريص على تراثه وحرمانه، نراه حينما يُستفتى ويُسأل ويُستوضح، يكون جوابه جواب العارفين بمتطلبات الأمور، ومقتضيات المصالح، وما تحتاج تلك الفترة الزمنية من تغيير وتبديل فى الآراء والمواقف التى تعتبر من صلاحية الحاكم الشرعى - الولي الفقيه - وبخصوص منطقة الفراغ.

فيوضح للناس ما خفى عنهم من القضايا المحيطة بهم، بسبب مكر الجابرة والطواغيت. ومنذ اليوم الأول لقيادة مسيرة الثورة سار الامام على هذا المنوال، فمثلاً يبين للأمة مسألة الحصانة للأمريكان فى ايران بكل دقة وتفصيل. ويوضح للناس وللمن لم يدرك جيداً سر إصرار الجمهورية الإسلامية على مسيرة البراءة من المشركين فيقول: «وكانوا يسألون أنفسهم والآخرين، ما هى الحاجة للمسيرة وإطلاق صرخة البراءة من المشركين؟ وحتى لو أطلقت صرخة البراءة من المشركين فما الضرر الذى يلحق الاستكبار منها؟ وما أكثر ما كان يتصور السذج من أن عالم ناهبى المعمورة المسمى «بالمحتضر» ليس قادراً على تحمّل أمثال هذه القضايا وحسب. بل إنه وحتى قبل ذلك سيعطى الإذن باحياء التظاهرات والمسيرات لمعارضيه أكثر من هذا.

ويستدلون على هذا المدعى بالسماح للمسيرات بالخروج فى بلدان ما يسمى

ص: ١١٦

بالغرب الحر، ولكن يجب أن تتضح هنا حقيقة أن لا ضرر من تلك التظاهرات على القوى الاستكبارية وسائر القوى، أما مسيرات مكة والمدينة فهي تؤدي الى إبادة عملاء روسيا وأمريكا...».

فالظروف الحساسة والحرجه التي أحاطت بالثورة آنذاك، كانت تملئ على الامام القائد رضى الله عنه، أن يشن حملة تطهير وتهذيب وتعديل لكل الممارسات الدينية - بالخاص مناسك الحج المفرغة من محتواها ومضمونها بالكامل - مما لحقها عبر سنين طوال من تفاعلات، وإرهاصات، تراوحت بين المد والجزر، والسلب والإيجاب، الأمر الذي أدى إلى إعطاء انطباعات سيئة على مجمل العقيدة الإسلامية فضلاً عن الشيعة، والى بروز تيار أخذ بالتشهير والتحريض بالشيعة؛ لذلك ارتأى الامام القائد رضى الله عنه أن تتسم حملته بطابع الهدوء والمرحلية، محاولاً تهينة الأذهان والأرضية اللازمة لطرح الحكم القاطع باستئصال تلك الممارسات فى مرحلة قادمة انطلاقاً من التحريم المرحلى لبعض الأمور فى القرآن الكريم كتحريم الخمر مثلاً.

فكانت الرسائل السنوية من قبل الامام القائد رضى الله عنه تؤكد على أداء المناسك والشعائر وبالصورة التي تتطلبها المرحلة فى العصر الراهن، والتأكيد على استلهاام الدروس والمعطيات التي من أجلها ضحى سيد الشهداء - الذى حلّ إحرامه وجعلها عمرة مفردة، وخرج من مكة قاصداً أرض الجهاد؛ للدفاع عن الحق والعقيدة، وحفاظاً على الدين، وحرمة الحرم الآمن - وأكد عليها الأئمة الأطهار عليهم السلام؛ لكي لا تُهدر الطاقات والأوقات فى قضايا تشكيلية عديمة الفائدة، لا يصل النفع منها للاسلام والمسلمين اجتماعياً وسياسياً.

المبحث السادس: السائرون على خطى الامام

ثمّة عصبة سارت على نهج الامام القائد رضى الله عنه القويم، فنالت الخلود والحياة باستشهادها على طريق الثورة والاصلاح، وأخرى واصلت المسير مستلهمة من

ص: ١١٧

أصالة فكره، وقوة صبره، وشدة حزمه التى ورثها من جده السبط أبى الأحرار وملهم الثوار.

وبفضل المخلصين الواعين من رجال الأمة والمصلحين من العلماء والعاملين بدت تنجلي الغياهب وتنقشع السحب الكثيفة التى تحجب النور الطبيعى من النفاذ الى القلوب، ومن أولئك المخلصين الذين أفرزتهم مدرسة الامام، ومن سار على خطه ومنهجه، فكان العضد المساعد والامتداد للامام الرحل رضى الله عنه وثورته هو:

(السيد على الخامننى حفظه الله تعالى)، فتسلم المسؤولية الكبرى لقيادة الأمة.

ومن أجل سلامة المسيرة البشرية، وصيانتها من الانحراف يقتضى وبحسب المسؤولية الملقاة على عاتق (الولى الفقيه) التدخل واتخاذ كل التدابير اللازمة الممكنة وحسب الظروف والشرائط الزمانية والمكانية، إذا ما داهم خطر وأحدق بالمسلمين أو الدولة الاسلامية. ومن هذه المنطلقات انبرى السيد الخامننى ليظهر الممارسات الدينية والقواعد الاسلامية - بالأخص قاعدة الحج - من البدع والضلالات والأداء اللاواعى للشعائر الإلهية، بدافع من مسؤوليته وغيرته على الاسلام والمسلمين، وحفظهم من خطر الغزو الثقافى والشبهات المثارة لاستقطاب البسطاء والسذج من الناس، وتحريرهم من أسار العادات السخيفة التى اتخذوها سُنَّة بحيث لا يمكنهم تجاوزها والتخلف عنها.

وبما أن العدو يخطط دوماً إلى استئصال اللب وإبقاء القشور، موحياً بأنها هى الأصل والأساس، فإن المجتمع الذى يعيش حالة الفراغ الفكرى والضالة الدينية والثقافية يأخذ بهذه القشور، ويتبع الشكليات والمظاهر الخالية من المضامين العالية المؤدية إلى التكامل والرقى والسمو.

ولهذا نجد عدم إمكان استعباد الرعية وظلمها ما دامت غير حقماء وغير تائهة فى ظلمة الجهل؛ ولأن العلم نور والله خلق النور للإنارة والحرارة والطاقة. والنور

ص: ١١٨

ينشر الخير ويفضح الشر، ويوجد فى النفوس الحرارة، وفى الرؤوس الغيرة.

والمستبد يخشى العلوم التى تفتح الذهن وتنشر الوعى بين الناس، وتفهم ما هو الانسان؟ وما هى حقوقه؟ هل هو مغبون؟ كيف يطالب بحقوقه؟ وكيف يمكنه حفظها؟

فالولى الفقيه الامام الخامننى (حفظه الله) أحد أولئك الواعين الذى تصدى للأخطار المحدقة بالأمم بشدة وصرامة، وبحجم خطورة الموقف، فقال فى خطاب له: «إن أعمال الحج، ومنها رمى الجمار تجسيد للمعرفة ومقارعة العدو. والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله رفع الاذان، وتليت آيات البراءة فى موسم الحج بلسان أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام. ولو أن الأمم الاسلاميه تخلصت يوماً من وجود جحافل الأعداء وأمكن حدوث ذلك فإن البراءة ستفقد مبررها، ولكن مع وجود الأعداء وعدوانهم الحالى فإن الغفلة عن العدو وإهمال البراءة منه خطأ كبير وخسارة فادحة...».

فالحج الصحيح والكامل - عند الإمام الخامننى (حفظه الله) - الذى تُرتجى منه العزة والمنعة والكرامة والاستقلال، والذى يحمل على وقف اتساع دائرة مشاكل الأمة الاسلاميه، ثم يستأصل هذه المشاكل، هو: الحج التوحيدى... الحج حين يكون منطقته حب الله وحب المؤمنين والبراءة من الشياطين، ومن الأصنام والمشركين.. والدولة المباركة فى ايران الاسلام ركزت على تقريب الحج مما كان عليه فى صدر الاسلام، وذلك بالموائمة بين الجانب السياسى الالهى لهذه الفريضة، وهو مظهر عزة الحى القيوم وقدرته، والجانب العبادى، وهو مظهر غفران الرب ورحمته، ولتجسيد هذا الاقتران أن أحيت ايران شعيرة البراءة من المشركين ثانياً فى الحج، وهى تواصل هذا العمل بهذا الواجب الاسلامى رغم كل المعوقات السياسيه، ورغم كل المضايقات الناشئة عن دوافع غير اسلاميه.

فمن هذا الحج الصحيح يمكن الحصول على المنافع التى قال عنها المولى سبحانه فى كتابه الكريم: ليشهدوا منافع لهم وهذا الحج هو الذى يكون مثابته

ص: ١١٩

وأمناً كما فى قوله تعالى: وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً.... هذه المثابة إن دلت على شىء إنما تدل على قدرة الأمة على التجمع والاتحاد، فهى ما إن استطاعت تأتى من كل فج عميق باتجاه نقطة واحدة، مرددة كلمة واحدة، ومتحركة باتجاه واحد، فهى إذن قادرة على تحقيق الوحدة الإسلامية، والحكم الإسلامى الموحد.

فالحج الصحيح الذى يستطيع تغيير المحتوى الداخلى لكل فرد من أفراد المسلمين، ويغرس فى نفوسهم روح التوحيد والارتباط بالله والاعتماد، والحج الذى يستطيع أن يصنع من الأشلاء الممزقة لجسد الأمة الإسلامية كياناً واحداً فاعلاً ومقتدراً، هذا الحج هو الذى يريده الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله من قوله: «لو أنفقت جبل أبى قبيس ذهباً فى سبيل الله ما أدركت فضيلة الحج»، والذى قال عنه الامام الصادق: «لا تماثل الحج عبادة».

وعلى هذا الاساس جاء حرص الاسلام شديداً على هذه الفريضة الالهية الكبيرة؛ لما تنطوى عليه من الاسرار العميقة والمعطيات الواسعة، وجاء اهتمامه بها حتى أعطى الدولة الإسلامية صلاحية قانونية تمنحها الحق فى إخراج عدد من المسلمين الى الحج، وإن أدى ذلك الى القوة والاجبار.

فقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام قوله: «لو أن الناس تركوا الحج لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده. ولو تركوا زيارة النبى صلى الله عليه وآله لكان على الوالى أن يجبرهم على المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين».

ومن المعطيات العظيمة لهذه الفريضة الالهية، والتى يبينها الامام الخامنئى (حفظه الله) فى خطاباته السنوية لضيوف الرحمن هو مظهر (القوة والاقتدار) باعتبارهما مفتاح التطور والنجاح، والوسيلة اللازمة لتحقيق الحياة الطيبة لأفراد المجتمع، ثم يضيف الى ذلك موضحاً معنى الاقتدار فيقول: «المقصود بالاقتدار الوطنى

ص: ١٢٠

أن يتمتع المجتمع والبلد بالاخلاق والعلم والثروة والنظام السياسى الفاعل والإرادة الشعبية... غير أن فقدان ذلك الاقتدار سيعجل كثيراً من الانحدار فى الانحطاط الاخلاقى والسياسى وسيسلب الشعوب دنياها وآخرتها وعلمها وأخلاقها وكل شىء لديها».

فأداء الحج وتوضيحه بالصورة الصحيحة والكاملة أصبح فى رأس قائمة اهتمامات الجمهورية الاسلامية فى ايران بعد الانتصار المبارك، بدءاً بالامام الخمينى رضى الله عنه الذى أكد على مجموعة كبيرة من النقاط الأساسية التى لابد من فهمها وأدائها فى الحج، بالأخص تأكيده الشديد على مسيرة البراءة من المشركين الذى تعود بالنفع الكبير على الاسلام والمسلمين، كما أوضحنا ذلك سابقاً. ومن ثم السائرون على خطاه - خاصة الامام الخامنئى (حفظه الله) - الذين لم يدخروا وسعاً فى تحقيق المشروع الحضارى للحج فى الحرم الآمن، المطروح من قبل الامام القائد (الخمينى الكبير) رضى الله عنه.

وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس وهذا القيام يعنى تحرك الأمة وقيامها نحو نبذ كل ألوان الشرك والضلالات والتحديات، تمهيداً لاكتسابها القوة، والقدرة، والطاقة من خلال مناسك الحج؛ لتحصل على الاستقلال والحركة والسيادة وتخلص من التبعية، وتستعيد قدرتها على اتخاذ القرارات والتدبيرات اللازمة وحسب متطلبات العصر، ووفق الدستور الالهى، ولكن للأسف الشديد، وكما يقول الإمام الخامنئى:

«لا يمتلك المسلمون اليوم على الساحة العالمية وفى معترك السياسة الدولية أى دور فى اتخاذ القرارات الكبرى، وفى تعيين النظام الدولى، وأفزع من ذلك فإن كثيراً من البلدان الاسلامية تنهج فى سياستها الوطنية منهجاً ذليلاً تابعاً، وتخضع لأحدى البلدان المستكبرة المتعنتة... لأن حكوماتها عميلة، وضعيفة النفس، وشعوبها مضطهدة أو مغفلة، وعلماءها ومثقفوها مصابون بالخوف والتغافل، وبحب البطر والراحة. هذا ما بينه الامام الخامنئى فى خطابه الى حجاج بيت الله الحرام ثم أوصاهم مؤكداً عليهم بأن يجعلوا

ص: ١٢١

فريضة الحج مؤتمراً يتداولون فيه تلك المشاكل والمحن، ويتدارسون فيه أفضل السبل لحلّها وتوعية شعوبهم بكلّ ذلك». فلا بد من السير الحثيث لتحقيق التوعية على أفضل سبلها، وذلك لأنّ الاستكبار العامل لا يبكى علينا لتخلفنا وتشردنا وجهلنا، ولا يسعى لتحضرنا إلّا بالمقدار الذى يحلو له، وبالطريقة التى تعجبه؛ لاستغلالنا واستعبادنا، فيبقى هو السيد ونحن العبيد الأذلاء، فترى البعض منا يضحك ويبكى، ويذم ويمدح، ويتحرك ولكن لا يعي كثيراً مما يقول ويفعل، وكما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: (همج رعاع أتباع كل ناعق).

فهذا اللون من الحج، مما أكد عليه الامام الراحل رضى الله عنه سابقاً ويؤكد عليه الامام الخامنئى (حفظه الله) لاحقاً، يحقق أهداف الاسلام وغاياته، فلا بد من العود الى حج رسول الله صلى الله عليه وآله فى الشكل والمحتوى، ولا بد من أن تنطلق صرخة الله أكبر من حناجر المستضعفين فى مسيرة البراءة من المشركين؛ لينتبه المسلمون فى كلّ مكان ويعي كلّ منهم دوره والمسؤولية الملقاة على عاتقه، فتستعيد الأمة الاسلامية عزّتها وقدرتها اللائقة بها، حتى يؤدى الحج دوره فى التربية والتعليم والتوعية المنتظمة. وهذا اللون من الحج هو الذى ينقذ المظلومين، ويحرر المستضعفين، ويوجب دعوة المستغيثين، لا الحج الذى يؤدى بصورة مراسيم شكلية خالية من العطاء المثمر.

فالأعمال لا توزن بكثرتها، بل بكيفيتها ودوافعها، والمؤمن الواعى لا يهدر قواه وإمكاناته فى أداء حركات لا تؤدى الى دحر الشيطان الحقيقى على أرض الواقع، ولا- تؤدى الى بعث الأمل فى النفوس والى تحقيق الهدف المنشود. وما أدى بهذه الأمة الى الانهيار والسقوط والذوبان، إلّا بأداء الحج وباقي العبادات بالشكل الخالى من محتواها.

فبركات الحج ومعطياته ومنافعه كما يقول الإمام الخامنئى: «وإن كانت

ص: ١٢٢

تستوعب كل جوانب الحياة البشرية، ويعم مطر رحمتها جميع المجالات ابتداءً من خلوة القلب والفكر، ومروراً بساحات السياسة والاجتماع وعزة المسلمين وتعاون الشعوب المسلمة، فتثريها وتحييها وتبث فيها نشاط الحياة.. ولكن قد يمكن القول: إن مفتاح كل هذا هو «المعرفة»، وأولى هدايا الحج - لمن أراد أن يبصر الحقيقة ويستثمر ما ألهمه الله من قدرة على فهم «الظواهر» - هي المعرفة المتكاملة، التي ينفرد بها الحج، ولا يحصل عليها المسلمون عادة إلا من هذه الفريضة، ولا تستطيع أية ظاهرة دينية أخرى أن تقدم للأمة الإسلامية تلك المنظومة الكاملة من المعارف كما يقدمها الحج، ومن هذه المنظومة المتكاملة من المعارف:

معرفة الذات على الصعيد الفردي، ومعرفة الذات على صعيد الانتماء للأمة الإسلامية العظمى، ومعرفة النموذج الموجود في الحج من تلك الأمة الواحدة، ومعرفة عظمة الله ورحمته، ومعرفة العدو...».

هذه البركات والمعطيات المستخلصة من القرآن الكريم والسنة الشريفة بينها الامام الخامنئي في رسائله السنوية الى ضيوف الرحمن، ودأب عليها الكثير من الواعين المخلصين لهذا الدين والشرفاء بقدر العطاء والتضحية، خاصة ممن تخرجوا من مدرسة الامام الخميني الكبير رضى الله عنه؛ لتحقيق المشروع الحضاري الكبير وتمهيداً لتأسيس الدولة الإسلامية العالمية.

وخلاصة البيان، هل انتهى الحج بانتهاء أعماله..؟ ذلك ما بينه أحد تلامذة الامام الراحل رضى الله عنه السيد محمد حسين فضل الله بقوله: «وها أنت قد انتهيت من الحج الى ساحة العمل لتطلق في الحياة كلها بكل أصنامها ومواقفها ومشاكلها وشياطينها ووسائلها وغاياتها..».

إنه لم ينته - الحج - بل بدأ الآن ليكون الحج.. الى الحياة الإسلامية التي تنتظر أكثر من حج الى الساحات الملتهبة في الواقع الاسلامي من كل أنحاء العالم...

ليكون الدين كله لله.. وتكون الحياة في خدمة الله...

ص: ١٢٣

وبكلمة واحدة؛ إنّ إعلان البراءة من المشركين في الحرم الآمن أطلقها الامام القائد العظيم رضى الله عنه؛ لتمثل المرحلة الأولى للنضال...».

الهوامش:

الامام الخميني قدس سره في ديوان الشاعر جواد جميل

ص: ١٢٥

الإمام الخميني قدس سره في ديوان الشاعر جواد جميل

العظيم الأخضر

كيف لي أن أكتب الشعر،

وكلّ الكلمات احترقت فوق يدي؟

ودمي،

يشربه الحزن الذي لَوْنُ أمسي وغدي

وتمنّت كلّ أوتاري بأن تبكي عليك،

وتمنّى القلبُ

أن يفنى بشلال يديك

فخذِ الدمعَ الذي يقطرُ،

من جمرة قلبي، وشظايا كبدي

أنت تدري...

أنني كنتُ أرى فيك قرانا،

ص: ١٢٦

وسواقينا، وباب المسجد

وأرى فيك ضحايا بلدى

وأمانينا،

وما تحكيه أنأت القصب

أى شىء حملته الريح من صوتك،

غير الوتر الدامى وصيحات الغضب؟

أى شىء حملته الشمس،

من أحداق عينيك،

سوى لون اللهب؟

آه ياعينيك،

يا نافذتى نور على هذا الزمان الموصد

حملت همس النبئين،

وشيئاً أبدى

أى شىء حمل التاريخ من وجهك،

غير الألم الخافى،

وأسرار التعب؟

يوم كان الخدر الثلجى،

يمتص حكايانا بثغر من ذهب

كنت تلقى خوفنا،

فوق رماد الموقد المطفأ،

جرحاً، وخشب!

يوم كنا نتباهى بدخان الموقد،

رحت كالإعصار،

ص: ١٢٧

تنينا بأفاقِ حبالى بالسحاب الأسودِ
 يوم كانت شفرةُ السيف أمه
 كنت تبكى،
 ليالينا العجافِ المظلمه
 لم تكن «عيسى»،
 فكيف اجتزت حدّ الكلمة؟!
 لست «إبراهيم»،
 كيف انفجرت رؤياك خنجر؟!
 لست «موسى»،
 كيف صيرت لأتباعك ملح البحر سكر؟!
 أيها الخالد،
 مازلت على الروح مسمر
 يكبر النجم على النجم، وقنديلك أكبر
 وحكاياتك أكبر
 وستبقى رغم زيف الزمن اليابس،
 وهاجاً، وأخضر!
 ما رأينا غيمه، إلّاوقالت سأغادر
 ما سألنا نجمةً، إلّاولمت خطوها،
 خلف خطى النجم المسافر
 ما احتضنا حلماً، إلّاوأبكانا،
 فما لليل آخر
 يا إلهى، مالذى يحمله النجم المسافر؟

ص: ١٢٨

غیر جرح مسّه الله،
 وأهداهُ إلى مليونِ نائز!
 موت بلون الولادة
 لحكاياک وجوه کوجوه الأنبياء
 ولعينیک عنادٌ قادمٌ من كربلاء
 لم تكن خارج هذا الکون،
 أو شيئاً خرافياً،
 ولكن كنت ما يشبه أسرار السماء
 كنت شيئاً فيه لونُ الجرح،
 طعمُ القمح،
 دفءُ السفح، بدءُ العاصفة
 عمرٌ ما كسرتُه اللحظاتُ الخائفة
 ويدٌ ما بحثت في قافلات الجوع،
 عن خبزٍ... وماء
 إنها تبحث عن سيفٍ، لوته الكبرياءُ
 لم تكن شيئاً خرافياً،
 ولكن ما انحنى ظلكُ
 خلفَ الأمنياتِ الزائفة
 أيّها الموتُ كفى،
 فالنخلُ الفرعاء، ماتت واقفة!
 ولهذا سافرتُ خلفك كلُّ الكلمات

ص: ١٢٩

وأنا، يقتلنى الصمْتُ،
وتحيينى مرايا الذكريات
كلّما حاولتُ أن أكتبَ شعراً،
يُغرق الدمعُ،
حروفي المتعباتُ
كلّما حاولتُ أن أنشدَ لحناً،
خشع اللحنُ.. ومات
ولماذا لم أقل قد خضتَ فى الجمر،
وقد خفنا رمادة؟
وتلوّيتَ على السكين،
كى تمنح للآتين وجهاً... وإرادة
وشربتَ الملح،
صيرتَ لنا الجرح،
قلادة
ولهذا، أنا لا أكتبُ مرثيةً موتى،
إنّما أكتبُ عن موتٍ،
له لون الولادة!

ص: ١٣٠

البعد السياسي للحج في منظار الإمام الخميني

البعد السياسي للحج في الرؤية الخمينية

البعد السياسي للحج في الرؤية الخمينية

جلال الأنصاري

احتدم الجدل طويلاً، بين المدارس السوسولوجية، حول تفسير حركة التاريخ الاجتماعي، وقد أدلى علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ دلوهم في هذه المعركة الفكرية التي تمحورت، في النهاية، على نقطة محددة هي؛ دور البطل في صناعة الأحداث. فهناك من يرى أن الظواهر السياسية ليست نتاجاً مباشراً لدوافع فردية سيطرت على «الأبطال» و«القادة»، بقدر ما تقسرها أسبابها الاجتماعية، التي هي «العلل الحقيقية» الكامنة وراء أحداث ووقائع التاريخ..

في حين يؤكد البعض الآخر على أهمية دور البطل، خاصة حينما تتحقق السلطة في «الزعيم الروحي» أو تتجسد «القوة» في الرائد السياسي، أو تكمن في كيان المحارب البطل. فالقائد الكارزمي «Charismatic Leader» عند «ماكس فيبر» هو مبعوث العناية الالهية، ويحقق الخيرات لشعبه ومجتمعه.

وبعيداً عن الخوض في اشكاليته؛ من هو محرّك التاريخ؟... أهو البطل أم أن

ص: ١٣١

البطل ما هو إلّا «الفرصة الاجتماعية المواتية»؟ فإن من الواضح والمتفق عليه لدى المدارس - على تباين مشاربها - هو أن البطل يعبر عن روح العصر، كمرآة تنعكس عليها ملامح الحياة ومواقفها الكلية، وبعبارة أدق؛ إن البطل يمثل شعور المجتمع ووجدانه. وفي تاريخنا المعاصر؛ تتألق التجربة الخمينية نموذجاً، وبمقدورنا أن نتوغل في آفاق التجربة وبطلها، وفي حالة الامام الخميني سوف لا يكون لكتاب السير الكلمة النهائية وعندما نريد أن نتوقف على حقيقة هذا الانجاز الذي قام به الامام الخميني رضى الله عنه ليس بإمكان أحد، أن يفهم الأبعاد العميقة لهذا الدور، ما لم يرصده ضمن ظروفه الموضوعية؛ بمناخاته السياسية، وخلفياته الفكرية، ومخاضاته الاجتماعية. ومتى ما توفر المرء على ذلك، تكون الصورة قد وُضعت في إطارها الصحيح، وبإمكان المشاهد رؤيتها من جميع أبعادها المختلفة.

ومن هنا تأتي ضرورة الإشارة - ولو سريعاً - إلى أهم معالم الفلسفة السياسية للإمام الراحل، ضمن قراءة شاملة لملامح مشروعه النهضوي، الذي انبرى له، وظل وفياً له، رغم كل المصاعب والتحديات والإحزن.

ثلاثة روافد للفلسفة السياسية

وفي الحديث عن الفلسفة السياسية في فكر الامام الخميني قدس سره تلتقى ثلاثة روافد مهمة، لابد للباحث من أخذها بعين الاعتبار إذا ما أراد أن يستتم صورة متكاملة ومتجانسة عن منهج الامام الخميني في الشأن السياسي التغييري، فالامام كانت تستجذب شخصيته ثلاثة عوامل استطاع الامام رضى الله عنه أن يجمعها في شخصيته وفكره ووجوده، وبالتالي في تجربته السياسية المنجزة، وهذه الروافد أو العوامل هي:

١- العرفان.

٢- الفلسفة.

٣- السياسة.

وعلى هذا الأساس تمكن الامام من أن يتوفّر على رؤية عرفانية روحية، وعلى رؤية فلسفية عقلية، وعلى رؤية سياسية تغييرية؛ وهذه الأبعاد الثلاثة

ص: ١٣٢

التي توفرت عليها شخصية الامام الراحل تتجلى في المجال العرفاني الذي انطوت عليه شخصية الامام الراحل، والذي برز في طريقة تفكيره ونظراته لمختلف قضايا الحياة. وفي المجال الفلسفي الذي أظهر الامام براعة ودقة في التعامل معه والتعرف على دقائق مباحثه العقلية والنظرية، وفي المجال السياسي الحركي الذي أفصح الامام عن قدره خاصة على الخوض فيه واستيعاب متطلبات التحرك في أجوائه.

وبالقدر الذي تلاحمت فيه هذه الأبعاد الثلاثة والتصقت بشخصية الامام الراحل رحمه الله، فإن من العسير، إن لم يكن من المستحيل، التعرف على شخصية الامام الخميني ووعي منهجه في التغيير الاجتماعي والديني الذي تمثله في فلسفته السياسية العملية، من دون الإحاطة بهذه الأبعاد الثلاثة من شخصيته؛ ومن هنا نرى - كما يقول باحث جاد - أن خطأ يمكن أن يتعرض له أي باحث يستهدف دراسة فكر وتجربة الامام الخميني في المجال السياسي بعيداً عن التعرف التام وبشكل مسبق على رؤيته العرفانية ورؤيته الفلسفية. ومهما يكن من أمر، فإن المجال السياسي، الذي تحرك الامام الخميني في أجوائه، لم يكن ينطلق فيه بلا استناد الى رؤية واضحة لمتطلبات التغيير الاجتماعي، بل على العكس من ذلك، فإن الممارسة السياسية التي تمثلها الامام الراحل تفصح، بما لا يقبل الشك، عن أسس متينة، ومبادئ انسانية وإسلامية شاملة ومستوعبة، كانت تنطلق منها هذه الممارسة، بمختلف صورها ومراحلها. وتأسيساً على ذلك؛ قد يكون الحديث عن الخط الفكري السياسي للامام الخميني، بصورة شاملة، متعسراً أو متعذراً، في مقال محدود؛ لأن المجالات التي تحدث عنها، أو خاض فيها، أو حارب من أجلها ليست محصورة في حدود معينة، أو دوائر ضيقة، بل كانت تتسع للعالم كله، في دائرة الاسلام كله، لأنه كان ينطلق في عمق فلسفته العرفانية إلى الله في أوسع

ص: ١٣٣

الآفاق، حتى كان يتجاوز الشكليات التقليدية فى حركة هذا الخط، وكان يتحرك فى وعيه الاسلامى للمسألة الانسانية فى واقع الاستضعاف والاستكبار، فيما هى آلام المستضعفين فى حركة امتيازات المستكبرين، فكان يتألم للانسان أياً كان انتماءه، ويفكر أن الآلام الانسانية لا تمثل فى إحياءاتها الشعورى مجرد مشاعر حزينة، أو أصوات صارخة، بل لابد لها من أن تتمثل فى حركة فاعلة من أجل إزالة هذه الآلام، وكان يرى أن مسألة الاسلام فى وعى المؤمنين به، على مستوى القيادة أو القاعدة، هى مسألة الدعوة المتحركة فى كل صعيد؛ لتملأ فراغ الفكر الانسانى بالفكر الإسلامى، وتشحن روحية العاطفة الانسانية بالعمق الروحى للعاطفة فى الاسلام، وتحرك الواقع الانسانى بالتشريعات الحركية للانسان فى الحياة، مما يجعل مسألة الدعوة تنفتح على السياسة كما تنفتح على الفكر، كما يدفع مسألة المعانى الروحىة نحو القيم الانسانية فى الحياة.

وهذه هى الميزة البارزة فى شخصيته، التى استطاعت أن تجعل ملامحها الداخلية والخارجية وحدة فى الفكر والسلوك، على أساس وحدة الخط الاسلامى، الذى لا يتعد فيه العرفان عن الشريعة، بل ينفذ إليها ليزيدها عمقاً فى الحركة، ولا تتجمد الشريعة لديه فى نطاق فردى، بل تنطلق لتشمل الحياة كلها بأبعادها العامة والخاصة فى جميع المجالات.

وفى ضوء ذلك؛ لم يكن العرفان لديه استغراقاً فى الله بحيث ينسى الحياة التى تضج حوله بكل آلام المستضعفين ومشاكلهم، وينعزل عن ذلك كله... كما يفعله الكثيرون من العرفانيين الذين استغرقوا فى الجانب الفلسفى للعرفان فعاشوا فى خيالاته التى تصوروها حقائق، وابتعدوا عن واقعهم.. فتحولوا الى كائنات إنسانية قد تستوحى منها بعض القداسات الروحىة، لكنك لن تستوحى منها حركة الحياة فى روحية المسؤولية الحركية.

شمولية النظرة العامة

لقد استطاع أن يدمج شخصية العارف بشخصية الفقيه، ثم انطلق من

ص: ١٣٤

ذلك ليندفع - من خلال هذه الشخصية الجديدة - الى الله، في خط المعرفة والحركة معاً، ليعيش في حياته في شخصية الداعية الى الله والمجاهد في سبيله.

ومن هذا الموقع كان انفتاحه على الأمة كلها، وعلى المستضعفين.. وهكذا رأينا كيف كانت حياته كلها خاضعة لعناوين ثلاثة تلخص كل العناوين الصغيرة في حركته.

وهي: «الله»، و «الاسلام»، و «الأمة في دائرة الاستضعاف» ليقابلها «الشيطان» بأحجائه الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، في عالم الغيب، وفي عالم الحس والكفر بكل معانيه «الفكرية والعملية»، وبكل إفرازاته الواقعية في دائرة الضلال والانحراف والظلم، والطاغوت» بكل رموزه الشخصية والاجتماعية والسياسية، على مستوى الفرد والجماعة والدولة.

وهذا هو سر شمولية النظرة العامة للحياة عنده، وشجاعته الموقف في حياته، وصلابة التمرّد في مواقفه، وصفاء الشعور في إحساسه، وامتداد الأهداف في كل خطواته، وانفتاح الثورة في مواجهته للواقع على مستوى العالم كله.

ف «الله» هو رب العالمين، و «الشيطان» هو العدو الأساسي للانسان كله.. و «الاسلام» هو رسالة الله الى الناس كافة، و «الكفر» هو خط الشيطان الذي يريد أن ينحرف بالحياة كلها، وبالانسان كله عن «الله». و «الأمة» تمثل العنوان الذي يشمل المسلمين جميعاً، كما أن ارتباط قضاياها بقضايا المستضعفين كلهم جعلها تنفتح على كل قضاياهم في العالم كله.. والطاغوت الفردى والجماعى والدولى يمثل كل مواقع الطغيان الفكرى والعملى فى واقع الانسانية كله.

وهذا هو الذى يجعلنا نلاحظ تكرار هذه الكلمات فى كل كلماته، بحيث لا تغيب عن لسانه فى كل مناسبة من مناسبات الصراع. من الواضح أن الامام الخمينى تحرّك ضمن مشروع سياسى نهضوى واسع الأبعاد، ومتعدد الجبهات والجهات، ولقد كان الامام معيّناً بهموم ومشاكل

ص: ١٣٥

وأزمات الوضع الاسلامي العام بالمستوى الذي كان معيّنًا بالوضع السياسي لبلده الأم دون أن يغفل هموم المستضعفين في إطارها الانساني الواسع.

الحديث غير المؤلف

قد يحلو للبعض الحديث عن الامام الخميني والمشروع الحضاري الاسلامي وكأنه حديث كما المؤلف في الأنماط المشابهة عن منظر ونظريته، أو منظر ونظريته، مما يقتضى - بالتالى - طرح موضوع بات من قبيل لوازم الفكر السياسي المستهلك، وتداعيات العلاقة بين الفكر والواقع، وهو موضوع: النظرية والتطبيق.

فمن التعسف اعتبار الامام «منظراً» بالمعنى الرائج للمصطلح، «فالنظرية» فعل إنساني و «التنظير» من شأن البشر. أما في الإلهي فثمة أحكام وشرائع وأوامر ونواهي وسنن لا مجال للشك في صحتها ومصداقيتها وخيرها لمصلحة المستخلف البشرى على الأرض. وأهم من ذلك كله أن الإخلال بها والنكوص عنها مستوجب لآباء ومسؤوليات وعقوبات موصوفة في الدنيا والآخرة. وفي هذا السياق؛ لم يعرف التاريخ الاسلامي، بعد الأئمة، قائداً ومفجراً لثوره، تحققت أم لم تتحقق، برؤية ثاقبة مهدية وهادية بالمستوى الذي تجلت فيه رؤية الامام الخميني. وليس هذا الحكم إسقاطاً عاطفياً، ولا صادراً عن حالة ولاء شخصية، كما يقول د. سمير سليمان. ففكر الامام وسيرة جهاده الطويل، ومسيرته العملية والسياسية والشخصية، هي بذاتها تحد كبير للباحثين الموضوعيين، فليسبروا أغوار هذا الرجل التاريخي، ولو كانوا في موقع الخصم الايدولوجي.

وإذا كان إيمان الامام بمصداقية وعقيدة المشروع الذي استنقذه، وبحتمية تحقيق أهدافه، وصوابية الدعوة إليه، جزءاً لا يتجزأ من إيمانه المطلق بمصدر المشروع ومبدئه وأصله، وبقينه بخيريته المطلقة، فإن ذلك الايمان صادر - أيضاً - عن إيمان بأهل هذا المشروع وعشيرته وقابليات الأمة التي تحتضنه، بما هي مجتمع انساني متحرك متحد فكراً

ص: ١٣٦

وعقيدة ومذهباً وطريقاً، لا على مستوى الفكر فحسب، بل على المستوى العملي أيضاً. فأفراد الأمة الواحدة- من أى لون أو دم أو أرض أو عرق كانوا- يفكرون بطريقة واحدة، ولهم إيمان مشترك واحد، ويتحركون باتجاه مثل أعلى واحد يكملون فيه ويتكاملون، ويخضعون لقيادة سياسية واجتماعية واحدة. والأمة بهذا المعنى هي الأمة الإسلامية. والملفت أن الإمام قلما استخدم هذا المصطلح في كتاباته وخطبه ومحاضراته، غير أنه استخدم- بكثافة ملحوظة- مصطلحات متعددة مثل: الناس، المسلمون، المستضعفون، المظلومون، المحرومون، الجماهير، أهل السوق والشارع والعامل والفلاح والطالب والجميع... الخ، وذلك بذات دلالات مصطلح «الأمة» الذي اعتبره السيد محمد باقر الصدر مرادفاً لمصطلح «المجتمع». إلّا أن الإمام في استخدامه بعض هذه المصطلحات كان يتجاوز- غالباً- الدلالات التي يحتملها مصطلح الأمة الإسلامية/ المجتمع الإسلامي بما هو مصطلح مخصوص بالمسلمين؛ ليضيف إليها بعداً أشمل ودلالة أعم، لتضم الانسانية بأجمعها، خاصة في مصطلحات مثل:

«المستضعفون»، «المظلومون»، «المحرومون»، «الناس»، وذلك وفاق ما يقتضيه الموضوع ومقدماته في الشأن الذي يخوض فيه. حيال هذا التعدد المصطلحي، في نصوص الإمام، لا يلمس الباحث أى تعثر أو تداخل أو غموض في المفاهيم يمكن للتعدد أن يقود إليها، كما هي الحال عند كثير من المفكرين المرموقين.

فحركة فكر الإمام تبقى على الدوام منضبطة في سياق ثوابت المشروع الإسلامي الذي يضطلع بحمله، ومنبثقة من نظريته الكونية التوحيدية، بما هو هاد إلى أهداف دينامية متعددة تلتقي في هدف واحد كلي، وبما هو محدد لمنهج تحقيقها، فالهدف الكلي هو إقامة حكم الله في الأرض، بنموذجه الحضاري الالهي ولوازمه وأحكامه العادلة، باعتبارها بسطاً للعدالة الالهية بين الناس، واجلاً للنظام الالهي في

ص: ١٣٧

العالم، «فقد جاء الاسلام ليوحد شعوب العالم تحت اسم الأمة الاسلامية» بتعبير الامام.
الحج؛ منظومة فقهية

ولما كان الاسلام منهج حياة، فإنه يتسم بالشمولية والتكامل وتلبية حاجات البشرية في كل زمان ومكان.
إن للإسلام قواعد ومباني بيتني عليها، ويتكئ عليها، وينهدم دونها، ولا يبقى له بدونها إلا الاسم العارى من المسمى.
ومن تلك المباني الحج، حيث يقول الامام الباقر عليه السلام: «بنى الاسلام على خمس: الصلاة والصوم والزكاة والحج والولاية»، فمن ترك الحج متمداً فقد هدم ركناً من أركان دينه الإلهي فينهدم معه الاسلام الكامل؛ ولذا قال تعالى فيمن تركه عمداً... ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين، حيث عبر عن تركه العمدي بالكفر، فتارك الحج عمداً كافر عملاً، وإن لم يكن كافراً إيماناً واعتقاداً. وحيث إن الحج من مباني الاسلام. فجميع ما ورد في شأنه لابد وأن يتبلور في الحج ويكون الحج مُمثلاً إياه ومجلئ لظهوره.
ويندرج الحج ضمن سلسلة اجتماعات المسلمين، بحيث يأتي تنويعاً لها، وأهمها لجهة الشمول والاتساع.
أما أول هذه الاجتماعات فهو «على مستوى أهل الحى الواحد من البلد، يتكرر في اليوم خمس مرات، وقد شرع الله صلاة الجماعة، أما ثانيهما؛ فاجتماع على مستوى أهل البلدة الواحدة، يتوالى مع كل اسبوع، وقد شرع له صلاة الجمعة، وأما ثالثهما؛ فاجتماع على مستوى العالم الاسلامى أجمع.. حيث يتلاقى المسلمون من شتى بقاع الأرض، ليتعارفوا، ويتبادلوا الآراء والخبرات، ويغلبوا وحدتهم على ما يغالبها من انتماءات تاريخية واجتماعية وثقافية مختلفة.
وهكذا نجد أن الحج - كفريضة - يحتل موقعاً أساسياً في بناء حركة المجتمع التوحيدي، إذ تعتبر هذه الفريضة أحد أركان الاسلام، فالجماعة المسلمة تتعامل مع الحج باعتباره فريضة على كل مسلم ومسلمة الى يوم الدين، مهما تغيرت الظروف وتقلبت

ص: ١٣٨

الأحوال: ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين.

ويتواصل الحج مع منظومة عبادات لدى المسلمين، تبدأ بالصلاة والصوم، وتتوج بالحج. إلّا أنّ هذه العبادات المختلفة، رغم ما يجمعها من خصائص مشتركة، يبقى لكل منها خاصية وفرايدية.. لذا فالحج، كظاهرة يمكننا القول: إنها فى الوقت الذى تندرج فيه ضمن نظام أعم من العبادات تحمل منطقها وقواعدها ووظائفها المميزة.

إنّ القيام بالحج ليس أمراً عفويّاً يقوم به المسلم كيفما اتفق، انطلاقاً من قناعاته الفردية أو تأثراً بالمناخ الحقوقى والقانونى الذى ينظم العلاقات الاجتماعية المختلفة فى البلد الذى يعيش فيه، ولا انطلاقاً من العرف الذى يحكم القبيلة أو الطائفة التى ينتمى إليها. فالحج تحكمه منظومة فقهية تفصيلية، يتعامل معها المسلمون على أنها شروط إلهية ورسالية، لا يحق للفرد أو الجماعة أو الأمة، فى أية مرحلة من مراحل التاريخ وفى أية بقعة من بقاع الأرض، أن يجرؤا أى تعديل عليها، مهما كان الموقع الذى يتبوّنه فى السلطة وفى الحياة العامة.

البعد السياسى للحج

تنطوى شعائر الحج على الكثير من المضامين العبادية والدلالات السياسية، فى آن معاً، وقد كانت القبائل عندما تؤم مكة فى موسم الحج، تحمل كل منها أعلامها المميزة وأصنامها، ومؤكدة بذلك على تمايزها القبلى أو على ترتبتها وعلو شأنها بين القبائل الأخرى. ولكن الحج، بعد الدعوة، أرسى مؤسسة جديدة تتعارض بل تلغى كافة هذه الممارسات والشعائر، خالقة حالة توحيدية خالصة، تؤمن للمسلمين إحدى الدعائم التى تجعلهم قادرين على مقاومة الانشادات المختلفة؛ من قومية وقبلية وما الى ذلك.... وعليه، فالحج كما يتضح من الكتاب والسنة وسيرة السلف وأقوال العلماء لا يتلخص فى كونه موسماً عبادياً (بالمفهوم المألوف عند كثيرين)، بل هو الى جانب ذلك مؤتمر سياسى عالمى وملتقى اجتماعى عام يوفر للمسلمين القادمين

ص: ١٣٩

من شتى أنحاء المعمورة فرصة التعارف، والتآلف، واللقاء بعضهم ببعض، وانتفاع بعضهم ببعض، ومداولة أمورهم وحل مشاكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى جو من الأمن والقداسة والصفاء والمحبة.

لقد وصف القرآن الكريم «الحج» فى عدة مواضع بأن فيه ما ينفع الناس ويضمن مصالحهم، كما أن السنة والسير النبوية الشريفة هى الأخرى تشير إلى أن النبى صلى الله عليه وآله مارس الأعمال السياسية فى الحج، فضلاً عن الأحاديث التى تفيد بأن الحج نوع من الجهاد كقوله صلى الله عليه وآله: «نعم الجهاد الحج».

ولعل ما جاء وصح عن الرسول صلى الله عليه وآله من الأدعية والأذكار فى الحج تلك التى تتضمن معانى سياسية الى جانب معانيها التوحيدية خير شاهد على أن الحج موسم مناسب لأن يظهر فيه المسلمون موقفهم من أعداء الله والاسلام.. كالدعاء: «لا إله إلا الله وحده وحده، أنجز وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وقد أشار كثير من علماء الاسلام والمفكرين الاسلاميين الى ما ترمز إليه هذه المناسك من امور معنوية، واقتصادية، واجتماعية وسياسية. كما ورد فى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم النبى صلى الله عليه وآله عامه الذى استأمن فيه (أى قدم مكة للعمرة) قال لأصحابه: إملوا (أى اسرع فى المشى، وهز منكيه) ليرى المشركين قوتهم.

وفى البخارى ومسلم أيضاً قال ابن عباس: «إنما سعى رسول الله صلى الله عليه وآله بالبيت وبين الصفا والمروة ليرى المشركين قوته». وهذا يشير الى أنه يجوز أن يضم الحاج الى مناسكه مقاصد سياسية وأغراضاً جهادية مثل إرهاب الأعداء واستنكار أعمالهم، وشجب مؤامراتهم وفضح خططهم.. كما يوحى بذلك عمر ابن الخطاب إذ كان يقول إذا كبر واستلم الحجر: «بسم الله والله أكبر على ما هدانا، لا إله إلا الله لا شريك له، آمنت بالله وكفرت بالطاغوت».

إن التاريخ يحدثنا أن السلف الصالح لم يقتصر فى الحج على المناسك

ص: ١٤٠

والعبادة، بل استغلوا هذه المناسبة للعمل السياسي كجزء طبيعي من هذه الفريضة، لا كشىء زائد عليها أو أجنبي عنها، فهذا هو الامام الحسين بن علي سبط الرسول صلى الله عليه وآله يحتج على حاكم جائر من حكام زمانه في يوم من أيام الحج.

بل ووجد غير المسلمين فرصتهم في الحج ليعرضوا على الخليفة شكواهم فيقوم الخليفة بانصافهم في زمن الحج، لا بعدئذ، كما هو الحال في قصة ابن القيطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص (والى مصر يومئذ).. فاقترضى عمر بن الخطاب الذي اقتص من المعتدى على مرأى ومسمع من ألوف الحجيج، وقال كلمته الشهيرة: يا عمرو «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!». حول هذه الحادثة، يعقب أحد العلماء المعاصرين بقوله: «إذا كان الحج موسماً لبيان الظلمات والشكاوى من الحكام والولاة المسلمين، أفلا يكون من الأولى أن يجوز فيه الشكوى من الاستعمار وأذنايه وعملائه، واستنصار المسلمين عليهم؟ وهل يجوز أن نشكو الوالى المسلم إذ تعدى حدوده، ولا- يجوز أن نشكو المستعمر الظالم والأجنبي الغازى، وهو يرتكب كل تلك الجرائم والمجازر؟

فلسفة الحج عند الامام

إن الدلالات السياسية المختلفة التى تتضمنها ظاهرة الحج فى المجتمع الاسلامى تنطوى على سمات خاصة بهذا المجتمع، فالسياسة ليس مؤسسة قائمة بذاتها ومنفصلة عن باقى جوانب وأبعاد الحياة الفردية والجماعية. بل هى لحظة تتدرج ضمن ممارسة شمولية متعددة الجوانب، تعطى للنسق السياسى الاسلامى بعداً توحيدياً متميزاً.

وإذا ما وعينا هذه الحقيقة جيداً، نستطيع أن نفهم أهمية النداءات والتوجيهات التى أطلقها الامام الخمينى، بشأن الحج والحجيج، إنها نداءات وتوجيهات نابعة عن فهم واعٍ حركى للإسلام، أو هى بعبارة أخرى منطلقة من نظرة واعية للدور الذى يستطيع الحج أن ينهض به على ساحته

ص: ١٤١

التاريخ.

وقبل استعراض هذه النداءات والتوجيهات، لابد من الوقوف على عمق فلسفة الحج عند الامام الراحل. فالطواف حول الكعبة يرى فيه الامام الخميني رمزاً لحرمة «الطواف والسعي حول (أية مبادئ) غير مبادئ الله، وأن رجم الشيطان هو رمز لرجم كل شياطين الانس والجن في الأرض. أيها الحجاج..

احملوا من ربكم نداءً الى شعوبكم، أن لا تعبدوا غير الله وأن لا تخضعوا لغيره».

ولا يذهب الظن بالبعض أن الامام الخميني قد انتبه مؤخراً الى هذا الفهم، وتحديدًا بعد انتصار ثورته الاسلامية، بل إنه تصدى الى قضايا المسلمين منذ وعى دوره التاريخي، وقبل هذا الزمن بفترة ليست بالقصيرة. ولقد اقترنت اهتمامات الامام الراحل بموسم الحج باهتماماته الرامية الى إصلاح أوضاع المسلمين، وتغيير ما هم عليه من ركود وخنوع وذلل واستكانة. الامام أكد دوماً على ضرورة استثمار هذه الفرص التي وفّرها الاسلام للمسلمين من أجل إعادة الاسلام الى مسرح الحياة، وإعادة تكوين الأمة المسلمة الفاعلة على الساحة التاريخية.

يقول الامام قدس سره في بداية نفيه الى النجف الأشرف: «في الدول غير الاسلامية تنفق الملايين من ثروة البلاد وميزانيتها، من أجل عقد مثل هذه الاجتماعات، وإذا انعقدت فهي في الغالب صورية شكلية تفتقر الى عنصر الصفاء وحسن النية والاخاء المهيمن على الناس، في اجتماعاتهم الاسلامية، ولا تؤدي بالتالي الى النتائج المثمرة التي تؤدي إليها اجتماعاتنا الاسلامية».

وضع الاسلام حوافز ودوافع باطنية تجعل الذهاب الى الحج من أغلى أمانى الحياة، وتحمل المرء تلقائياً الى حضور الجماعة والجمعة والعيد بكل سرور وبهجة. فما علينا إلا أن نعتبر هذه الاجتماعات فرصاً ذهبية لخدمة المبدأ والعقيدة؛ لنبين فيها العقائد والأحكام والأنظمة على رؤوس الأشهاد وفي أكبر عدد من الناس.

علينا أن نستثمر موسم الحج، ونجني منه أطيّب الثمار في الدعوة الى الوحدة والدعوة الى تحكيم الاسلام في الناس

ص: ١٤٢

كافه، علينا أن نبحت مشاكلنا ونستمد حلولها من الإسلام. علينا أن نسعى لتحرير فلسطين وغيرها. المسلمون الأوائل كانوا يجنون من جماعاتهم وجمعاتهم وأعيادهم ومواقف حجهم أحسن الثمار».

التأكيد على الجانب السياسي والاجتماعي

هذا هو الامام الخميني رحمه الله في كل المواقف والمنعطفات. رؤيته ثاقبة واعية لا تحيد عن الاسلام. ولهذا فهو - انطلاقاً من فهمه الواعي الصحيح للاسلام - لا ينظر الى الأحكام نظرة تجزيئية بل ينظر إليها باعتبارها كلاً واحداً لا يفصل بعضها عن بعض. الأحكام العبادية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية تقوم على قاعدة واحدة، وترتبط مع بعضها بأواصر وثيقة لتشكّل أساس كيان المسلمين وحركتهم المتسامية.

يقول الامام الراحل قدس سره: «كثير من الأحكام العبادية تصدر عن معطيات اجتماعية وسياسية، فعبادات الاسلام عادة تؤام سياساته وتدبيره الاجتماعي».

صلاة الجمعة مثلاً واجتماع الحج والجمعة تؤدي - بالإضافة الى ما لها من آثار خلقية وعاطفية - الى نتائج وآثار سياسية. استحدث الاسلام هذه الاجتماعات وندب الناس إليها، وألزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية وتعم العواطف الأخوية، والتعرف بين الناس، وتنضج الأفكار وتنمو وتتلاقح، وتُبَحِّث المشاكل السياسية والاجتماعية وحلولها».

وفي ندائه الى حجاج بيت الله الحرام عام ١٣٩٩ هـ. قال رحمه الله: «الاسلام دين عبادته سياسة، وسياسته عبادة. والآن اذ يجتمع المسلمون من شتى بقاع الأرض حول كعبة الآمال لحج بيت الله، وللقيام بالفرائض الالهية، وعقد هذا المؤتمر الاسلامي الكبير، في هذه الأيام المباركة، وفي هذه البقعة المباركة.. يتوجب على المسلمين الذين يحملون رسالة الله تعالى أن يستوعبوا المحتوى السياسي والاجتماعي للحج اضافة الى محتواه العبادي».

وفي الوقت الذي يبث فيه الامام الوعي في أوساط الأمة، مؤكداً أن

ص: ١٤٣

الحج فرصة من فرص العودة الى الذات... نراه يثير انتباه جموع الحجيج الى طريق الخلاص، وما يكتنف العالم الاسلامى من تحديات: «إنكم تعرفون أن القوى الكبرى تنهب ثرواتنا المعنوية والمادية، وتتركنا فى فقر، تحت سيطرتهم الاقتصادية والسياسية والثقافية، ولا يمكن التخلص من هذا الوضع إلا بالعودة الى شخصيتنا الاسلامية، ورفض الظلم والطغيان من أى مصدر كان، وفضح القراصنة الدوليين وعلى رأسهم أمريكا».

وبهذا الهدف الشمولى الانسانى أعاد الامام بعث المشروع الحضارى الاسلامى، فمن لوازم عقيدة التوحيد إيمان كل مسلم «بأن الدين الاسلامى سيسود العالم.. وسيمحو آثار الكفر والاستكبار عن وجه الأرض». إلا أن هذا الهدف الاستراتيجى غير متحقق إلا انطلاقاً من تحقيق هدف مركزى دينامى يتمثل فى قيام حكومة اسلامية تمهيدية، حيث يمكن للمسلمين أن يقيموها، وحيث تتوفر المناخات والظروف الآيلة إليها، فكان أول العقد فى ايران، إذ اندلعت الثورة الاسلامية فيها على يدى الامام الخمينى نفسه بعد نضوج مقدماتها التكاملية وجهاد استمر متواصلاً جاداً على مدى ما يناهز الربع قرن من الزمن. لكن هذه الثورة لم تكن إلا الخطوة الأولى فى المشروع الكبير، بما هى ثورة من أجل العالم الاسلامى، ومن أجل المستضعفين فى العالم فى الوقت نفسه.

يقول الامام: «إن هذه الثورة قد قامت بالدرجة الأولى من أجل العالم الاسلامى، وبالدرجة الثانية من أجل المحرومين والمستضعفين الذين يسعون من أجل تحريرهم.. وبهذا المعنى فإن الثورة الاسلامية الايرانية ليست فريدة ومقتصرة على نفسها، بل هى بداية ثورات تماثلها فى الهوية والميزات».

وهذا يعنى - فيما يعنى - أن ايران للاسلام وفى خدمة الاسلام، وليس العكس، أى أن ايران ليست للايرانيين، كما يحلو للبعض رفع هذا الشعار، بل إن الثورة الاسلامية قامت من أجل المحرومين والمستضعفين، فهى - حسب الرؤية الخمينية - ملاذ

ص: ١٤٤

لهؤلاء وداعم لهم، فكيف بالمسلمين الذين هم أولى من غيرهم بهذا الحق...؟!
 كان لابد للثورة النموذج من أن تنبعث من مكان جغرافي، شاء الله أن يكون إيران (بعدما نضجت فيها مقومات الانتفاض وأسبابه)،
 لكنها انطلاقة الى كل الأمكنة والى كل الشعوب بهدف وحدوى توحيدى هو:
 «تثيت واستقرار القيم الاسلامية وحدها».

ولم يفارق خطاب الامام التبليغى هذه المعادلة قط. فلحظ وحدة المشروع مرتبط عنده دائماً بلحظ وحدة العالم والانسان، والمسلمون
 والمستضعفون فى الأرض هم المكلفون، وهم المعنيون بالتحرك والسعى لإنقاذ حكم الله ونظامه، وما المشروع الالهى
 إلا لاستنهاضهم وتحريرهم من كل العبوديات، فهو الهادى المؤدى الى الحق والعدالة، والقسط وخير الانسانية وهم المهتدون، ودور
 المبلغين والقادة هو إنجاز الارتباط المعرفى بين مشروع الهداية والمهتدين العتيدين.
 مسؤولية أصحاب الكلمة فى الحج

ولتفعيل الخطى باتجاه هذا الهدف الكبير، لابد أن ينبرى الرساليون الى ممارسة دورهم الطليعى فى توعية الأمة، وبث روح العزيمة فى
 جوانحها، ويتعزز، هنا، دور أصحاب الكلمة، خاصة فى الحج، فأصحاب القلم والبيان ينبغى أن يعيشوا هموم الأمة المسلمة، وينهضوا
 بمسؤولية توعية الجماهير على مشاكلها، ودفعها على طريق عزتها وكرامتها. مسؤولية الالتزام الفكرى تفرض على الكتاب والخطباء أن
 ينزلوا من الأبراج العاجية، ويتعدوا عن الترفل لمراكز القوة، ويندمجوا بالأمة الاسلامية الكبرى.

الحج أفضل فرصة لهؤلاء، كى يتفاعلوا بالمسلمين فى كافة الأقطار، ويتفهموا ما يعانى منه المسلمون عن كذب، وينهضوا بمسؤولية
 التوعية اللازمة على أوسع نطاق.

الامام الخمينى - إذ يدعو الكتاب والمفكرين والمثقفين الى انتهاج هذا

ص: ١٤٥

الخط الجماهيرى الملتزم- لا يقصد طبعاً أن يجتمع هؤلاء فى أروقة مرمية داخل القصور المشيدة فى الأرض المقدسة، بل يطالب ذوى الكلمة أن يعيشوا بمعزل عن إحياءات مراكز القوة، وعن مراكز شراء الذمم والأقلام، فيندمجوا فى أوساط الجماهير ويبثوا بينها التوعية اللازمة، كى يكون موسم الحج مركز إشعاع فكرى ومركز توعية عامة لكل الأقطار الاسلامية. يقول:

«على العلماء (المسلمين) أن يشتركوا فى هذا التجمع من مختلف الأصقاع، ويتبادلوا الآراء ويبثوا التوعية بين المسلمين المتجمعين فى مهبط الوحى؛ لتنتقل هذه التوعية بعد ذلك الى جميع الأقطار الاسلامية».

ويقول أيضاً: «على المسلمين الملتزمين الذين يجتمعون مرة كل عام على صعيد المواقع الشريفة، ويؤدون واجباتهم الاسلامية فى هذا التجمع العام والحشد الالهى بمعزل عن الامتيازات، وبمظهر واحد، ودون اهتمام بما يميز بينهم من لون أو لغة أو بلد أو منطقة، وبأبسط المظاهر المادية وباندفاع نحو المعنوية.. عليهم أن لا يغفلوا عن الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه العبادة.

على العلماء الاعلام والخطباء أن يتبهاوا المسلمين على مسائلهم السياسية وواجباتهم الخطيرة.. هذه الواجبات التى لو عمل بها المسلمون واهتموا بها لاستعادوا عزتهم التى أرادها الله للمؤمنين، وبلغوا مفاخرهم الاسلامية الالهية التى هى من حق المسلمين، ونالوا الاستقلال الواقعى والحرية الحقيقية فى كنف الاسلام العزيز، وتحت بيرق التوحيد وراية «لا إله إلا الله»، وقطعوا أيدى المستكبرين وعملائهم فى البلدان الإسلامية، وأعادوا مجد الاسلام وعظمته».

ولا- ينفك الامام الراحل عن تذكير قادة الرأى بمسؤولياتهم الجسام إزاء أمتهم وإسلامهم: «ينبغى أن يجتمع المفكرون والكتّاب والمثقفون والعلماء والمسؤولون فى موسم الحج لدراسة مشاكل الاسلام والمسلمين السياسية والاجتماعية على الصعيد العالمى».

ص: ١٤٦

الكعبة.. هي المنطلق

من خصائص الجسم الحي الحركة، وعدم الحركة في الجسم الحي يعني شلله، ويعنى أنه أصبح عرضةً لفتك أنواع الموجودات الغريبة. والحج حركة دائبة، حركة نحو الله. أى نحو التكامل الفردى والاجتماعى، ومن مستلزمات الحركة إزالة العوائق من طريقها، وتحشيد الطاقات نحو بلوغ أهدافها.

الامام الخميني ينظر الى الحج بهذا المنظار الاسلامي الاصيل، ويعتقد أن الكعبة ينبغي أن تكون منطلق حركة الأمة نحو التخلص من سلباتها والقضاء على مذليها وظالمها، ونحو إزالة ما يقف بوجه استعادة وجودها وكيانها يقول الامام رحمه الله: «أنتم يا حجاج بيت الله الحرام الذين بادرت من كل أطراف الدنيا نحو بيت الله.. مركز التوحيد، ومهبط الوحي، ومقام إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وآله أعظم رجلين؛ محطى الأصنام ومعرضى المستكبرين.. أنتم الذين وقفت على المواقف الكريمة حيث كان في عصر الوحي أراض جبلية جرداء، وجدباء لا ماء فيها ولا زرع، لكنها كانت محط هبوط ملائكة الله، وهجوم جنود الله، وتوقف أنبياء الله، وعباد الله الصالحين.

الآن عليكم أن تعرفوا هذه المشاعر وتعبثوا أنفسكم من مركز تحطيم الأصنام الكثيرة المتجسدة في صورة القوى الشيطانية والابتزازية المعادية للإنسان، ولا تخشوا هذه القوى الخاوية من الايمان، واعقدوا في هذه المواقف العظيمة - بعد الاتكال على الله - عهد الاتفاق والاتحاد في مواجهة جنود الشرك والشيطان، واحذروا التفوق والتنازع ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربحكم.

وفي مناسبة أخرى يقول الامام رضى الله عنه:

«الآية الكريمة جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس توضّح سر الحج وبواعثه، والغاية من الكعبة والبيت الحرام، وهى نهوض المسلمين وقيامهم فى سبيل مصالح الناس والجماهير المستضعفة فى العالم».

الانضواء الكفاحي

بهذه الروح الشفافة الواعية المنفتحة على هموم الواقع وتحدياته... يمضى

ص: ١٤٧

الامام الراحل في تشخيص الخلل وإعطاء البديل. ولو تسنى لنا متابعة كل ما ذكره في خطابه وكتابه ووصاياه؛ لوجدنا أن الامام رحمه الله لا يفتأ يميظ اللثام عن اشكاليات المرحلة، ولا يتوانى عن استعمال مبضعه كالجراح في العلاج، كل ذلك في نطاق التزام صارم بالمشروع الاسلامي، والانضواء تحته، مهما كانت الظروف، ومهما بلغت التحديات، فالخميني لا يعرف شيئاً اسمه الانصياع أو حتى التراجع!

هذا الانضواء الكفاحي، على صعيد حركة التبليغ والدعوة، كما نلاحظ - يقول كاتب مرموق - يصل عند الامام الى مستوى الذوبان في المشروع الاسلامي، فلا يتنفس إلّا من خلاله، مفتحاً به على أصحاب الحق، يلاحقهم الى أقصى مكان في الأرض مرشداً وشاهداً غير مضطرب ولا متعثر. فإيمانه بهم يعدل إيمانه بشرعية مشروعهم الذي هو مشروعه في كل حال. ولا يستثنى في دعوته الى الاسلام أحداً من الأمة. وهو وإن خاطبها بكليتها أفقياً، فلم يفته التوجه أيضاً الى شتى شرائحها العمودية من أهل الشارع الى الحكام، فلا أحد في الأمة محسوب خارج نطاق الرسالة:

«انفخوا في أهل السوق والشارع، وفي العامل والفلاح والجامعي، روح الجهاد، فيهب الجميع الى الجهاد... الكل يطلب الحرية والاستقلال والسعادة والكرامة» بذلك يوصي الامام المبلغين ليوصي المبلغون غيرهم، فتنقل الحركة بالرسالة من حلقة الى حلقة، ومن يد الى يد لتبلغ الهدف النهائي.

وعلى مدى عمره الحافل بالعطاء والمواقف المشهوده... لم يتخل الإمام يوماً عن اداء مهامه الثقيلة، حتى وهو في آخر شيخوخته. ولقد حملت نداءاته المتكررة الى حجاج بيت الله الحرام الكثير من توجيهاته القيمة في هذا الاتجاه. وهنا نقف - بشكل خاص - أمام ندائه الذي وجهه لهم عام ١٤٠٠ هـ. كعينة لتلك النداءات، ولما تنطوى عليه من أفكار ورؤى وحلول.

الحج؛ منطلق الوحدة

لئن كانت الحركة مظهرًا ضروريًا في حياة الأمة المسلمة، فإن وحدة أجزاء

ص: ١٤٨

الأمّة أكثر ضرورة للحياة؛ لأنّ تفكك الأجزاء يعنى فقدان الجسد الواحد.

والأمّة الاسلاميّة ينبغي أن تكون كالجسد الواحد.. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

والوحدة أيضاً ضرورة لازمة للوقوف بوجه أنواع التحديات التي تجابه المسلمين.

أهميّة وحدة المسلمين تتجلى في تأكيد الاسلام على التجمعات الاسلاميّة في الجماعات والجمعة والأعياد، وتأكيد على تكوين الجسد الواحد والبنیان المرصوص. كما تتجلى أيضاً في المؤامرات الواسعة المدروسة، التي يدبرها أعداء الاسلام لتفريق صفوف المسلمين.

الامام الخميني يؤكد مراراً في أحاديثه على أهميّة رص صفوف الأمّة، ويحذّر الأمّة من كلّ تفرّق وتشتت، ويعتقد أنّ موسم الحج أفضل فرصة لتوثيق أواصر الوحدة والتفاهم والتعاون والتعاقد بين المسلمين، يقول:

«لماذا لا يلتزم المسلمون وحكوماتهم بالأحاديث النبويّة الكريمة التي جاء فيها:

المسلمون يد واحدة على من سواهم؟! لماذا لا يوجد بينهم إلّا الخلاف المستمر؟!»

إنّ مشكلة المسلمين تتمثل اليوم في نشوب الاختلافات بينهم، والمستعمرون وضعوا خطة بث الخلافات بين المسلمين بعد الحرب العالميّة، حين واجهوا قوة الاسلام، ففصلوا الحكومات الاسلاميّة عن بعضها، وألقوا الخلافات بين المسلمين، وجعلوا الحكومات الاسلاميّة متعادية مع بعضها.

يجب حل هذه المشكلة في يوم العيد، في يوم عرفه في بيت الله، حيث ينبغي أن يجتمع الحكام في مكّة المعظمّة تلبية لأمر الله تبارك وتعالى، ويطرحوا المشاكل التي يواجهونها، ووضع الخطط الكفيلة بالتغلب على هذه المشاكل.

إذا تمّ هذا الأمر لا تتمكن أيّة قوّة أن تتحداكم».

ويقول أيضاً:

«من واجبات المسلمين في تجمع (الحج) العظيم دعوة الشعوب والمجتمعات الاسلاميّة الى وحدة الكلمة ونبذ الخلافات بين المسلمين، وعلى

ص: ١٤٩

أصحاب القلم والبيان أن يبذلوا ما وسعهم على هذا الطريق، وفي سبيل إيجاد «جبهة المستضعفين»، ويحرروا أنفسهم بوحدة الكلمة وتحت شعار لا اله إلا الله من أسر القوى الشيطانية ومن براثن الأجانب والمستعمرين والمستغلين».

وفي جانب من النداء التاريخي يقول الامام مشيراً الى دور أميركا في بث الفرقة وزرع الفتنة: «الشيطان الأكبر (أمريكا) دعا فراخه للإلقاء بذور التفرقة بين المسلمين بكلّ الحيل والوسائل، وجزّ الأمة الإسلامية والاخوة في الايمان الى الاختلاف والعداء؛ ليفتح أمامه السبيل الى مزيد من النهب والهيمنة».

وبعد أن يضع يده على بعض أساليب الشيطان الأكبر وأتباعه في إثارة التناحر والتفرقة بين المسلمين...

يوصي المسلمين بضرورة التسليح بالوعي: «على جميع المسلمين أن يعرفوا هؤلاء المنافقين، وأن يحبطوا مؤامراتهم الخبيثة».

الوعي؛ السلاح الأمضى

تضافرت جهود ضخمة ومخططات حقود على تغييب الوعي في أوساط المسلمين. ولعل موسم الحج - بوضعه الفعلي - أفضل معبر عما يعانيه المسلمون اليوم من سطحية وضياح وركود وتشتت، لا أثر للمنافع التي ذكرها الله تعالى في الآية الكريمة... ليشهدوا منافع لهم. ليس هناك أي منافع على صعيد التوعية، ولا على الصعيد السياسي، ولا على الصعيد الاقتصادي... اللهم إلّاما يجنيه معسكر الكفر من أرباح اقتصادية في هذا الموسم، من خلال تدفق بضائعه الكاسدة على أسواق مكة والمدينة وجدة.

أكثر حجاج بيت الله الحرام تضيع أوقاتهم في موسم الحج بين أداء جامد غير واعٍ للمناسك، وبين تجوّل في الأسواق، وتهافت على شراء البضائع الأجنبية، وبين جلسات سمر واسترخاء، بأشكال متعددة، هذا هو الذي يعبر عنه الامام الخميني بالغفلة إذ يقول:

«لا يمكن للمسلمين أن يحيوا حياة مشرفة إلّا بالاسلام، لقد أضاعوا إسلامهم، لقد عدنا نجهل الاسلام، بسبب

ص: ١٥٠

إيحاءات الغرب وتشويهاته، ولذلك فإن المسلمين يجتمعون كل عام في مكة المكرمة حيث جعلها الله ملتقى للمسلمين، لكنهم لا يدرون ماذا يفعلون، لا يستفيدون من هذا الاجتماع إسلامياً، ومثل هذا المركز السياسي جعلوه مركز غفلة عن كل مسائل المسلمين. ولو استثمر المسلمون عطاء الحج السياسي؛ لكان ذلك كفيلاً بتحقيق استقلالهم، لكننا أضعنا الاسلام مع الأسف، لقد أبعدوا الاسلام عن السياسة، فقطعوا رأسه وسلموا لنا بقيته وجزّونا الى الوضع الذي نعيشه اليوم، وما زال المسلمون على هذه الحالة فلن يستعيدوا مجدهم».

وعلى هذا المنوال، يستعرض الامام مظاهر الهجوم الشرس من قبل أعداء الاسلام على العالم الاسلامي، من قبيل ما كان يجري، يومئذ في أفغانستان، حيث الاجتياح السوفيتي، وما تشنه الدولة العبرية من هجوم واسع النطاق على المسلمين في فلسطين العريضة ولبنان العريضة... ومع إعلان إسرائيل عن مشروعها الاجرامي بشأن نقل عاصمتها الى القدس... وما يقدمه عملاء أمريكا من خدمات كبيرة لتنفيذ مخططاتها الإجرامية، مع ما يتزامن مع ذلك كله من حصار وتآمر ونشر دعايات سوء وأكاذيب وافتراءات ضد الثورة الاسلامية. وهنا يقول الامام رضى الله عنه: «على المسلمين أن يكونوا يقظين أمام خيانات هؤلاء العملاء الأمريكيين بالاسلام والمسلمين». ومتى ما توفر الوعي واليقظة فإنّ قدرًا مهمًا من تفويت الفرصة على أعداء الاسلام، يكون قد تحقق على أرض الواقع، وبخلاف ذلك، فإنّ المخطط المناوئ للاسلام يشق طريقه دون أية عوائق تذكر، وهذا ما يدلنا على سر العداء الشديد الذي تكّنه الدوائر الاستكبارية للحركات الاسلامية، والتي دأبت على وصفها بالحركات الاصولية أو الراديكالية أو الإرهابية... القومية: البديل الخائب

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد عمدت الدوائر المعادية للاسلام الى فتح جبهات عديدة ضد الاسلام

ص: ١٥١

وحرسته المتصاعدة. وقد تبه الامام الخميني الراحل الى خطوره هذه الأساليب ومغتي الانسياق وراءها، إذ يقول: «من المسائل التي خطط لها المستعمرون، وعمل على تنفيذها المأجورون لإثارة الخلافات بين المسلمين... المسألة القومية، التي جندت حكومة العراق نفسها منذ سنين لترويجها.

بعض الفئات انتهجت هذا (الخط القومي) أيضاً، فجعلت المسلمين مقابل بعضهم، بل وجرتهم الى المعاداة أيضاً غافلة أن موضوع حب الوطن وأهل الوطن وصيانة حدوده وثغوره لا يقبل الشك والترديد، وهو غير مسألة النعرات القومية لمعاداة الشعوب الاسلامية الأخرى.

فهذه المسألة عارضها الاسلام والقرآن الكريم والنبى الأعظم. النعرات القومية التي تثير العداء بين المسلمين والشقاق بين صفوف المؤمنين تعارض الاسلام، وتهدد مصالح المسلمين، وهي من مكائد الأجانب الذين يزعمهم الاسلام وانتشاره. إن قوى الكيد الاستعماري وجهت ضربات قويّة الى كلّ مظاهر الاسلام ومعالمه وركائزه، كما أن الحركات القومية في العالم الاسلامي، وجهت بدورها ضربات مهلكة الى كيان القوى المجاهدة، التي كانت تخوض صداماً مريراً ضد أعداء الاسلام. وان ظهور فكرة «القومية العربية» في العالم العربي، وفكرة «القومية التركية» في تركيا، وفكرة «القومية الفارسية» في إيران، وفكرة القوميات المشابهة في سائر الدول الاسلامية جاء بهدف التصدي للحركات الاسلامية، حيث لعبت تلك الأفكار دوراً كبيراً في ضمان مصالح الاستعمار.

وعلى الصعيد الثقافي، كانت الأنظمة العميلة تسعى دائماً لإحلال الثقافة الغربية محل الثقافة الاسلامية بذريعة إحياء الثقافة الفولكلورية والقومية. وإنّ المساعي الكبيرة التي بذلها نظام الشاه، ورؤوس الأموال التي قام بتوظيفها، في مجال احياء التقاليد القديمة مثل؛ التقاليد (الزرادشتية، والمانوية وغيرها) بمساعدة ما يسمى بمتخصصي الشؤون الايرانية من الاوروبيين والأمريكيين، واستبدال

ص: ١٥٢

التاريخ الاسلامي بتاريخ ملكي.. جاءت كلها للغرض المذكور.

وقد أدان الامام الراحل، مَرَات عديدة، النعرات القومية، سواء تلك التي في ايران أو في العالم الاسلامي، مؤكداً أنها من دسائس المستعمرين، وها هو يقول: «إن القوى الكبرى درست خلال سنوات طويلة كل أوضاع المسلمين.. أجرت مطالعات على الأفراد والجماعات وعلى أراضينا وغاباتنا، وخرجت بنتيجة هي: أن الاسلام وحده هو الذي يستطيع أن يقف بوجههم في جميع المجتمعات.. وراحت هذه القوى تخطط لمجابهة الاسلام عن طريق الحكومات الفاسدة، وأوعزت الى هذه الحكومات أن تثير مسائل العصبية العنصرية بين المسلمين، فجعلت العرب مقابل الفرس والأتراك، وجعلت الفرس مقابل الأتراك والعرب، وجعلت الأتراك مقابل الآخرين.. وهكذا أوقعت بين القوميات المختلفة.

ولقد أكدّت مراراً أن هذه النعرات القومية هي أساس مصيبة المسلمين، إذ إن هذه النعرات تجعل الشعب الإيراني مقابل سائر الشعوب المسلمة، وتجعل الشعب العراقي مقابل بقية المسلمين، وهذه المخططات طرحها المستكبرون للتفريق بين المسلمين».

وراح الامام يضرب أمثلة حيّة من واقعنا المعاصر، إذ يقول: «الحكومة السابقة في العراق - وهذه الموجودة - ليست بأفضل من سابقتها طبعاً - طرحت مسألة إحياء أمجاد بني أمية؛ ليجعلوا منها مسألة مقابل المسألة الاسلامية.

فالاسلام جاء ليذيب الأمجاد في مجد الله، ولكن هؤلاء رفعوا شعار إحياء أمجاد بني أمية، وليس طرح هذه المسألة من تدبير تلك الحكومة، بل من تدبير القوى الكبرى التي تروم التفريق بين المسلمين...

وفي ايران، قرع بعض المغرضين والغافلين على طبل القومية، وأرادوا بذلك أن يواجهوا الاسلام... وقبل سنين - وأظن في زمن رضا خان - تأسس في ايران مجمع أعدّ الأفلام والقصائد والمقالات التي تندب الأمجاد الإيرانية (...) وتأسف على انتصار العرب على ايران، وتذرف دموع التماسيح على

ص: ١٥٣

ضياح طاق كسرى...

وهؤلاء القوميون الخبثاء بكوا كثيراً على اندحار السلاطين الفرس على يد الاسلام! ومثل هذه الروح المعارضة للقرآن أوجدها المستعمرون في البلاد العربية وغير العربية».

السموم الطائفية

وليت الأمر يقتصر على الغفلة، وإثارة النزعات القومية، فهناك ما هو أخطر من هذه وتلك، وهو الأيدي التي تدس السم في العسل، خلال موسم الحج، وتعمل على تعميق تخلف المسلمين وتشتتهم وتباعدهم.

هذه الأيدي الخفية التي انكشف عنها القناع، بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران، تحاول أن تعقد أوضاع المسلمين أكثر مما عليه الآن، بتوزيع الكتب السامة المثيرة للعدائات الطائفية والقومية، للإيغال في تمزيق صفوف المسلمين، وتوسيع الثغرة التي ينفذ منها أعداء الاسلام الى ربوع العالم الاسلامي، يقول الامام: «المسلمون ينبغي أن يشهدوا منافع لهم، في هذا الحشد الاسلامي الكبير، لكن ما يحدث- وللأسف الشديد- هو العكس من ذلك. فالاقلام المأجورة المسمومة المفرقة بين صفوف المسلمين تتحرك في هذا التجمع لمصادرة أهداف الوحي الالهي، فتتشر في مهبط الوحي أوراقاً مفرقة للصفوف مثل (الخطوط العريضة) مليئة بالكاذيب والافتراءات». ورغم خطورة إثارة النزعة القومية، فإن الامام رحمه الله يحذر من مغبة الفتنة الطائفية: «هناك ما هو أخطر من النزعات القومية وأسوأ منها، وهو إيجاد الخلافات بين أهل السنة والشيعة، ونشر الأكاذيب المثيرة للفتن والعداء بين الأخوة المسلمين».

ثم يشير رضوان الله عليه الى مسألة طالما أثارها المتصيدون في الماء العكر، وما يزالون يعزفون على أوتارها الصدئة: «في اطار الثورة الاسلامية في ايران لا يوجد- ولله الحمد- أي اختلاف بين الطائفتين، فالجميع يعيشون معاً متآخين متحابين. أهل السنة المنتشرون بكثرة في ايران،

ص: ١٥٤

والقائون مع العدد الكبير من علمائهم ومشائخهم في أطراف البلاد وأكنافها، متأخون معنا ونحن متأخون ومتساوون معهم، وهم يعارضون تلك النعمات المناقفة التي يعزفها بعض الجناء المرتبطين بالصهيونية وأمريكا.

ليعلم الأخوة أهل السنة في جميع البلدان الإسلامية أن المأجورين المرتبطين بالقوى الشيطانية الكبرى لا يستهدفون خير الإسلام والمسلمين.

وعلى المسلمين أن يتبرأوا منهم، ويعرضوا عن إشاعاتهم المناقفة».

وأنهى الامام كلامه حول هذه النقطة بقوله: «إنني أمد يد الأخوة الى جميع المسلمين الملتزمين في العالم، وأطلب منهم أن ينظروا الى الشيعة باعتبارهم أخوة أعزاء لهم، وبذلك نشترك جميعاً في إحباط هذه المخططات المشؤومة».

وفي بادرة واعية، تفوّت على المغرضين أغراضهم الدنيئة، وتسحب البساط من تحت أرجلهم، أوصى الامام الراحل رحمه الله الحجاج الإيرانيين وجميع الحجاج الشيعة بعدة وصايا حكيمة تساهم في تمتين وشائج وحدة المسلمين وقطع الطريق على المراهنين على تفرّقهم. إذ يقول: «على الأخوة الإيرانيين وجميع الشيعة أن يتجنبوا الأعمال الجاهلة التي تؤدي الى تفرّق صفوف المسلمين، وعليهم أن يشتركوا في جماعات أهل السنة، وأن يتجنبوا عقد صلاة الجماعة في البيوت، ونصب مكبرات الصوت بدون انتظام، والقاء النفس على القبور الطاهرة، والأعمال المخالفة للشرع».

ثم أنهى وصاياه بالقول: «يجزى ويلزم في الوقوفين العمل وفق أحكام قضاء أهل السنة، حتى ولو حصل القطع بخلاف ذلك».

وهنا يثبت الامام الخميني أنه رجل المرحلة التاريخية، وأنه يتصرّف بمستوى ما تقتضيه المصلحة الإسلامية العليا، متجاوزاً كلّ الحسابات الطائفية والمذهبية.

الإسلام هو المستهدف

من المعروف أن الإشاعة ظاهرة اجتماعية وجدت منذ أن وجد الإنسان على الأرض.. ومن أهدافها السياسية؛

ص: ١٥٥

بث الخوف والرعب والحقد والكراهية والعداوة، وزرع بذور الفتنة والشك واليأس في نفوس الجمهور المستهدف، وكذلك تشويه سمعة وصورة الأفراد والجماعات والمجتمعات والشعوب والدول والقادة؛ لخلخله وحدة الصف، والعمل على تكوين الرأي العام أو جسسه أو تعبئته أو تضليله، حول موضوع ما يلامس حياة الناس اليومية.

وفي العقدين الأخيرين، لم تتعرض جهة ما الى هجمة إشاعات مكثفة ومدرسة كالتى استهدفت الثورة الاسلامية، خاصة من قبل الأوساط الإعلامية والسياسية فى الغرب، وبالذات الأمريكية منها. وقد تابع ذلك الهجوم المنظم بدقة البروفسور ادوارد سعيد، فى كتابه القيم «تغطية الاسلام»، حيث كشف فيه كيف تقوم وسائل الاعلام وصناع الرأي العام فى أمريكا بعرض الاسلام والثقافة الاسلامية بصورة مشوهة مقصودة.

ولم تَغِبْ أهداف تلك الإشاعات عن وعى الامام الراحل الذى راح يسلط الضوء المكثف عليها، ومن ثم فضح مآربها. إذ يقول: «من الاشاعات الماثرة بشكل واسع ضد ايران على الظاهر، وضد الاسلام فى الواقع، الزعم بأن ثورة ايران لا تستطيع إدارة البلاد، وأن الحكومة الإيرانية توشك على السقوط؛ لافتقادها الاقتصاد السالم، والتعليم الصحيح، والجيش المنسجم، والقوات المسلحة المجهزة!! وهذه الاشاعات تنشرها جميع وسائل الاعلام الأمريكية ووسائل الاعلام المرتبطة بها، لتلج صدور أعداء ايران، بل أعداء الاسلام. هذه الإشاعات موجهة فى الواقع ضد الاسلام، وتستهدف التشكيك فى قدرة الاسلام على إدارة البلدان فى هذا العصر، وعلى المسلمين أن يدرسوا هذه المسائل جيداً، ويقارنوا الثورات غير الاسلامية بالثورة الاسلامية فى ايران.

وبعد أن يعدد الامام رحمه الله مظاهر الخطل فى حسابات أعداء الاسلام، وكيف أن الأمة أثبتت ولاءها واستعدادها للبذل والعطاء والتضحية، على كل الأصعدة..

ينتقل ليقول مذكراً: «وليعلم أعداؤنا أن

ص: ١٥٦

الثورة الاسلامية فريده بين ثورات العالم في قلّه خسائرها وعظم مكتسباتها. وهذا مالم يتحقق إلّا ببركة الاسلام».

ثم راح يتساءل: «ماذا يقول هؤلاء الموتورون؟!

كيف يعجز الاسلام اليوم عن إدارة البلدان، وهو قد حكم نصف المعمورة، خلال قرون متطاولة، وأطاح بعروش الكفر والظلم خلال أقل من نصف قرن؟!

شعبنا اليوم على أتم الاستعداد والنشاط للمساهمة في إدارة البلاد واستتباب النظام فيها. أعداء الاسلام غافلون أو متغافلون عن قدرة الاسلام على هدم قواعد الظلم، وإقامه صرح إدارة البلاد على أسس العدالة.

أعداء الاسلام، بل كثير من أحبابه أيضاً يجهلون قدرة الاسلام الادارية ومبادئه السياسية والاجتماعية. كان الاسلام في الحقيقة مهجوراً أو محجوباً، خلال العصور التي تلت عصور صدر الاسلام. واليوم ينبغي أن تتضافر جهود جميع المسلمين والعلماء والمفكرين والاسلاميين على طريق تعريف الاسلام، كي يسطع وجهه المشرق الوضاء كسطوع الشمس».

أمريكا.. مصاصة الدماء

لم تواجه السياسة الأمريكية، في عصرنا الحديث، مقاومةً عنيداً وصلباً كالامام الخميني رضي الله عنه. لقد خلط هذا الشيخ الطاعن في السن كل الأوراق على الادارة الأمريكية التي كانت تمنى نفسها بالأمانى، وهي تتحصن بأهم قلاعها في المنطقة، وإذا بأصحاب الأيادي المتوضئة يبرزون اليها من بين الآكام والأكواخ والمعاناة ويلقنونها درساً بليغاً لن تنساه، فيطردونها من تلك القلعة، ويطاردونها في غير موقع.

والامام الراحل لم يترك مناسبة دون أن يشير الى الشيطان الأكبر باعتباره المسؤول الأول عن الكثير من المآسى والكوارث التي حلت بالشعوب، وقد قارع الامام الخميني الهيمنة الأمريكية، منذ وقت مبكر، بل إنه دشن ولوجه عالم السياسة بمهاجمة السياسة الأمريكية حيال ايران وبقية الشعوب المستضعفة.

وظل على موقفه الثائر من أمريكا حتى اللحظة الأخيرة. ولأهمية فضح

ص: ١٥٧

الزيف وكشف حقيقة الوجه البشع لأمريكا دأب الامام رحمه الله في كلّ المواطن على توعية الشعوب المسلمة وتحذيرها من الخطر الأمريكي. وقلّما يخلو خطاب له من هذه النبوة. وفي ندائه لحجاج بيت الله الحرام يشير الى هذه النقطة بقوله: «أهم مسألة تعانيها الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية الخاضعة للسيطرة وأمّضها ألماً هي مسألة أمريكا.

الحكومة الأمريكية باعتبارها أقوى حكومته في العالم، لا تدخر وسعاً في ابتلاع المزيد من ثروات البلدان الخاضعة لسيطرتها. أمريكا تحتل المرتبة الأولى بين أعداء الشعوب المحرومة والمستضعفة في العالم، وهي لا تتورّع عن ارتكاب أية جريمة على طريق فرض هيمنتها السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية على البلدان الخاضعة لسيطرتها. إنها تستغل الشعوب المظلومة في العالم، عن طريق دعايات واسعة تخطط لها أجهزة الصهيونية العالمية. إنها تعمل عن طريق عملائها المتسترين الخونة على امتصاص دم الشعوب الضعيفة، وكأنها هي وحلفاؤها وحدها تمتلك حق الحياة!

ايران اذا أرادت أن تقطع علاقاتها مع هذا الشيطان الأكبر في جميع المجالات، تعاني اليوم من هذه الحروب المفتعلة. أمريكا تحت العراق على سفك دم شبابنا، ودفعت جميع البلدان الخاضعة لنفوذها الى الإطاحة بنا، عن طريق المقاطعة الاقتصادية. ومن المؤسف أن كثيراً من البلدان الأوروبية والآسيوية ناصبتنا العداء أيضاً.

على الشعوب الاسلامية أن تعلم أن ايران بلد يحارب أمريكا رسمياً، وأن شهداءنا هم من الشباب الأبطال العسكريين والحرس، الذين يقفون في وجه أمريكا دفاعاً عن ايران وعن الاسلام العزيز.

فمن الضروري أن نذكر - إذن - أن الاشتباكات التي نواجهها يومياً في غرب الوطن العزيز، هي اشتباكات تفتعلها أمريكا عن طريق الفئات المنحرفة المرتبطة بالأجنبي. وهذه مسألة ترتبط بمحتوى ثورتنا الاسلامية القائمة على أساس الاستقلال الحقيقي. إذ لو كنّا قد تنازلنا لأمريكا أو لسائر القوى الكبرى لما

ص: ١٥٨

عائنا من هذه المصائب، لكن شعبنا ما عاد مستعداً لقبول الذل والخضوع، وأنه يفضل الموت الأحمر على حياة الذل والعار. إننا مستعدون للقتل، وعاهدنا الله أن نقتدى بإمامنا سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام.

ثم يوجه الامام خطابه الى الحجيج قائلاً:

«أيها المسلمون المتضرعون الى الله قرب بيت الله.

ادعوا الى الصامدين بوجه أمريكا وسائر القوى الكبرى، واعلموا أننا لسنا في حرب مع العراق، بل إن شعب العراق يساند ثورتنا الاسلامية. نحن في صراع مع أمريكا، واليوم فإن يد أمريكا تجسدت في حكومة العراق، وسيستمر هذا الصراع بإذن الله حتى نحقق استقلالنا الحقيقي.

ولقد قلت مراراً؛ إننا رجال حرب، وليس للاستسلام معنى في مفهوم الانسان المسلم. أيها البلدان غير المنحازة.

اشهدى أن أمريكا تستهدف إبادتنا، فكري في الأمر قليلاً، وساعدنا على طريق تحقيق أهدافنا.

نحن أعرضنا عن الشرق والغرب، عن الاتحاد السوفيتي وأمريكا، لندير بلادنا بأنفسنا، فهل من الحق أن نتعرض بهذا الشكل لهجوم الشرق والغرب؟!

إنه لاستثناء تاريخي في أوضاع العالم الحالية أن يكون هدفنا منتصراً حتماً بموتنا وشهادتنا وانهزامنا.

هذا هو... الطريق!

وككل عظماء التاريخ وصناع أحداثه ومنعطفاته الكبرى، لم يكتفِ الامام بتعداد مظاهر الخلل وتشخيص مواطن الداء.. بل سرعان ما ينتقل الى طرح البديل. وها هو يرسم الخطوط العريضة لمشروع النهوض والوعي.

«أيها المسلمون المؤمنون بحقيقة الاسلام.

- انهضوا... ووحّدوا صفوفكم تحت راية التوحيد، وفي ظلّ تعاليم الاسلام.

- واقطعوا أيدي القوى الكبرى الخائنة عن بلدانكم وثرواتكم الوفيرة.

- وأعيدوا مجد الاسلام.

- وتجنّبوا الاختلافات والأهواء النفسية.. فإنكم تملكون كلّ شيء.

ص: ١٥٩

- اعتمدوا على الفكر الاسلامى.
- وحاربوا الغرب والتغرب.
- وقفوا على أقدامكم.
- واحملوا على المثقفين الموالين لغرب والشرق.
- اوجدوا هويتكم.. واعلموا أن المثقفين الذين باعوا أنفسهم للأجنى أذاقوا شعبهم ووطنهم الأمرين.
- وما لم تتحدوا وتمسكوا بدقه بالاسلام الصحيح، فسيحلّ بكم ما حلّ بكم حتى الآن.
- إننا فى عصر، ينبغى أن تضىء الشعوب الطريق فيه لمثقفها، وأن تنقذهم من الانهيار والضعف أمام الشرق والغرب. فاليوم يوم حركة الشعوب، وهى التى ينبغى أن توجه من كان يوجهها من قبل».
- بعد ذلك، ينفخ الامام فى الحجيح روح الثورة والرفض: «اعلموا أن قدرتكم الروحية ستتغلب على جميع الطواغيت، وتستطيعون بعددكم البالغ مليار إنسان وبشرواتكم الطائلة، غير المحدودة، أن تحطموا جميع القوى..
- انصروا الله كى ينصركم.
- أيها الجموع الغفيرة من المسلمين..
- انتفضوا وحطموا أعداء الانسانية، فإن اتجهتم الى الله تعالى، والتزمت بالتعاليم السماوية، فالله تعالى وجنده العظام معكم».
- وبعد..
- كانت هذه نفحات من الروح الخمينية التى أرعبت الطغاء، وهددت العروش، وأربكت الحسابات السياسية، وخطت على دهاقته السياسة أوراقهم...
- اليوم، ونحن نقف أمام مئوية ميلاده... فإنّ من الوفاء أن يُحتفى بهذه المناسبة، بل لعله أقلّ الوفاء أن تصدر الكتب، والاعداد الخاصة من المجلات، والبوسترات، واقامة الندوات، والمهرجانات.. فى هذه المناسبة..
- ولكن الوفاء، كلّ الوفاء، أن يظلّ حملة رايته سائرين فى خطّه ومنهجه..
- أوفياء أمناء على أفكاره ومشروعه.
- لقد عاش الامام العظيم بكّله للاسلام.. ولم يتفياً لحظة غير ظلال الاسلام.. لم تر فيه يوماً نزعة وطنية أو قومية، أو ايران للايرانيين!

ص: ١٦٠

لم يرضخ ذات مرة.. ولم يهادن.. ولم يساوم على مبادئه مهما ادلهمت الخطوب.. وتحت أية ذريعة كانت.
عاش هموم المسلمين والمستضعفين.. أينما كانوا.. فبأدله هؤلاء حباً بحب.. ووفاء بوفاء.
ولا أظن أن هناك من يسمح لنفسه أن يتنصل عن المشروع الخمينى، وإن وجد فإنه قد طعن بفعله هذا الخمينى فى الصميم أياً كانت
الذرائع التى يتذرع بها.
فسلام عليك أبا المحرومين.. وناصر المظلومين فى الخالدين.
الهوامش:

ص: ١٦٣

الامة القرآنية

الامة القرآنية

الامة القرآنية

فلاح حسن

إن فكرة وحدة الأمة الإسلامية والتنظير لها والإيمان الصادق بها قولاً وعملاً ومنهجاً وهدفاً.. يعود كل ذلك - بالضرورة - إلى عقيدة التوحيد نفسها، هذه العقيدة التي يركز عليها فكرنا الإيماني، وكل ما يترتب عليه من آثار ومستلزمات في حياتنا العملية، وما يتحدد في ضوئه من علاقات وتصورات ورؤى. وما يترشح من أنشطة مختلفة في جميع مفاصل حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

فبالوحدة - هذا المفهوم العظيم والركن الرصين والهدف النبيل - يقوم الدين، وتزدهر معالمه، وتنتشر دعوته وتعم مبادئه، ويحفظ كيانه، ويُدحض أعداؤه، ويُسعد أبنائه.. لهذا جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار الصالحين تترى بالحديث عنها والدعوة إليها، وترسيخها في قلوب الناس وأخلاقياتهم وفي سلوك النخبة وأهدافهم..

لقد أكدت تلك الآيات والروايات والآثار.. هذه الوحدة في حياتنا منطلقاً

ص: ١٦٤

وهدفاً ومنهجاً.. فالله الواحد الأحد الذى خلق وأبدع هذا الكون، وقدر ما فيه وما حوله وفق أنظمته دقيقة ما إن يختل جزء منها حتى يترك آثاره على باقى الأجزاء. إنه - حقاً - جسم واحد يكمل بعضه بعضاً، ويتضرر بعضه ببعض...

ثم خلق فيه نواة تطوره وديمومته بل وسيده آدم وزوجه من نفس واحدة هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها. كان حفنة واحدة من تراب نفخ الله فيها من روحه فتمثل بشراً سوياً. فقدّر لهذا المخلوق أن يكون سيد الكائنات والمخلوقات بما أودعه الله فيه من جمال وجلال وقدره لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم وبما أهله لأن يكون خليفة الله تعالى فى أرضه وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة.. ثم وضعت السماء بعد ذلك أمانتها فى عنقه، بعد أن امتنعت عن حملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها: إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان...

نعم حملها مختاراً طواعية لا كرهاً، وثقةً منه بما أودعه الله تعالى فيه من قدرات، وشعوراً بتكليفه ومسؤوليته؛ ليبدأ مشواره من الله تعالى، مستمداً منه العزم والقوة؛ لينتهى إلى الله تعالى أيضاً فيجد حسابه وينال ثوابه، ويحصد ثمار أعماله وكدحه يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه.

وفى كل خطوة يخطوها فى مشواره ذاك ينظر نظرتين: نظرة إلى السماء يسأل رحمتها وتسديدها له وهو يردد: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله بدءنا وإنا لله حياتنا وديمومتنا، وإنا لله مآبنا، وإنا لله منتهاها. فهو بدون هذه النظرة لا يستطيع فعل شىء. وما بين البداية تلك والنهاية هذه ما بين أول الشوط وآخره راحت منطلقته بكل وعى وصدق قوافل المجاهدين الصابرين؛ لتؤدى دورها العبادى بمعناه الأشمل والأتم، الذى أرادته السماء ورسمته ريشتها لبنى البشر وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون ليعبدون رباً واحداً، عبر عمل دؤوب ونشاط متواصل

ص: ١٦٥

بالخير والعطاء يرضى الله وينفع الناس، وقطعاً إنّ العمل الذي يرضى السماء ويتنهل منه الناس خيراً وبركةً ونفعاً ليس العمل الذي يزرع البغضاء ويمزق الأمة، بل هو الذي يبذر الخير للجميع، ويوحد الصفوف، ويلقى بظلاله الوارفة علينا جميعاً.

أما النظرة الثانية فهي إلى واقعه وما يتضمّنه، وإلى منهجه ومسيرته، وما تتركه حركاته من بصمات على حياته بكلّ ما فيها، نظرة تأمل ودراسة لساحته وميدان عمله بغية وضع يده على نقاط الضعف فيه لتقويتها. وعلى نقاط القوة فيه لإدامتها، وبالتالي تطويره وبرمجته وفق إرادة السماء وما خطّطت له ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون.

وأية أمة هذه التي أرادها الله تعالى أن تكون؟! إنّها الأمة القرآنية الموحدة؛ لأنّ أمانة السماء التي أبت السماوات والأرض حملها، لا تؤدّيها أمة متفرقة، أمة متخاصمة، أمة متنازعة ومتناحرة ومتباغضة ومتحاسدة، أمة تنهشها هذه الأمراض من كلّ جانب لا تستطيع تحمّل شيء، أو تحريك ساكن فضلاً عن فعل ما فيه خير وصلاح، إنّ التي تحملها وتؤدّيها خير أداء أمة قوتها في وحدتها، وعزتها في تراصها، وكرامتها في تآلفها، وشموخها في تلاحمها، وبقاؤها في تآزرها وانتصارها في تكاتفها..

عندئذ تستطيع أن تحمل تلك الأمانة العظيمة، وتكون جديرة بها وبالمحافظة عليها وأدائها بالصورة التي تريدها السماء.

إنّ كلمة الأمة في النصّ القرآني إنّ هذه أمّتكم أمة واحدة تعني معنى واحداً جامعاً لكلّ من آمن بالإسلام ديناً لا خصوص جماعة معينة أو مذهب أو قومية محدّدة. فالمسلمون جميعاً أمة واحدة تدين بدين واحد وتعبد ربّاً واحداً وأنا ربّكم فاعبدون.

إذن هذه الأمة الواحدة- التي أردتها السماء، وأمرت المؤمنين بالسعي

ص: ١٦٦

لتحقيقها، هي الامية المسؤولة المكلفة بأحكام السماء لا غيرها، وإذا ما تفرّق أبناؤها وإذا ما تشتّت مذاهب وفرقاً، فلا يصدق عليها حينئذٍ التعبير القرآني والكلمة القرآنية أنها (امة) ولا تكون مشمولة بما أرادته الآية الكريمة هذه وكذلك الآية السابقة كنتم خير امة... فالتنازع والتناحر تلغى خصوصية الامة، وتلغى آثارها من القوة والمنعة والقدرة والتآلف، وتستبدل بالضعف والعجز والحق والبطء وما إلى ذلك.

أرادنا الله أن نأمر بالمعروف جماعة وأرادنا أن نستنكر المنكر جماعة ف «يد الله مع الجماعة»، وهذا لا يعنى أن الفرد بنفسه ليس مكلفاً ومأموراً باستنكار المنكر والأمر بالمعروف وشجب الظلم، فهذا واجب ومسؤولية ملقاة علينا كأفراد وجماعات، ولكن الله سبحانه يحب أن يكون الأمر جماعة فهو أقوى أثراً وأدوم بقاءً، فالصلاة جماعة أفضل من الصلاة فرادى..

إن الامية القويّة القادرة المتآلفة هي الامية القرآنية، التي لا تفاخر ولا تكاثر بينها بالأنساب والأموال والأنفس الهاكم التكاثر، وهذه عيوب تفتت جمعها وتمزق شملها، وتبعثر وجودها، وبالتالي تطيح بكيانها بعد أن تتركها أكلة سائغة للأعداء.

فالامية القرآنية وهي الهدف الذي كانت تهفو إليه قوافل الأنبياء والمرسلين، وجدّت في المسير إليه ولا زالت كلّ مواكب الصالحين، كما راحت ترفرف حوله وتطوف به أرواح الشهداء، بعد أن عيّده جماعهم وسقته دماؤهم.. وظلّت الأجيال المؤمنة المتعاقبة تتوارث كنوزه المضرجة بدماء الشهداء والمعفرة بتراب ساحات الفداء حتى وصل إلينا وها هو بين أيدينا هدفاً سامياً عظيماً، أفصح منا أن نفرط به وأن نصيغ ما قد وفّرت لنا تلك الجهود المباركة وتلك الحشود الصادقة، فنجد على ربنا ببضاعة كاسدة فيقول كلّ منا أين المفرّ بعد أن ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر ويومها يتذكّر الإنسان وأنا له الذكرى* يقول يا ليتني

ص: ١٦٧

قدّمت لحياتي؟

لا أريد أن يُفهم ممّا أقوله أنّ الماضين لم يكن بينهم خلاف، ولم تكن هناك مواقف كادت أن تمزّقهم. لا، أبداً، بل أريد أن أقول: إنّ هناك قواسم مشتركة بينهم، زينت صفحات حياتهم، وكانت نقاط خير وعطاء للقائهم وتوحيدهم... فما أحرانا وقد كثر أعداؤنا والمترّبصون بنا- أن نلتقى نحن أيضاً عند القواسم المشتركة وما أكثرها. فخلافات الرأى وما يترتب عليها من مواقف ماثلة أمامنا، ولكن بوجود الصالحين الواعين تضيق دائرتها ويمنع من تجذّرها؛ لنبدأ حياة أكثر إشراقاً وأكثر أملاً دون أن نكبّ صوت الحق أو نلغى الآراء المبرّرة والاجتهادات العلميّة، أو أن نصادر الرأى الآخر إذا ما توفّرت أدلّته وقام على ركن قوى.

وبذلك نستطيع أن نحفظ لأمّتنا دينها وأصالتها، وأن نصون وحدتها ونقوى شوكتها ونديم وجودها، فتقف شامخه بين الامم، ومتعالیه على ما فيها من خلافات فرضتها طبيعته الحياه وطبيعته العمل والكدح ما دام الهدف الأعلى والغايه الأسمى التي نسعى جميعاً لتحقيقها، هو الامّة القرآنيه التي بها كلّ خير وعطاء وبها رضا الله سبحانه وتعالى.

لهذا كلّ ولغيره ممّا لا يسع المقام ذكره بادر السيّد الإمام رضوان الله عليه بعد أن وعى كلّ ذلك وآثاره، وعرف أنّ قيمه هذه الامّة بوحدتها، وأنّ للوحده قيمه كبرى، وأنّ رساله السماء ودعوتها يتوقف تبليغها على وحده الامّة، وأن انتصارها وبقاها رهين بوحدتها وأنّ موتها وانقراضها بتفرّقها، وبالتالي فإنّ وحدتها فوق كلّ اختلاف.. بادر سماحته يحول نقاط الخلاف بين أبنائها إلى نقاط ائتلاف ضمن رؤيه عقائديه وفقهيّه وسياسيه تبحث عن القواسم المشتركه، فيقف عندها دون أن يغور بالخلافات الاخرى فتتعمّق، أملاً أن تجد حلاً في المستقبل، فالزمن كفيل بحلّ كثير من المعضلات، وما استعصى حلّه اليوم يتيسّر حلّه غداً، وهكذا راح سماحته بحكمته العاليه وهّمته التي لا تعرف الكسل، وبأمله الذي لا يشوبه اليأس،

ص: ١٦٨

يدلى بوصاياه وأوامره فى هذا الخصوص، وسنذكر بعضها بعد أن نقف قليلاً؛

مع القرآن والرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام

بعد هذا التمهيد أجد نفسى ملزماً بالوقوف عند بعض الآيات والروايات حول الوحدة، وأهميتها فى حياتنا بكل مفاصلها ومحاورها، والتحذير من خطورة التخلف عنها، والركون إلى الفرقة.. لأنقل بعد ذلك إلى آراء السيد الإمام وأقواله ووصاياه خصوصاً لحجاج بيت الله الحرام وبما يتعلّق منها بمقالتنا هذه.

فقد دعا القرآن الكريم الناس جميعاً إلى توحيد صفوفهم وإلى تعالى على خلافاتهم، وإلى نبذ حالة التشرذم.. بالتمسك بحبل الله ومنهجه ففيه الخير كله.

قال تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا.

وقال أيضاً فى آية أخرى: وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين.

إنها دعوة لكل الناس، دعوة للبشرية جميعاً، أن يتمسّكوا بحبل الله المنقذ لهم من الغرق فى النزاعات والاختلافات، والمنجى لهم من السقوط فى اتون الحروب والتطاحن، وأن يجتمعوا بدل كل تلك المتاهات حول دين الله الإسلام، وأن لا يتفرّقوا ولا يتنازعوا، وكل هذه التعابير تأكيد لذلك الأمر وهو التمسك والاتحاد.

فإنّ التنازع والتشاجر والتناحر لا يؤدّى إلّا إلى ضعف الكيان وتهوى الامة، فتصبح أكلة سهلة سائغة لأعدائها الذين يتربصون بها الدوائر..

وقد هذد وأنذر الذين يسعون إلى الفرقة بعذاب أليم ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم.

ولم يترك الله سبحانه وتعالى هذه الامة بلا ميزان بعد أن شجب التفاخر والتكاثر والتعالى بين أبنائها بغير ما يرضيه، فقد جعل التقوى هى ميزان التفاضل بينهم.

قال الله تعالى فى محكم كتابه:

ص: ١٦٩

يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم
ثم راح يبيّن صفه هذه الامّة المتماسكة ودورها ووظيفتها: كنتم خير امّة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون
بالله.

ثم إنّ القرآن الكريم جعل حبّ الله تعالى، هذا الوسام الذي ما بعده وسام، وهذا الفخر الذي لا فخر سواه، والأمل الذي لا أمل غيره...
حبّ الله سبحانه وتعالى، جعله من نصيب المتوحّدين، والذين جعلوا من أنفسهم صفّاً واحداً في كدحهم وفي جهادهم وفي دعوتهم
إلى الله سبحانه...

إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة: «يا معشر قريش إنّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعظّمها بالآباء. الناس لآدم
وآدم من تراب. ثم راح صلى الله عليه وآله يقرأ الآية: يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وانثى...

فليس هناك من يرتاب في أنّ فريضة الحجّ ومناسكها تدعو للوحدة، وهي مناسبة عظيمة وفرصة كبرى للتمسك بأخلاق الله تعالى
والتصديق بأوامره والانتهاز عمّا نهى عنه، وانتهاج منهج أوليائه من الأنبياء والرسل والصالحين في توحيد الصفوف، والظهور بمظهر
واحد خالٍ من التفاخر والتعالى، في مؤتمر إسلامي سنوي ليس له نظير، يربّع الأعداء، ويلقى في نفوسهم الخشيّة والهيبة من هكذا
تجمع بزى واحد ومناسك واحدة وكلمة واحدة «لييك اللهم لييك، لتيك لا شريك لك لتيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا
شريك لك لبيك».

تعلو هذه الأصوات من حناجر تواضع أصحابها لله وحده، وقد لّوا دعوته، تاركين الأهل والعشيرة والمال والبنين، إنها رحلة
العودة إلى الله حقّاً، يقول الإمام على عليه السلام:

«وفرض عليكم حجّ بيته الحرام، الذي جعله قبلة للأنام، يردونه ورود

ص: ١٧٠

الأنعام، ويألهون إليه ولوه الحمام، وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته، واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعائدين حرماً، فرض حقّه، وأوجب حجّه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه: ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

مواقف السيّد الإمام:

فموسم الحج؛ هذا التجمع الذي يخفق على ربوعه لواء التوحيد، يرى السيّد الإمام فيه قوّة عظيمة تتحطّم على صخرتها دسائس ومخططات ومؤامرات كلّ الأعداء المتربصين بهذه الامّة سوءاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرى فيه تحقيقاً لطموحات الامّة وآمالها في اميّة كريمة واحدة متفاعلة مكتفية ذاتياً في كلّ مجالات وأصعدة تطورها، الثقافية والاقتصادية والعلمية.. ويكون تجمع المسلمين في الحج صورة مصغّرة لها..

وعلى ضوء تلك الآيات المباركة والأحاديث النبوية الشريفة وانطلاقاً منها، وتمسّكاً بما يمليه عليه دينه وانقياداً لتعاليمه، وللرؤية الواضحة التي يمتلكها ووعيه الدقيق للواقع الإسلامي الذي يضمّ شعوباً مظلومة مقهورة تحت سياط حكام طغاة ظالمين، وشعوراً منه بالمسؤولية الشرعية الملقاة على عاتقه وهو مرجع كبير وزعيم باتت أنظار كثير من المسلمين متوجّهة صوبه، منتظرة كلمته ملبيةً دعوته، راح السيّد الإمام الخميني يوجّه نداءاته الكثيرة ووصاياه المتعدّدة؛ لتوثيق الوحدة بين المسلمين - التي حظيت من وقته وجهده واهتماماته الكثير، فكانت له رؤية خصبة في هذا المضمار - ونبذ الخلاف ويحذّر من التفرقة والتشتت.

ص: ١٧١

القومية:

بدءاً بالتحذير من إثارة النعرات القومية التي تنخر في جسم الامّة والتزاماً منه رضوان الله عليه بنهى النبي صلى الله عليه وآله: «دعوها إنها (العصبية) تنته». «وليس منّا من دعا إلى عصبية». راحت أقواله ترى: إن النعرات القومية - هذه المسألة التي عارضها الإسلام والقرآن الكريم والنبي الأعظم - تثير العداء بين المسلمين والشقاق بين صفوف المؤمنين، وهي بالتالي تهدد مصالح المسلمين، وهي من مكائد الأجانب الذين يزعمهم الإسلام وانتشاره..

- وتأكدوا أنكم إخوة متساوون مع جميع الشعوب بغض النظر عن اللون والقومية والمحيط والمنطقة، تتبادلون الهموم والآلام، وتؤكدون الوحدة بينكم، وتنهضون يداً واحدة ضد أعداء البشرية والمزورين ومصاصي الدماء.

- يجب أن تعلموا أن الطريق الأساس إنما هو في ظلّ وحدة جميع المسلمين، واجتماعهم على قطع أيادي القوى العظمى من الدول الإسلامية.

- ينبغي على الحجاج المحترمين لبيت الله الحرام لأي مذهب أو قومية انتموا أن يرضخوا لأحكام القرآن الكريم، ويقفوا في مواجهة سبل الشياطين الذين يريدون اقتلاع الإسلام، الذي طهر الشرق والغرب منهم ومن عملائهم الذين لا إرادة لهم سوى إرادة أسيادهم. ويمدّوا يد الاخوة الإسلامية بعضهم لبعض وينتبهوا للآيات الكريمة التي تدعوهم إلى الاعتصام بحبل الله، وتنهاهم عن الاختلاف والفرقة..

السنة والشيعة:

لم يكن يرى أن الاختلافات المذهبية مسوغه للفرقة بين أبناء الامّة الإسلامية الواحدة، وكان يؤكد أن الاخوة الإسلامية لا يضرّها اختلاف الآراء..

ويضع اللوم على ما أسماهم بوعاظ السلاطين بإثارة النعرات المذهبية وتأجيج نيران الخلافات بين أهل السنة والشيعة.

لهذا انبرى السيد الإمام قبل انتصار الثورة وبعدها إلى تثبيت رؤاه وتحقيق

ص: ١٧٢

الوحدة الإسلامية، يقول سماحته:

- هناك ما هو أخطر من النعرات القومية وأسوأ منها، وهو إيجاد الخلافات بين أهل السنّة والشيعة، ونشر الأكاذيب المثيرة للفتن والعداء بين الاخوة المسلمين.. ثم راح يوصي الاخوة المسلمين بأن هؤلاء المأجورين المرتبطين بالقوى الشيطانية الكبرى لا يستهدفون خير الإسلام والمسلمين، وعلى المسلمين أن يتبرأوا منهم ويعرضوا عن إشاعاتهم المنافقة.. وقد خطى السيد الإمام خطوات كبيرة في توحيد صفوف المسلمين، فبادر إلى إصدار فتواه بتجنّب ما يثير الفتن، ويثير الضغائن بين الاخوة.

يقول: على الاخوة الايرانيين وجميع الشيعة في العالم أن يتجنّبوا الأعمال الجاهلة، التي تؤدّي إلى تفرّق صفوف المسلمين، كنصب مكبرات الصوت بدون انتظام، وإلقاء النفس على القبور الطاهرة، والأعمال المخالفة للشرع. كما أصدر فتوى أخرى للشيعة بالاشتراك في الصلوات، حيث يقول: وعليهم أن يشتركوا في جماعات أهل السنّة، وأن يتجنّبوا عقد صلاة الجماعة في البيوت. ثم راح يبيّن خطورة تقسيم الأمة الإسلامية إلى مذاهب وحذّر منها: - إنّ طرح مسألة تقسيم المسلمين إلى سنّي وشيعي وحنفي وحنبلي وأخباري لا معنى لها أساساً.. - المجتمع الذي يريد أفراداً جميعاً خدمة الإسلام والعيش تحت ظلال الإسلام لا ينبغي أن يثير هذه المسائل. - كلّنا اخوة، وكلنا نعيش قلباً واحداً، غاية الأمر أنّ الحنفي يعمل بفتاوى علمائه، وهكذا الشافعي، وثمّة مجموعة أخرى هي الشيعة تعمل بفتاوى الإمام الصادق عليه السلام، وهذا لا يبرّر وجود الاختلاف، لا ينبغي أن نختلف مع بعضنا، أو أن يكون بيننا تناقض. كلّنا اخوة، على الاخوة الشيعة والسنّة اجتناب كلّ اختلاف، فالاختلاف بيننا اليوم هو لصالح الذين لا يؤمنون بالسنّة ولا بالشيعة ولا بالمذهب الحنفي ولا بسائر الفرق الإسلامية.

ص: ١٧٣

وهؤلاء يريدون القضاء على هذا وذاك، فهدفهم بئ الفرقه بينكم. عليكم أن تتنبهوا جيداً أننا جميعاً مسلمون وأتباع القرآن وأهل التوحيد.

دعوة لإحباط المؤامرات

ويبادر سماحته بالدعوة الصادقة إلى الوحدة والتآلف لإحباط المؤامرات فيقول:

– إننى أمد يد الاخوة إلى جميع المسلمين الملتزمين فى العالم، وأطلب منهم أن ينظروا إلى الشيعة بصفتهم اخوة أعزاء لهم، وبذلك نشترك جميعاً فى إحباط هذه المخططات المشؤومة.

استنهاض المسلمين

ثم واصل حديثه ووصاياه لاستنهاض المسلمين من سباتهم ومن تمزقهم:

– أيها المسلمون المؤمنون بحقيقة الإسلام، انهضوا ووحّدوا صفوفكم تحت راية التوحيد وفى ظلّ تعاليم الإسلام، واقطعوا أيدي الدول الكبرى الخائنة عن بلدانكم وثرواتكم الوفيرة، وأعيدوا مجد الإسلام، وتجنّبوا الاختلافات والأهواء النفسية، فإنكم تملكون كلّ شيء. اعلموا أن قدرتكم الروحية ستتغلب على جميع الطواغيت، وتستطيعون بعددكم البالغ مليار إنسان، وبثرواتكم الطائلة غير المحدودة أن تحطموا جميع القوى.. انصروا الله كي ينصركم.

أيها الجموع الغفيرة من المسلمين، انتفضوا وحطّموا أعداء الإنسانية فإن اتجهتم إلى الله تعالى، والتزمتم بالتعاليم السماوية، فالله تعالى وجنده العظام معكم.

.. ولنصل إلى النصر من خلال الاجتماع على الحق، وتوحيد الكلمة وكلمة التوحيد، التى هى أساس ومنبع عظمة الامة الإسلامية.

يا مسلمى العالم، ماذا جرى لكم فى صدر الإسلام، على قلتكم هزمت القوى العظمى، وحققتم وجود الامة الإسلامية الإنسانية الكبرى، وأنتم اليوم تعدّون ما يقارب المليار نسمة وتملكون الثروات الكبيرة، التى تعتبر رأس الحربة، وتعاونون إلى هذا الحدّ

ص: ١٧٤

من الضعف والانسحاق في مقابل الأعداء؟!

هل تعلمون أن كل المصائب التي تعانون منها هي نتيجة التفرّق والاختلاف بين رؤساء بلدانكم وبالتالي فيما بينكم؟ انهضوا من أماكنكم واحملوا القرآن الكريم، واستلهموا أوامر الله تعالى حتى تعيدوا مجدكم وعظمة الإسلام العزيز، تعالوا واستمعوا إلى موعظة واحدة من الله حيث يقول:

قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى.. انهضوا جميعاً وقوموا لله، قوموا فردى على جنود وشياطين أنفسكم الباطنية وقوموا جميعاً على القوى الشيطانية، إذا كانت الثورة والنهضة إلهية ولأجل الله فهي منتصرة.

ثم واصل حديثه الاستنهاضي هذا بقوله:

أيّها المسلمون ويا مستضعفى العالم مدّوا أيديكم بعضكم لبعض وسيروا فى سبيل الله....

يجب أن نعلم أن إحدى الفلسفات الاجتماعية لهذا التجمّع العظيم من جميع أنحاء العالم توثيق عرى الوحدة بين أتباع نبي الإسلام، أتباع القرآن الكريم في مقابل طواغيت العالم، وإذا لا سمح الله أوجد بعض الحجاج من خلال أعمالهم خللاً في هذه الوحدة أدت إلى التفرقة، فذلك سيوجب سحق رسول الله صلى الله عليه وآله وعذاب الله القادر الجبار.

وفي عبارة أخرى له: وأن ترتفعوا عن الفرقة والتنازع ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.

- الحجاج المحترمون الموجودون في جوار بيت الله ومحل رحمته، تعاطوا برفق ومروءة واخوة إسلامية مع جميع عباد الله، واعتبروا الجميع ودون النظر إلى اللون واللسان والمنطقة والمحيط منكم.

ثم دعاهم جميعاً إلى شيء عظيم ألا وهو:

أن تكونوا جميعاً يداً قرآنية واحدة حتى تسيطروا على أعداء الإسلام والإنسانية.

ص: ١٧٥

ما أجمله من تعبير: يداً قرآنية واحدة!

نعم يمكننا نحن أن نتجنب ما يثير الخلاف والنزاع والفرقة دون أن نصادر الرأي الآخر إذا ما قام عليه الدليل، وبذلك نستطيع أن نصون الوحدة لأمتنا الإسلامية، هذا الأمل الكبير الذي يُراود كلّ المؤمنين المجاهدين والعلماء المصلحين.. تحت ظلال القرآن

الكريم.

الهوامش:

ص: ١٧٦

الابعد الاجتماعية لمناسك الحج

الابعد الاجتماعية لمناسك الحج

الابعد الاجتماعية لمناسك الحج

زهير الأعرجي

اهتم السيد الإمام الخميني قدس سره، خلال حياته السياسية والاجتهادية والاجتماعية المديدة التي قاربت قرناً من الزمان، اهتماماً بالغاً بفريضة الحج. فقد كتب العديد من الرسائل، وألقى الكثير من الخطب لارشاد الأمة حول دور الحج، خصوصاً في الانفتاح على مجتمعات المسلمين ومشاركتها همومها وآلامها.

وكان قدس سره يرى الحج مناسبة اجتماعية فريدة ومؤتمراً إلهياً عظيماً تُناقش فيه مشاكل المسلمين وتبلور فيه طموحاتهم وآمالهم. بل كان قدس سره يرى في الحج هوية وانتماءً اجتماعياً وسياسياً للمسلمين، اذا احسن اقناعهم بصحة متبنيات الإسلام الحقيقي. ولذلك، فإنّ هذه المقالة سوف تتناول أولاً: الأبعاد الاجتماعية للحج عبر مناقشة: أ- الانتماء الاجتماعي. ب- محاربة الانعزال الاجتماعي. ج- فلسفة الاقناع. ثم تتناول ثانياً: الإمام الخميني قدس سره والحج، عبر تحليل اقواله وخطاباته السياسية الخاصة بتلك المناسك.

ص: ١٧٧

أولاً: الأبعاد الاجتماعية للحج

عندما ندرس الأبعاد الاجتماعية للحج، فإننا لا نبتغي دراسة علل الشرائع، فهذا موضوع خارج عن قدراتنا كبشر. ولكننا نلتبس أموراً ظاهريّة تُعيننا على فهم أنفسنا ومجتمعنا وطبيعته تكليفنا الديني.

أ- الانتماء الاجتماعي

لا شك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش منفرداً دون مشاركة الآخرين، ومرافقتهم في أغلب نشاطاتهم الحياتية اليومية في العمل والتعليم والعبادة. فنحن خلقنا كي نعيش في مجاميع صغيرة أو كبيرة؛ ولعل هذا يفسّر لنا إلى حدّ بعيد سبب حبّ الدين الحنيف على ضرورة التزاور، والتزاور، والعمل المشترك، والمشاركة في الأعمال التعبدية بصورة جماعية. فحاجتنا الانسانية نحو الاتصال بالآخرين والاجتماع بهم ليست مطلباً عملياً يسهّل علينا الحياة الاجتماعية فحسب، بل انها حاجة نفسية غريزية؛ ولذلك فإنّ الانعزال عن الآخرين يسبب أمراضاً عقلية للفرد المنعزل.

وأهم ثمار الاجتماع الانساني هو إشباع حاجة نفسية أساسية للإنسان وهي الشعور بـ «الانتماء الاجتماعي»، فالانتماء يميز الفرد ويشعره بهويته الاجتماعية التي تميزه عن الغرباء. والشعور بالانتماء الاجتماعي نحو جماعة أو عقيدة معينة يساهم بشكل فعال في التفاعل والتأثير بين الأفراد. فالأفراد الذين يتجمعون في حافلة للنقل العام في إحدى المدن الكبيرة لا يحصل بينهم التفاعل والتأثير الاجتماعي المطلوب؛ لأنهم لا يشعرون بالانتماء إلى نفس الفكرة أو العقيدة التي تجمع الحجاج مثلاً.

إلا أنّ مناسك الحج تلهب شعور المسلم بالانتماء الاجتماعي لمجتمع التوحيد العالمي. فطبيعة التفاعل والتغير المستمر الذي يختبره الفرد في حياته الاجتماعية تجعل مسألة الانتماء مهمة للغاية. ولا يشبع هذا الشعور الانساني بالانتماء شيء غير

ص: ١٧٨

الدين ورسالته العظيمة التي توخى توجّهات الأفراد نحو هدف واحد. ومن الطبيعي أنّ أهداف الانتماء الاجتماعي لن تتكامل ما لم يشعر الفرد بالأمان.

والحج يعطى الفرد شعوراً بالأمان؛ لوقوعه فى الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال أوّلماً، ولأنّ المناسك يجب أن تؤدى فى وضع شرعى أمانى خاص ثانياً.

والانسان بطبيعته يحتاج إلى حماية الجماعة ومساندتها. ومن أجل ذلك، فقد أورد الإسلام ترتيبات أمنية على درجة عظيمة من الدقة والإحكام، منها:

١- تقرير الأمن فى البيت الحرام، بعد أن أوجب اليه الحج - بشروطه الشرعية - على المكلفين، كما ورد فى النص المجيد: إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهديّ للعالمين* فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً...، ولقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون.... وكون الحرم آمناً يأمّن من دخله، يعكس أهمية الأمان فى استقرار التأثير الدينى على الناس.

٢- حرمة الاعتداء على الآخرين، أو حرمة القتال فى الأشهر الحرم - وهى شهر رجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة ومحرم الحرام - ووجوب حفظ حرمة الشعائر وحرمة القاصدين لزيارة البيت الحرام، كما ورد فى النص المجيد: يا أيها الذين آمنوا لاتحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان...

٣- حرمة مكة المشرفة وضرورة تعظيمها. فهى البلدة التى شرفها الله سبحانه من وجهين؛ الاول: الحرمة باعتبار مناسك الحج. والثانى: نسبة تلك البلدة اليه، كما قال عز من قائل: إنّما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذى حرّمها وله كلّ شىء وأمرت أن أكون من المسلمين.

ص: ١٧٩

٤- منع كل أساليب تعكير صفو الأمن خلال أداء المناسك، كالكذب والجدال والفسوق، كما جاء في النص المجيد: الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج.

واللافت للنظر أن مناسك الحج - بكثرة عدد المشاركين فيها، واتساع الرقعة الجغرافية التي تمارس فيها - تتم دون وجود قائد ميداني يقود جماهير الحجاج نحو هدف ما مثلاً. بل إن كل فرد مسؤول مسؤوليته تامة عما يعمل به ويقوم به من مناسك في الطواف والصلاة والسعي والوقوف والرمي والنحر والمبيت. وهذا النظام الدقيق الذي ينفذ على مساحة جغرافية واسعة دون وجود قائد ميداني يقود الأفراد يعتبر من معجزات هذا السلوك الجمعي. ومناسك الحج هذه تتميز عن أعمال الحركات الاجتماعية التي لا تتحرك دون وجود قائد منظور ونظام اداري هرمي يسيطر على الحركة. ولكن تتميز مناسك الحج عن نشاط الحركات الاجتماعية بعكس تميز الخالق عز وجل الذي شرع تلك المناسك عن المخلوقات التي أنشأت الحركات الاجتماعية.

ولعل أحد أشكال الإعجاز الديني في الحج، هو أن هذه المناسك يقوم بها ملايين الحجاج من شتى المجتمعات والحضارات والتركيبات الثقافية، وبهذه الدقة، دون وجود تركيب اداري لادارة هذه الأعمال الجماعية كما يحصل غالباً في المؤسسات التعليمية والتجارية والعسكرية، ودون سلسلة قيادة لإدارة هذا الجمع العظيم من الأفراد.

إن الشعور بالأمان الجماعي خلال أداء المناسك يرسخ فكرة «الانتماء الاجتماعي» التي تعكس حاجة الانسان لتشخيص هويته الدينية والاجتماعية التي تميزه عن الغرباء.

ب- محاربة الانعزال الاجتماعي

ليس عجباً القول: بأن الانعزال الاجتماعي يعد من أخطر العوامل التي تؤدي

ص: ١٨٠

إلى الاضطرابات العقلية التي تصيب الفرد المحروم من المشاركة في النشاطات الاجتماعية. وليس غريباً أن نقول: بأن المسلمين هم أقل الفئات البشرية انعزلاً، وأقلهم إصابة بأمراض الاغتراب الاجتماعي. والنقطة الرئيسة هنا هي أن الحقيقة الخارجية التي يتم تصورها في ذهن الانسان لا يمكن بناؤها اجتماعياً الا - بمساعدة الآخرين، فنحن لانستطيع أن نفهم عقيدتنا في الخلق والتكوين والحياة الاجتماعية إلّا عن طريق رسائل يحملها الآخرون لنا. ولذلك، فإنّ للفرد طاقة نفسية لاستيعاب مفردات الحياة الاجتماعية وشروطها، وهذه الطاقة والقابلية النفسية لا بد من إشباعها حتى يتحقق الاجتماع الانساني الذي هو أصل بقاء الحياة الانسانية على وجه الأرض.

ويعدّ السجن الانفرادي من أكثر العقوبات قسوة ووحشية على الانسان؛ لأنّ الفرد بحاجة دائمية إلى الاتصال بالآخرين حتى يستطيع أن يحافظ على إحساسه المستمر بالحقائق الخارجية ويحافظ على الشعور بهويته الذاتية؛ ولذلك فإنّ الأفراد الذين يعاقبون بالسجن الانفرادي لفترة طويلة يفقدون إحساسهم بقيمة الوقت مع أنهم يحسبون الأيام عن طريق خطوط يرسمونها على جدران السجون. وعندما يفقدون إحساسهم بقيمة الوقت، فإنّ الشك يبدأ بالسيان إلى كلّ شيء في حياتهم، فلا يستطيعون - لاحقاً - الاطمئنان إلى الحقائق الخارجية التي اختبروها في حياتهم العامة سابقاً.

ولكن الانعزال والاغتراب الاجتماعي لا يكون دائماً نتيجة سجن انفرادي أو عزل قسري، بل قد يتولد من ضعف الانسان أمام المشاكل الاجتماعية، أو فقدانه المعنى الواضح للحياة، أو انهيار الجانب الاخلاقي الاجتماعي.

فالضعف الانساني تجاه المشاكل الاجتماعية التي جلبتها المادية الحديثة، وانعدام العدالة الاجتماعية، وانحلال الأواصر العائلية والأسرية أدّى إلى إحساس الفرد بغربته وانفصاله عن المجتمع الكبير الذي يعيش فيه؛ لان المشاكل

ص: ١٨١

الاجتماعية التي يعاني منها دون حلول واضحة تدفع الانسان المادى نحو الإدمان على المخدرات والكحول، وتجعله يسبح فى بحر من الاضطرابات النفسية والعقلية.

أما فقدان الفرد لشعوره لمعنى الحياة الانسانية وأهداف الخلق والوجود، فانه يساعد أيضاً على الاغتراب الاجتماعى، باعتبار أن قلق الفرد وعدم استقراره على عقيدة معينة يطمئن اليها لتفسير معانى الخلق والحياة والانسان تعطى ذلك الفرد صورة مرعبة قاتمة عن الحياة ودور الانسان فيها.

وكذلك الحال إذا واجه الفرد غياباً للأعراف والقيم الأخلاقية التي آمن بها، فانه سيشعر بأن سلوكه الأخلاقى غير مقبول اجتماعياً من قبل الفئة المسيطرة على النظام السياسى والاخلاقى والاقتصادى. وهى خطوة أولية نحو الاغتراب الاجتماعى.

ولكن الانعزال والغربة الاجتماعية انما هما تعبيران عن شعور الفرد المنعزل عن انسلاخه عن بقية الأفراد الذين يتعامل معهم. فالاغتراب الاجتماعى هو محاولة داخلية لرفض المجرى العام للنظام الاجتماعى من قبل المغترب، والاحساس العميق بأنه قد خُلِق فى زمان ومكان لم يكونا متلائمين مع بيئته الانسانية ومحيطه الاجتماعى. بمعنى أن الفرد المنعزل اجتماعياً يعلم فى داخله بأن المجتمع لا يكافئه مكافأة نفسية أو فكرية تساعد على الاندماج مع الآخرين، والسير مع السفينة الاجتماعية الماخرة فى عباب الزمن.

ولاشك أن الإسلام - باعتباره ديناً ورساله عالمية غير مقيدة بزمن معين - اهتم بقضية الاغتراب الانسانى، وعالج هذه المشكلة عبر حثه الأفراد على ضرورة الانتماء الاجتماعى التى لاحظنا أهميتها الفائقة فى كسر طوق الاضطرابات العقلية والنفسية. وكان الحج احد مصاديق محاربة الاغتراب الانسانى على مر التاريخ. ونظرة خاطفة لطبيعة الحج فى مكافحة الانعزال الاجتماعى، تبين لنا

ص: ١٨٢

النقاط التالية:

- ١- أن التهمؤ الاجتماعي للسفر يجمع الأفراد لفترة زمنية معينة، مما يساعدهم على كسر طوق العزلة الاجتماعية.
- ٢- أن فكرة الاستطاعة تشجع الأفراد على العمل الجاد من أجل التحصيل المالي والاكتفاء، وهذا يبعد الأفراد عن الكسل ويعددهم عن الانعزال أيضاً؛ لأن التكسب غالباً ما يكون جماعياً.
- ٣- أن مناسك الحج تعكس طبيعة التجمع الانساني، فالمسلك الجماعي في العبادة يمنح الفرد شعوراً بالاندماج مع الأمة الكبيرة المنتشرة في كل بقاع الأرض.
- ٤- أن الإسلام يكافح الانعزال الذاتي «الشخصي» عبر حثّ المكلف على الاتصال بالله سبحانه وتعالى، ويكافح الانعزال الموضوعي «الاجتماعي» عبر تطبيق الاحكام الشرعية على النظام الاجتماعي، وبذلك تسد الشريعة الطريق على الانعزال والاعتراب الاجتماعي بشكل مُحكم.
- ٥- العدالة الاجتماعية في الإسلام والمساعدات المتبادلة بين الأفراد أنفسهم، وبين الأفراد والدولة، وصله الرحم، كلها تقلل من فرص الانعزال الاجتماعي.
- والحج يعكس جانباً من جوانب العدالة الاجتماعية الكلية في الإسلام.
- ٦- يعتبر التقدم في السن أحد أسباب الانعزال الاجتماعي في المجتمعات المادية بسبب عدم قدرة المسنّ على الانتاج مما تسبب له مشاكل اقتصادية جمّة.
- وإذا اضفنا إلى ذلك مشاكل انحلال الروابط الأسرية بسبب التصنيع وتغيير الخارطة السكانية، يتضح لنا أن من أكثر الأمراض النفسية ظلاماً وتأثيراً على الفرد هو الانعزال الاجتماعي للمسنين. إلّا أن الاستطاعة الشرعية لأداء الحج غالباً ما تحصل عندما يتوسط عمر الانسان ويجمع مالاً من عرق جبينه ليحقق شروط الاستطاعة الشرعية. وليس هنا تمييز شرعي من أي نوع تجاه المسنين؛ لأن الدين ضمن منهجه الأخلاقي حثّ على احترام الكبير وضمن معيشته على

ص: ١٨٣

الصعيد العائلي أو صعيد الدولة. ولما كانت العلاقات العائلية في الإسلام متماسكة كان المسن أكثر الأفراد ثراءً في الخبرة والتعبد والعلاقات الاجتماعية، وأكثرهم بعداً عن الانعزال الاجتماعي.

وبكلمة، فإنّ الاطار الاجتماعي لمناسك الحج، تدفع الناس نحو التماسك والتعاون الذي يتحول لاحقاً إلى لبنه من لبنات بناء الدولة الإسلامية العالمية.

ولاشك أن النشاطات الشرعية للحج الإسلامي إنما تساعد جميع الأفراد على كسر طوق الانعزال الاجتماعي والغربة الانسانية التي نلاحظ مساوئها النفسية في عالم اليوم.

ج- فلسفة الاقتناع

ويبرز سؤال مهم هنا، وهو: ما هي الظروف الموضوعية التي تكون سبباً قوياً لتغيير اتجاهات الأفراد واعتقاداتهم وسلوكهم؟ وكيف نصدّق بأنّ ذلك التغيير سيكون تغييراً جوهرياً حقيقياً وليس تغييراً سطحياً ظاهرياً لا معنى له؟

لاشك أننا نتعرض يومياً إلى محاولات اجتماعية عديدة للتأثير علينا في التفكير والشعور والسلوك، وهذه المحاولات تهدف إلى إقناعنا بقبول أو رفض سلوك وتفكير معين، وبطبيعة الحال فإنّ الإقناع لا يتحقق ما لم يتم تغيير اتجاه الأفراد المراد اقناعهم.

ولكى نفهم طرق الاقتناع، لابد أن نفهم أصول الاتجاه الانساني وهي ثلاثة:

(١) العقيدة التي يؤمن بها الانسان. (٢) القضايا العاطفية المرصوفة بين أحجار تلك العقيدة. (٣) النية، والقدرة على الاستجابة للمحفزات الخارجية.

فعندما نكوّن اتجاهنا نحو الأشياء والظواهر الخارجية التي من حولنا، فإننا نحتاج إلى معلومات يقدمها لنا الآخرون:

أولاً: أن من أهم وسائل الاقتناع لتثبيت أو تغيير اتجاهاتنا هو كمية المعلومات الواردة إلى أذهاننا من المصادر الخارجية.

ص: ١٨٤

ثانياً: ملاحظة سلوك القادة يؤثر دائماً على أفكارنا.

ثالثاً: نظام الثواب والعقاب يؤثر دائماً على توجهاتنا السلوكية.

وفيما نحن فيه، تعتبر ساحة الحج من أنشط الأماكن الاجتماعية فعالية في الإقناع؛ لأنّ الحجيج يأتون من مختلف بقاع العالم وهم يحملون معلومات جديدة عن الخبرات الاجتماعية والدينية في مجتمعاتهم. ويتعرض الحجيج إلى فعالية التأثير السلوكي للذين يحتلون موقعاً متميزاً على صعيد القيادة الدينية والحركية والثقافية الإسلامية في مجتمعاتهم المتباينة. ولا شك أنّ التبليغ الإسلامي الذي ينبغي أن يقوم به المبلّغون- وهو يشمل تذكير الحجيج بالثواب والعقاب الآخروي الذي تعرض له القرآن الكريم- يعدّ وسيلة أخرى من وسائل الإقناع الاجتماعي بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية على كلّ أركان الحياة الاجتماعية الإسلامية.

ومع أنّ فلسفة الإقناع وتطبيقاتها قد تطورت في العقود الأخيرة، إلا أنّ مبادئها قديمة قدم فكرة: المصدر، الرسالة، الجمهور. وهي من أهم متغيرات الإقناع؛ وتلخص بالأسئلة الثلاثة: «من الذي يخاطب من؟ ويقول ما؟ وما هو التأثير؟».

وحتى لو فهمنا الحج من هذا المنظار؛ لرأينا أنّ هذا العمل العبادي يجمع كلّ متغيرات الإقناع التي لازال الفلاسفة يناقشونها لحد اليوم. فالحاج المبلّغ- وهو مصدر الإقناع- ينبغي أن يجمع ما بين الخبرة، والثقة، والمنزلة العلمية والاجتماعية، والجاذبية الخارجية والذاتية. والرسالة ينبغي أن تحمل كلّ معاني الجذب العقلاني والعاطفي، والاسلوب اللغوي الفصيح، والموضوعية في طرح الإيجابيات والسلبيات. والجمهور ينبغي أن يكون على درجة من الاستعداد لتقبل المعلومات من أجل الاقتناع.

وهذه المتغيرات- في واقع الأمر- لها مدلولاتها العملية في إقناع الناس بضرورة تطبيق المفردات الشرعية والوصول إلى التغيير الاجتماعي المنشود.

ص: ١٨٥

ولاشك أن من أهم خطوات عملية الاقتناع هو أن يشعر الأفراد جميعاً بالمساواة الحقوقية والاجتماعية فيما بينهم. فإذا تفاوتت طبقاتهم في المجتمع، انعدمت - عندئذٍ - وسائل الاقتناع الذاتية الحقيقية؛ لأنّ الاقتناع الجديد المفروض من قبل طبقة أقوى سيكون مجرد إكراه يرضخ لشروطه الأفراد، وهذه المسألة مهمة في الحج أيضاً، فشعور الحجيج بالمساواة التامة يفتح أبواباً عديدة للإقناع الشرعي بضرورة التغيير الاجتماعي.

نقطة أخرى مهمة، وهي أنّ إيجابية طرح الأفكار المقتنعة يؤدي إلى إيجابية القبول والاقتناع من قبل الحجيج. ومثال ذلك، لو أن فرداً حاول إقناع الآخرين بتطبيق الأحكام الشرعية عن طريق عرض العقوبات الإسلامية والجزاء الرادع مجرداً من أي إشارة إلى الرحمة الإلهية والمغفرة والثواب الأخرى، فإن ذلك التبليغ سوف لا يشجع الأفراد على الاقتناع بتلك الأفكار ما لم يلازمها طرح موازٍ للعفو والغفران الإلهي.

نقطة ثالثة، وهي أنّ السلوك الإنساني لا يتبدل إلّا بتبدل الاتجاه الداخلي للفرد.

فالفرد لا يسلك سلوكاً مختلفاً ما لم تؤثر عليه قوة فكرية عظيمة تستطيع أن تصل إلى قرارة نفسه وأعماق وجدانه، فتغير اتجاهه الذاتي نحو العقائد والأفكار، وعندها فقط يتبدل سلوكه الشخصي أو الاجتماعي. ومن المهم أن نعلم أنّ الرسالة الدينية كانت ولا تزال تهدف بالاصل وبشكل واضح إلى تغيير اتجاه الأفراد أولاً عن طريق تغيير توجه القلوب كما أشارت إلى ذلك الآية القرآنية الكريمة بصدق:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ. وَإِذَا مَا تَمَّ تَغْيِيرُ اتِّجَاهَاتِ الْقُلُوبِ، فَإِنَّ تَبْدِيلَ السُّلُوكِ سَيَكُونُ أَمْرًا مُمْكِنًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ طَبِيعًا.

ولكن إذا قاوم الفرد وسائل الاقتناع لاعتبارات ذاتية محضة، فماذا يحصل؟

لا شك أن الفرد لا يستطيع أن يعيش في تنافر ذاتي بين قوتين تجذبه كل منهما نحو

ص: ١٨٦

الطرف المضاد. فلنفترض أن فرداً ما كان يرتكب عملاً مخالفاً للشريعة - مساندةً الظالم مثلاً - ثم التقاه عالم من علماء الدين وعرض عليه فكرة العقوبة الأخروية إذا لم يتوقف عن ارتكاب ذلك العمل، ملمحاً إلى ابواب التوبة التي فتحتها الدين أمام المذنبين. فلكى يزول هذا التنافر بين الطبيعة الفطرية التي يمثلها الدين وبين المخالفة الشرعية التي ترفضها الفطرة الانسانية، يقف ذلك الفرد أمام نظرية الاقتناع عبر الخطوات التالية:

- أ- يغير اعتقاده بأن المخالفة عمل طبيعي مستساغ.
 - ب- يغير سلوكه السابق، وذلك بالتوقف عن ارتكاب تلك المخالفة الشرعية.
 - ج- يعيد تقييم سلوكه بالتوبة والاستغفار.
 - د- يضيف بعداً جديداً إلى تفكيره الجديد حول الالتزام بتطبيق الأحكام الشرعية.
- إن الإنسان - مهما كان اعتقاده - ملزم ذاتياً بتقليل التنافر الفكري الداخلي إلى أدنى حد ممكن؛ لأن التنافر بين ما يعتقد الفرد وبين ما يعمل يؤدي إلى تمزيقه نفسياً وعقلياً؛ ولذلك كانت الرسالة الدينية - ورسالة الحج بالخصوص - منسجمة تماماً مع الفطرة الانسانية، كما اشار القرآن المجيد إلى ذلك: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. هذه ملامح مختصرة عن الأبعاد الاجتماعية لمناسك الحج، وقد عرضناها كمدخل لدراسة الفهم الاجتماعي لفريضة الحج عند السيد الإمام الخميني قدس سره.

ثانياً: الإمام الخميني قدس سره والحج

تعرض الإمام الخميني قدس سره لأفكار الحج بكثير من الدقة الاجتماعية، وحاول ان يرسخ في ذهن الأمة فكرة مهمة. وهي أن مناسك الحج ليست مناسك روحية فحسب، بل إن لها مقاصد وملاكات اجتماعية على نطاق المسلمين في العالم أجمع.

ص: ١٨٧

وسوف نعرض خمس عشرة فكرة من أفكار الإمام قدس سره حول الحج مع تعليق مختصر على كل منها.

(١) الفريضة ذات المحتوى الاجتماعي

يقول الإمام قدس سره في إحدى رسائله واصفاً فريضة الحج بالقول: «نظراً لاقتراب أيام إقامة واحدة من الفرائض الإسلامية الكبرى ذات المحتوى الانساني، الروحي، السياسي، الاجتماعي، العظيم، أعني فريضة حج بيت الله الحرام يلزم... تطهير هذه الفريضة المقدسة من آثار الطاغوت لتعود إلى الإسلام الحقيقي...».

تعليق: تعدد مناسك الحج التي شرعها الإسلام شكلاً من أشكال السلوك الجمعي ووجهها من أوجه التفاعل الروحي والاجتماعي بين المسلمين. ومع أننا ننظر إلى الحج من زاوية: الأحكام الشرعية التي تلزم الفرد بوجوب الحضور عند تحقق الاستطاعة الشرعية، وما يرافق ذلك الحضور من إلهامات في تطبيق تلك الأحكام. وننظر إلى تلك العبادة أيضاً من زاوية الإطار الروحي الذي يتجسد في الرحلة الشاقة إلى بيت الله الحرام وما يرافقها من سمو أخلاقي عظيم يرفع الفرد المكلف إلى أعلى درجات الكمال النفسي والروحي مع خالقه العظيم. إلا أن الحق هو أن هناك جانباً ثالثاً خطيراً من جوانب الحج، ألا وهو الجانب الاجتماعي وما يرافقه من سلوك جمعي عالمي ينتهي إلى تغيير اجتماعي له أبعاد خطيرة.

ولما كانت مناسك الحج على درجة عظيمة من الأهمية على الصعيد الشرعي، فإننا نفترض أن ينبثق عن تلك الفريضة لوان من ألوان النشاط الانساني.

اللون الأول: هو النشاط التعبدى الفردى وما يصاحبه من خشوع وتواضع وتذلل للمولى عز وجل.

اللون الثانى: هو النشاط الاجتماعى الذى يتمثل بالسلوك المشترك بين المتعبدى، وما ينتج عنه من تفاعل بين الأفراد من مختلف الأجناس، ويؤدى

ص: ١٨٨

بالنهاية إلى التغيير الاجتماعي الذي هو الأصل في نشاطات السلوك الجمعي.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك، بل إنَّ الحج يولد شعوراً لدى الأفراد المندمجين بمناسكه وأفعاله، بالوحدة الكونية التي تجمع الخلق والمخلوقات. فالنظام الكوني في الحركة والدوران والبدائية والنهاية ينعكس بشكل من الأشكال على هذه الأفعال التعبديّة المنتظمة كالطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والصعود إلى جبل عرفات، والإفاضة إلى المزدلفة، ونحوها. وهذا الانسجام في طبيعته مناسك الحج يبرز شكلاً جديداً من أشكال التنظيم الاجتماعي الديني الذي يستحق تأملاً دقيقاً في أهدافه ومقاصده الحيّاتية.

(٢) هذا المؤتمر العظيم

يشير الإمام قدس سره إلى مناسك الحج ومناسبتها، فيصفها بالمؤتمر العظيم. يقول قدس سره:

«لا يخفى على أحد أن إقامة مثل هذا المؤتمر العظيم لا يتسنى لأيّة شخصيّة ولا لايّة حكومة. فهذا امر الله تعالى هو الذي أعدّ هذا التجمع الكبير».

تعليق: إنَّ الإسلام لم يقدّم للبشرية أعظم نظريات السلوك الجمعي فحسب، بل وضع الأفراد على محك التكليف الشرعي العملي وأوجب عليهم - عند تحقق الاستطاعة الشرعية وضمن تحديد زمني معين - التوجه إلى بيت الله الحرام في وسط صحراء الجزيرة العربية القاحلة لأداء تلك المناسك الشرعية في الطواف والصلاة والسعي والوقوف والنحر والمبيت. والتزام الأفراد بهذا العمل على مدى القرون المتتالية، مع ملاحظة المشاق التي كان يعاني منها الفرد في التنقل، عبّر عن حقيقتين:

الأولى: حقيقة الرسالة الإسلامية وارتباطها بالتصميم الإلهي للخلق والمخلوقات. فلو قامت أيّة حركة اجتماعية أو حزب سياسي بدعوة الناس إلى التجمع في ذلك المكان الصحراوي في وقت محدد من كلّ عام، لما استجاب لتلك الدعوة أحد.

ص: ١٨٩

الثانية: أنها عبرت عن أنّ النتائج المترتبة على تأدية تلك المناسك إنما تثمر على صعيدين: فردي: وهو ما يتعلق بالتهذيب الروحي للذات.

وجماعي: وهو ما يتعلق بتهذيب المجتمع الانساني الكبير.

ولاشك أن الآثار الناتجة عن مناسك الحج يمكن فهمها على أساس أنها آثار مؤتمر عظيم للمكلفين من اهل الأرض، قد دعت له السماء.

(٣) المعاني والاشارات

يشير الإمام قدس سره إلى أنّ أعمال الحج التعبديّة لا يمكن أن تؤخذ على ظاهرها، بل لابد من فهم معانيها، ف: «الطواف حول بيت الله مؤشّر لعدم الالتفاف حول غير الله، ورجم العقبات رجم شياطين الانس والجن...».

تعليق: بالرغم من أنّ اللغة تعتبر وسيلة مهمة من وسائل التفاعل الاجتماعي، إلا أنّ الاتصال غير الشفهي - وهو تبادل المعلومات أو التعبير عن عمل ما بواسطة رموز غير لغويّة كالاشارات والتعابير الجسديّة - يعتبر مهماً أيضاً في وسائل الاتصال الاجتماعي والديني. فيستطيع الجسم الانساني عموماً - والوجه البشري بالخصوص - القيام بحركات متنوعة، كالغضب والحزن والفرح والتعجب والخوف والقلق ونحوها.

ولاريب أنّ حركات الجسم الانساني تبعث بشكل مباشر أو غير مباشر برسائل ورموز مفهومه على الصعيدين الاجتماعي والديني. ومن الواضح أنّ الاشارات والتعابير الجسديّة تختلف من مجتمع إلى آخر حسب التركيبة الثقافيّة والدينيّة التي يعيشها الأفراد في ذلك المجتمع، فهذه الاشارات تستطيع ان تبعث برسائل اجتماعية فعالة بين الأفراد.

ولكن الاشارات والتعابير الجسديّة غير محدودة بحدود الاشارات الاجتماعيّة، بل إنّ لها معاني دينية وروحية. فالدين، وفهماً منه لطبيعة الانسان في

ص: ١٩٠

التعبير استخدم الاشارات والتعابير الجسدية في العبادات كالصلاة والحج.

فالصلاة بشكلها الخارجى، كاستحباب رفع اليدين إلى الأذنين أو حيال الوجه فى تكبيره الاحرام، والوقوف فى القراءة، والانحناء فى الركوع والسجود، والجلوس فى التسليم، ورفع اليدين عند الدعاء ما هى الا تعابير جسدية للاتصال بالخالق عز وجل عبر اللغة والتعبير الجسدى الشرعى الذى وضعه الشارع عز وجل للمكلف. والطواف، والسعى، والوقوف فى عرفات والمشعر الحرام، والرمى، والمبيت فى منى هى أيضاً تعابير جسدية لطبيعة هذه العبادة الواجبة على المكلفين.

والذى يهمنى على هذا الصعيد هو أن التعابير الجسدية فى الحج هى وسيلة من وسائل التفاعل الاجتماعى، لأن الجدية فى أداء المناسك والتى تعكسها تلك التعابير الجسدية من الخوف من الخالق عز وجل، والبكاء خشية منه، والتضرع والدعاء، وانتظام الجسم فى الطواف، والاسراع فى بعض مراحل السعى، كلها تساهم فى عملية التماسك الدينى بين الأفراد؛ خصوصاً عندما يشعر الأفراد أنهم يؤدون هذه المناسك مجتمعين، فتكون التعابير الجسدية وسيلة من وسائل انتظام الأفراد وانضباطهم كأمة لها كيائها الروحى والفكرى والعبادى المتميز. ولاشك أن هذه التعابير الجسدية الجماعية فى ممارسته الفريضة تساهم فى إنشاء انسجام داخلى بين المسلمين له أبعاده الاجتماعية العظيمة.

اذن، فان رجم الشيطان أو الطواف حول البيت ينبغى أن يكونا مؤشرين لحسن توجه المكلف نحو الله سبحانه وتعالى. فالهدف هو الوصول إلى الله سبحانه عبر هذه الوسائل.

(٤) القدرة العقلية

يقول الإمام قدس سره ضمن وصاياه فى الحج: «... يلزم تذكير السادة العلماء، وعلماء الدين المتمرسين المرافقين للقوافل بتشكيل جلسات قبل الحركة؛ لتعريف الحجاج المحترمين على المسائل الشرعية والواجبات الانسانية».

ص: ١٩١

تعليق: لاشك أن العلم بالأحكام الشرعية الخاصة بالمناسك ضروري من أجل أدائها بصورة صحيحة. ولعل أهم ما ينتجه الجانب التطبيقي المتعلق بمناسك الحج هو التغيير الناتج من ملاقاته بالحجيج بعضهم مع بعض. فالتكليف الوجوبي لتأدية تلك الفريضة مرهون بشروط ثلاثة، وهي: البلوغ والعقل والاستطاعة.

بمعنى أن القدرة المالية والعقلية هي التي تحدد وجوب الحج. ولكن إذا استثنينا القدرة المالية باعتبارها مجرد وسيلة للوصول لتأدية أعمال الحج، بقيت لدينا القدرة العقلية، وهي الأصل في التغيير الاجتماعي. أي أن المكلفين الذين يجتمعون لأداء المناسك هم الذين لديهم القابلية الفكرية والاستعداد النفسي على استيعاب شروط ومفردات التغيير الاجتماعي. ولاشك أن الحجيج يفدون من مجتمعات إنسانية متباينة في الفكر واللغة والعادات الاجتماعية والثقافية، والحج لا يؤخذهم على صعيد السلوك العبادي فحسب، بل على صعيد الفهم الاجتماعي لطبيعة المجتمعات الأخرى. ومثال ذلك، أن المكلفين المنتمين لمجتمع أكثر تطبيقاً لأحكام الإسلام وإلزاماته الأخلاقية، إذا تواجدوا على ساحات البيت الحرام وحرم مكة فإنهم سيتميزون عن غيرهم من بقية أفراد المجتمعات، بسبب تطابق سلوكهم مع السلوك الشرعي. وهذا السلوك العملي القريب من جوهر الإسلام سيترك آثاره الواضحة على بقية الأفراد من المجتمعات الأخرى. وبسبب هذا التفاعل الاجتماعي، فإن المسلمين على اختلاف تركيباتهم الثقافية والاجتماعية سيكتسبون بعضهم من بعض بما يرفع من مستواهم الأخلاقي والتطبيقي بالمقدار الذي ينسجم مع الشريعة، وهذا هو المقصود من التغيير الاجتماعي المطلوب. وثمة عامل آخر مهم ينبثق عن مناسك الحج، ويقوم بدور البناء الاجتماعي أيضاً، وهو ترسيخ دور القيادة الدينية المرجعية في حياة الأمة الإسلامية؛ لأن المفترض بالحجيج أن يقلدوا فقيهاً مرجعاً يرشدتهم إلى تعاليم دينهم، وهذه القيادة الشرعية الفكرية لها مردودها الإيجابي على انسياب العمل الاجتماعي، وانسجام

ص: ١٩٢

الأفراد في توجهاتهم العملية والروحية. ولاريب أن القيادة العلمانية تستطيع أن تفرض التغيير الاجتماعي على الأفراد، إلا أن ذلك ليس من طبيعة الرسالة الإسلامية التي تهتم بالفرد اهتماماً شاملاً، وتحمله مسؤولية القيام بالعمل العبادي الفردي والعمل الاجتماعي على خط متواز كما نتلمس ذلك من روح النص المجيد:

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ولذلك فإن دور الفقيه هو إرشاد الأفراد نحو ضمان صحة تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، خصوصاً فيما يتعلق بمناسك الحج التي نحن بصدددها. إلا أن التفاعل الاجتماعي بين الأفراد وما يحققه من نتائج عظيمة في التغيير الاجتماعي هو من مسؤولية الأفراد أنفسهم.

ويجب ان لا- يغيب عن بالنا أبداً أن هؤلاء الأفراد لديهم القابلية العقلية والفكرية المشروطة في التكليف الشرعي الخاص بوجوب الحج، على اتصال مجتمعاتهم إلى مستوى الكمال الروحي والاجتماعي الذي صممه لهم الإسلام.

(٥) سفر إلى الله

يقول الإمام قدس سره: «اعلموا أن سفر الحج ليس سفر تكسب، ليس سفر حصول على متاع الدنيا، انه سفر إلى الله. أنتم تتجهون إلى بيت الله، فعليكم أن تؤدوا كل الأمور في إطار الهى...».

تعليق: إن هذا السلوك الجمعي «أداء المناسك» هو سفر خالص إلى الله.

والسفر إلى الله يقتضى طهارة استثنائية. فأداء المناسك مبنئ على طهارة الحجيج من النجاسات المادية كالحدث والخبث، والنجاسات الروحية كالجدال والفسوق، ومبنئ على إلزامهم بارتداء زيٍّ مَوْحَدٍ يُعَدُّ من أبسط الأزياء الانسانية، وعلى حثهم على مراقبة سلوكهم في عدم إيذاء الكائنات الحية كالحيوانات والأشجار، بل كل ما يخص البيئة الانسانية وما حولها. ولاشك أن هذا التهذيب الفردي ضمن السلوك الجماعي يترك آثاره النفسية والتربوية العميقة داخل شخصيات الأفراد.

ص: ١٩٣

إنّ الطهارة الروحية والمادية تعتبران من أهم مميزات السلوك الجمعي الإسلامي. ففي الطواف بالبيت تتوجب - إجماعاً - الطهارة من الحدث الأكبر وهو ما يوجب الغسل، والأصغر وهو ما يوجب الوضوء، باعتبار أنّ الطواف بالبيت صلاة، كما جاء في المشهور من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله. وكذلك تتوجب طهارة المرأة من الحيض. وبذلك يكون السلوك الجمعي الإسلامي من أظهر التجمعات الانسانية على وجه الأرض؛ حيث يتجمع للطواف والسعي وبقية المناسك، الملايين من الأفراد وهم على أتم أشكال الطهارة البدنية والروحية.

(٦) رداء الحج والانسجام الاجتماعي

يقول الإمام قدس سره بشأن رداء الحج وتأثيره على الانسجام الاجتماعي بين المسلمين: «المسألة الأساسية في هذه الاجتماعات - يعنى مناسك الحج - هي أن يجتمع المسلمون معاً في هذه المواقف في جوّ خالٍ من التشريفات وبعيد عن كلّ الجوانب الذاتية وبكفن واحد أو بثوبين بسيطين».

تعليق: إنّ الموضوع في الأنظمة المادية تستهلك جزءاً كبيراً من موارد النظام الاجتماعي المادية؛ لأنها تصميم مؤقت يستبدل دائماً بتصميم آخر، خصوصاً الملابس وما يتعلق منها بالمظهر الخارجي للفرد. ويعتبر الفرد - الذي يعيش في المجتمع المادي ولا يساهم في الموضوعات الحديثة المتناوبة الصدور - كائناً انزالياً خارجاً عن إطار الانسجام الاجتماعي. ولكن الحج يُشعر الفرد بأنّ الزى ما هو الا وسيلة من وسائل تغطية مساوي الانسان فحسب، وليس مظهراً من مظاهر الطبقة والثراء والتميز والتفاضل الانساني. فارتداء ثياب الاحرام البسيطة توفر للنظام الاجتماعي الانساني موارد غير قليلة، عندما يتحتم على الحجيج ارتداؤها، وهي ثوبا الاحرام للرجل يأتزر بأحدهما، ويرتدى الآخر. ولاشك ان وجوب ارتداء قطعتين من قماش غير مخيط، لابد من أن يجعل الفرد يشعر بقيمته الحقيقية وتواضعه في الحياة الاجتماعية.

ص: ١٩٤

ويمكن اعتبار أعمال الحج من أكمل أشكال السلوك الجمعي، لما تتميز به من دقة وتنظيم، مع أنه خالٍ من التشريعات. فالمناسك التعبدية الجماعية التي يقوم بها الأفراد في الحج تختلف تماماً عن نشاط الحركات الاجتماعية مثلها، وأعمال الكنائس النصرانية والمعابد اليهودية، وتختلف تماماً عن كل سلوك الجمعي آخر. ومن المناسب على سبيل الافتراض أن نطلق على السلوك التعبدية والاجتماعية الذي يقوم به الأفراد في الحج بالسلوك الجمعي الإسلامي، حتى يتميز عن بقية أشكال التصرفات التي تفسرها الأفكار الدينية والاجتماعية الأخرى.

ولعل منشأ اختلاف أعمال الحج عن أعمال الأفراد المنضوين تحت راية الحركات الاجتماعية هو أن الأعمال العبادية للمكلفين في الحج مع أنها خاضعة لاحكام الشرعية بدقة، إلا أن التأثير والتأثير الذي يحصل بين الأفراد في الطواف، والسعي، والوقوف في عرفات، والافاضة إلى المزدلفة، والمبيت في منى، يخرج أعمال الحج عن أعمال الحركات الاجتماعية المحضة التي تهدف بالأساس إلى إيصال صوتها إلى الجهات السياسية فقط. بينما يؤدي الحج ومناسكه العظيمة إلى إكمال العمل العبادي وإلى انسجام فكري وروحي بين الحجاج.

(٧) تبادل المعلومات

يقول الإمام قدس سره بشأن بعض وظائف الحج: «المهم - في هذه التجمعات - أن تبادلوا المعلومات بشأن ما مرّ في بلاد المسلمين...». تعليق: لما كانت المجتمعات الانسانية تختلف في درجات الرقي والتقدم الحضاري والثقافي، فإن اجتماع الناس من مستويات متباينة في الابداع يساهم في تبادل المعلومات وفي التأثير البناء على الصعيد الانساني العالمي. ولاشك أن تعدد المواقف في الحج والفترة التي يقضيها الحجاج قبل مناسك الحج وبعدها، تمنح هؤلاء الأفراد فرصة عظيمة للتفاعل والتأثير الاجتماعي فيما بينهم. وتبادل المعلومات، على اطلاقه، يعني انتشار المعرفة والعلم بأوضاع المجتمعات بين

ص: ١٩٥

المسلمين.

بيد أن مقتضيات تبادل المعلومات خلال أداء المناسك وبعدها تؤدي إلى تغيير هائل يتم على صعيدين:

الصعيد الأول: التغيير الروحي والتطهير النفسي من آثام الانحراف، فقد ورد في النص المجيد: واذ بؤنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود. فطهارة البيت الحرام من عبادة الأوثان يجعل تلك البقعة من أطهر المناطق الجغرافية على وجه الأرض. فهذه الأرض الطاهرة تحمل وقت الحج، بل في كل وقت، أطهر الأفراد وأنقاها؛ لأنهم يعيشون حالة من حالات الكمال النفسي مع خالقهم العظيم؛ فمنهم «الطائفون» حول البيت، و «القائمون» و «الركع السجود».

الصعيد الثاني: هو التغيير الاجتماعي الذي عكسته الآية الشريفة بصدق ليشهدوا منافع لهم. خصوصاً إذا ما لاحظنا أن التحديد الزمني للحج الوارد في قوله تعالى: ويزكروا اسم الله في أيام معلومات، والتحديد الجغرافي: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً، ودعوة الأفراد للاشتراك: واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، كل ذلك يجعل الحج وأعماله من أعظم وسائل التغيير المنشود.

(٨) مدار الأمر: المسلمون

ويقول قدس سره: «... وأن يفكروا في حل مشاكل المسلمين».

تعليق: إن الدليل على أن التأثير الاجتماعي والتأثير يجب أن يتم بين المسلمين أنفسهم خلال مناسك الحج، هو عدم السماح للمشركون بالدخول إلى حرم مكة والتأثير على شعائر الحج العبادية، وما يصحبها من تغيير اجتماعي مرتقب. ولعل ما ورد في القرآن الكريم يصرح بذلك: يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا. والمراد بالنجس هو النجاسة

ص: ١٩٦

الشرعية، ولا يقربوا المسجد الحرام هو منعهم من دخوله ودخول كل مسجد.

(٩) تبادل وجهات النظر

يقول الإمام قدس سره شارحاً طبيعة الحج الإبراهيمي: «تبادلوا وجهات النظر وتفاهموا لحلّ مسائل المسلمين المستعصية. اعلموا أنّ هذا الاجتماع الكبير الذي يعقد سنوياً بأمر الله تعالى في هذه الأرض المقدسة يفرض عليكم انتم المسلمين ان تبذلوا الجهود على طريق الاهداف الإسلامية المقدسة ومقاصد الشريعة المطهرة السامية، وعلى طريق تقدم المسلمين وتعاليمهم واتحاد المجتمع الإسلامي وتلاحمه».

تعليق: إنّ تعلم الخبرات الاجتماعية من أفراد يختلفون تماماً في المنشأ واللون واللغة والمكان، يساهم مساهمة عظيمة في بناء الدولة العالمية الموحدة، وهو دليل على عالمية الإسلام، وعالمية الرسالة السماوية على النطاقين النظري والتطبيقي. ولا شك أنّ السلوك الجمعي في احكام الحج يصهر تلك الخبرات الاجتماعية، فيتعلم المسلمون الوافدون من قارات العالم المختلفة بعضهم من بعض التقاليد والعادات الاجتماعية والعلوم النظرية والثقافات والقضايا الفكرية، وهذا يؤدي حتماً إلى تقارب في وجهات النظر الفردية والجماعية بخصوص المشاكل التي تعاني منها تلك المجتمعات. ولما كان الفرد مُكَلَّفاً على الصعيد الوجوبي بالحج مرة واحدة عند تحقق الشروط، فإن اختلاف نوعية الأفراد المكلفين بالحج كلّ سنة يساهم في نقل الخبرات الاجتماعية فيما بينهم، ويقلل من فرص احتكار تلك الفريضة على طبقة معينة من الأفراد. وبالتالي، فانه يساهم في ازدهار نمو تلك المجتمعات البشرية المتباينة في العادات والتقاليد والثقافات.

(١٠) اشتراك الافكار

يقول الإمام قدس سره شارحاً طبيعة التجمع: «لتشترك أفكاركم وعزائمكم على طريق الاستقلال واقتلاع جذور سرطان الاستعمار».

تعليق: إنّ المناسك التعبدية الجماعية تولّد إحساساً عظيماً بالشعور الموحد

ص: ١٩٧

تجاه المشاكل المشتركة، بل حتى فيما يتعلق بطبيعة الانسان ووحدة الخالق عز وجل. ولاشك أن التأثير الاجتماعي في الحج ينبع من وعى أبعاد تلك الفريضة من قبل المكلفين، وقد جاء في «كتاب أمير المؤمنين على عليه السلام إلى (قثم بن عباس) عامله على مكة فقال: أقم للناس في الحج واجلس لهم العصرين فأفت المستفتي وعلم الجاهل وذاكر العالم...». وهذا العمل - لاشك - يعتبر من أعظم وسائل التأثير الاجتماعي على الناس.

ورساله الدين على درجة عظيمة من الأهمية على صعيد التأثير، لأن تلك الرسالة تهذب نظرة الأفراد وتوحيدها تجاه الحياة الاجتماعية والسياسية والخلق والخالق والوجود. فالفرد يقارن رأيه مع فرد آخر يشابهه في الدين والاعتقاد، ولا يكثر كثيراً لفرد آخر يتعد عنه في الدين والمنشأ الاعتقادي والموقع الجغرافي. وإذا كان البعد شاسعاً بين آراء ذلك الفرد ومعتقداته وبين آراء الآخرين ومعتقداتهم، فإن التأثير الاجتماعي سيكون في أدنى مستوياته. فالفرد الذي يعتنق ديانته معينة ويعيش في قرية أفريقية مثلاً لا يمكن أن يكون له تأثير اجتماعي على أفراد يعتنقون ديانته أخرى ويعيشون في مدينة آسيوية نائية. وعلى ضوء ذلك، نفهم أن التأثير الاجتماعي يحصل غالباً بين الأفراد الذين يعتنقون ديناً واحداً ويؤمنون بنظام عقائدي واحد، فيما إذا اجتمعوا في مكان واحد؛ لأن اجتماع هؤلاء الأفراد في مكان واحد سيولد ضغطاً نحو الانسجام الاجتماعي. وهذا الضغط هو الذي يبذل قلوب الناس بعضهم تجاه بعض آخر، ويجعلهم أكثر اقتناعاً بضرورة تقاربهم الفكري والسلوكي. وهذا عين ما يحصل أثناء مناسك الحج العظيمة وقبلها وبعدها.

(١١) المسائل الاساسية

يشير الإمام قدس سره في تشخيصه لطبيعة المسائل التي ينبغي تناولها في الحج، فيقول: «... وفي هذا الاجتماع المقدس للحج عليهم أن يتبادلوا وجهات النظر في

ص: ١٩٨

المسائل الإسلامية الأساسية أولاً، وفي المسائل الخاصة للبلدان الإسلامية ثانياً...».

تعليق: يمرّ التأثير الديني على الناس بمراحل ثلاث. ولنفترض أنّ طالباً يذهب إلى محاضرة ما؛ فذلك الطالب يمر بمراحل فكرية ثلاث تشخص تقبله للفكرة التي يطرحها المحاضر.

فالمرحلة الأولى: انفتاح ذهنيّ ذلك الطالب وتهيؤه لتقبل مفردات التأثير والتأثير. بمعنى أنّ الفرد الذي يبذل جهده للذهاب إلى إحدى مجالس الدرس للاستماع إلى محاضرة في علم السياسة مثلاً، لا بد له من تهيئة ذهنه بشكل مسبق لتقبل أو رفض النظريات السياسية التي يقدمها المحاضر.

المرحلة الثانية: تشخيص المستمع للنقص الفكري الذي يعاني منه، أو حاجته لتقبل الأفكار والمعتقدات التي يطرحها الطرف المقابل؛ ومصادقها أنّ المستمع إذا لاحظ أن المحاضر - في مثالنا السابق - قد قدّم نظرية جديدة مقنعة، فاقنع هذا المستمع بصحتها وانسجام مفرداتها مع الواقع، عندئذ يمسى هذا الطالب أقرب إيماناً بتلك النظرية.

المرحلة الثالثة: هضم الفرد للفكر المطروح من أجل التأثير، وتقبله لذلك التأثير باعتباره فكراً يتناسب مع نظامه الأخلاقي الذي آمن به، وهذه المرحلة تعكس إيمان الفرد - في المثال المذكور سابقاً - بأن تبني تلك النظرية المطروحة من قبل المحاضر سيكون أمراً شخصياً حتمياً.

ومن المسلم به بين أواسط علماء أهل الفن، أنّ التجانس الاجتماعي يعتبر من أهم عناصر التأثير السياسي والفكري على الأفراد؛ لأنّ التأثير الحقيقي لا يعمل عمله الفعال إلّا مع أفراد متقاربين في الفكر والاعتقاد؛ بمعنى أنّ التأثير الاجتماعي يتم بين أفراد متقاربين فكراً أكثر مما لو كان بين أفراد يختلفون تماماً في الفكر والمعتقد؛ ولذلك، فإن الحج واقعاً هو أعظم ساحة للتأثيرات والتغيرات الاجتماعية التي تهدف الرسالة الإسلامية إحداثها على الصعيد العالمي. ولولا طاعة

ص: ١٩٩

الأفراد للرسالة الدينية وأحكامها الشرعية لما حصل التأثير الاجتماعي المنشود.

فإطاعة الأفراد للنظام الديني طوعية اختيارية إذا كانت السلطة سلطة شرعية، بمعنى أن الأفراد يحاولون - بصدق - إطاعة النظام الديني أو الاجتماعي إذا لم تُسلط عليهم سلطة لا يؤمنون بشرعيتها. واعتقاد الناس بأن الدين سلطة شرعية يسهل عملية الانقياد له ولأحكامه، بل يسهل في الواقع عملية تغيير توجهاتهم، وبنائهم بالطريقة التي صممتها الشريعة لهم. ولولا طاعة الأفراد للنظام الاجتماعي لما استطاع المجتمع وقيادته السياسية من الصمود بوجه الفوضى الناتجة من عصيانهم للقوانين التي تنظم حياة المجتمع. وبذلك نستنتج أن للطاعة دوراً رئيسياً في اكمال عملية التأثير على الأفراد، خصوصاً فيما يتعلق بالحج.

فالحج ينشئ استعداداً عظيماً عند الأفراد لإطاعة الأحكام الشرعية دون نقاش أو جدال.

وفي جوّ عبادي كهذا، لا بدّ من طرح المسائل الأساسية وتجاوز المسائل الهامشية، ذلك أن المسائل الأساسية لها ساحة أوسع في الحج من زاوية التقبل والاستيعاب.

(١٢) اجتماع أهل الفكر والرأى

يقول قدس سره: «... وأن يجتمع هناك أصحاب الفكر والكتاب والمثقفون والعلماء لدراسة مشاكل المسلمين ولحلّ ما أمكن حله...». تعليق: إن إطلاق الشريعة وعدم تقييدها لتصرفات الناسك خارج إطار الأعمال الواجبة في الحج، يفتح الطريق لاستثمار ألوان الملاقة والتلاقح الفكري بين الحجاج بلحاظ الأعراف الاجتماعية والارتكازات العقلية المتفق عليها. فإذا كان العرف الاجتماعي يتقبل الكتاب المكتوب كوسيلة من وسائل التأثير، تعين على المؤمنين بدافع وعيهم لمتطلبات التغيير الاجتماعي بذل جهودهم في إيصال أحكام الشريعة الغراء وأفكارها عن هذا الطريق إلى كلّ المجتمعين في تلك البقعة الطاهرة

ص: ٢٠٠

من العالم. وإذا كان العرف الاجتماعي لا يتقبل إلا التأثير الشفهي تعين على المؤمنين أخلاقياً، القيام بذلك العمل. وهذه الحرية في استخدام وسائل التأثير على الأفراد، تعتبر أنضج ثمرأ وأعرق إنتاجاً على صعيد التغيير الاجتماعي المطلوب.

إن السلوك الجمعي الإسلامي في الحج يؤدي إلى تغيير ملموس. فالحج باعتباره سلوكاً جمعياً منتظماً وثابتاً في الزمان والمكان والشروط، يمتلك تأثيراً هائلاً في النفوس. ويمكن ملاحظة طبيعته السلوك الجمعي لأهل الرأي عبر النقاط التالية:

أ- إن السلوك الجمعي الإسلامي يؤدي كل سنة في موعد منتظم ومحدد.

وهذا يعني أن تأثير السلوك الجمعي الإسلامي يبقى مستمراً على مر السنين.

ب- إن الحج والسلوك الجمعي المنبثق عنه قضية عالمية بكل أبعاد الكلمة؛ لأن الحجيج يأتون إلى مكة من مختلف أنحاء العالم، ولا يفصلهم في أداء مناسكهم فاصل عرقي أو جغرافي أو لغوي، وقد جاء في النص المجيد:.... يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ولذلك فإن التأثير الذي يكتسبونه من خلال التلاحق الفكري فيما بينهم هو أهم مصادر التغيير الاجتماعي.

ج- إن شروط ذلك السلوك الجمعي تحقق كمالات أكبر نحو التغيير الاجتماعي، وهي شروط البلوغ وسلامة الجهاز العقلي والاستطاعة الشرعية للفرد. بمعنى أن الحجيج هم من الأفراد الذين لديهم القدرة العقلية على تحمل أعباء الحج ومسؤولياته الاجتماعية؛ بينما يحتمل أن يقوم بالسلوك الجمعي في مناسبة غير الحج أفراد ليست لديهم قابليات عقلية على التغيير، أو صبيان ليست لديهم الخبرة الكافية، مع أن سلوكهم يسمى سلوكاً جمعياً.

(١٣) اجتماع الكعبة والمنهج الإلهي

يقول الإمام قدس سره في وصف ذلك المؤتمر ومنهجه الإلهي: «اجتماع الكعبة أكبر اجتماع، لا تستطيع أية حكومة أن تعقده بنفسها، والله سبحانه وضع المنهج لاجتماع

ص: ٢٠١

المسلمين دون أن يكلف ذلك الحكومات أية مشقة أو نفقات».

تعليق: إن الحركات الاجتماعية التي يؤسسها الأفراد لمعالجة مشكلة من المشاكل الاجتماعية، غالباً ما تنحل وتموت بانحلال تلك المشكلة. فحركات التحرر الوطنية من الاستعمار تنحل مع رحيل الاستعمار، وحركات تحرير المرأة تنحل مع اكتساب المرأة حقوقها الاجتماعية، وحركات المساواة بين الأجناس البشرية المتباينة تموت بعد تحقق التغيير الاجتماعي في المساواة بين الأفراد. إلا أن الحج وشعاره العظيم بالبراءة من المشركين، يبقى فوق كل الحركات الاجتماعية وطروحاتها. فهو، وإن كان سلوكاً جماعياً منظماً، إلا أن أطروحته الفكرية الشاملة، وتصميمه الإلهي يجعله مستمراً مع بقاء الحياة الاجتماعية على وجه الأرض. وما القرون الأربعة عشر التي مرّت على تنزيل التشريع، والأحداث التي مرّت خلالها على الإنسانية، إلا- دليل موضوعي ناصع على أن الحج ما هو إلا جزء من التصميم الإلهي للخلق والمخلوقات ومصالحهم الاجتماعية.

(١٤) البراءة من المشركين

يقول قدس سره في إعلان البراءة من المشركين: «... علينا أن نعلن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة من ذلك المكان المقدس... لنكسر الأصنام ولنرم الشياطين وعلى رأسهم الشيطان الأكبر في العقبات ونطردهم، ليكون حجنا حج خليل الله...».

تعليق: لما كان الحج يعكس أكمل مثال من أمثلة السلوك، فإنه لابد وأن يرفع أرقى الشعارات الاجتماعية التي تؤدي في النهاية إلى التغيير الاجتماعي المطلوب. وهذا الشعار الذي أمر الإسلام المكلفين برفعه في الحج هو شعار (البراءة من المشركين)، كما ورد في قوله تعالى: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، وقوله تعالى: وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم. فأعظم

ص: ٢٠٢

الانحرافات التي يدينها الإسلام ويعدها مصدر كل أنواع الشقاء الإنساني هو الشرك بالله عز وجل. ولا شك أن بقاء الشرك في المجتمع الإنساني يعدّ عائقاً من عوائق إقامة العدالة الاجتماعية. فاعلان البراءة من المشركين هو من أعظم المساهمات في التطلع نحو هدف تغيير المجتمع الإنساني إلى مجتمع موحد قائم على أساس تطبيق أحكام الرسالة الإلهية، وما ينبثق عنها من عدالة اجتماعية على جميع المستويات.

(١٥) المبلغ في الحج

يقول قدس سره في خطابه الموجه إلى المبلغين في الحج: «أوصلوا هذا المؤتمر الإسلامي الكبير إن شاء الله إلى النتيجة المطلوبة التي يريدها الإسلام».

تعليق: ما هي المواصفات التي يجب أن يتحلى بها المبلغ حتى يستطيع أن يقوم بتأثير اجتماعي فعال على بقية الأفراد من الحجيج؟ قد يتلخص الجواب بثلاثة عوامل يجب أن تتوفر في ذلك المبلغ الذي يحاول أن يؤثر على الحجيج على الصعيدين الفردي والجماعي: أولاً: الثقة بالنفس. وهي من أهم عوامل التأثير الاجتماعي؛ لأنّ الثقة بالنفس تعكس إيمان المبلغ بالعقيدة التي يحملها ويدعو إليها. وإقناع الآخرين بصحة النظرية التي يطرحها الفرد المؤثر لابد من أن يكون مستنداً على ثقته المطلقة بصحة فكرته؛ لأنّ الشك في أصل الفكرة لا يساهم في إنجاح عملية التأثير الاجتماعي، بل يساهم في تحطيمها وافسائها.

ثانياً: العلم والمعرفة، وهي حالة الفهم التي يختبرها الفرد من خلال الدراسة والخبرة والاستكشاف. فالعالم هو الذي يستلم مباشرة المعلومات التي يستطيع إدراكها بوضوح، فيحللها ويبني عليها فهماً جديداً على درجة عالية من اليقين دون أدنى شك.

ثالثاً: أن من وسائل التأثير الاجتماعي المهمة هو مقابلة المؤثر أو المبلغ

ص: ٢٠٣

للأفراد الذين يريد تغييرهم وجهاً لوجه. بمعنى أن إقناع جماهير الحجيج بضرورة تطبيق أحكام الإسلام ورسالة الدين ومكافحته الظلم والفساد مثلاً، يكون أكثر فاعلية إذا تم الاتصال بين المبلغ وبقية الأفراد اتصالاً شفهياً مباشراً.

إن التأثير الاجتماعي في الحج ينبع من تطابق آراء الحجيج ونظراتهم تجاه العدالة والحق والخالق والكون والحياة. والحقائق الكونية والاجتماعية المرسومة في ذهنه هؤلاء الحجيج ما هي إلا نتاج المعالم الأخلاقية للرسالة الإسلامية. ولما كان التجانس الاجتماعي من أهم وسائل التأثير، أصبح واضحاً أن من أهم أهداف الحج هو تغيير المجتمعات الإسلامية المتباينة في العادات والتقاليد والثقافات ورفعها إلى مستوى شرعي مقبول، بحيث تكون مهتأة فكرياً ونفسياً لإقامة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة.

الهوامش:

ص: ٢٠٥

الإمام الخميني والحج

الإمام الخميني رحمه الله والحج

الإمام الخميني رحمه الله والحج

كفاح الحدا

وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود* وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمه الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير* ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق.

ومما ورد في خطبة الزهراء عليها السلام:

فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك والحج تشييداً للدين.

عن الإمام الصادق عليه السلام: لو عطل الناس الحج لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج إن شاءوا وإن أبوا.

فان هذا البيت أنما وضع للحج.

وفي البحار عن الخصال الأربعمائه قال أمير المؤمنين عليه السلام: الحج جهاد كل ضعيف.

المقدمة

الحج هو الهجرة إلى المحبوب، وهو

ص: ٢٠٦

رحلة الفرد إلى الله تعالى.. رحلة مادية عبر السفر إلى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمناء... ورحلة معنوية عبر هجر الأهل والأحباب والشوق إلى لقاء الله وتجديد البيعة عند بيته العتيق.. وشاءت الإرادة الإلهية أن تكون هذه الدعوة السماوية المسبوقه بالأذان هى رحلة المسلمين من كل الأمصار والأقطار والألوان والوجوه..

رحلة جماعية تتوافد فيها الجماعات الإنسانية المختلفة اللغات والقوميات ليكون الحج ملتقى لهم.. ولم يدعُ تعالى الذين آمنوا فقط لأداء هذه الفريضة الإلهية بل إنه دعا الناس جميعاً إلى بيته ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

ليكون هذا التجمع البشرى الإسلامى المصغر عن الأمة الإسلامية العظيمة كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله؛ مؤتمراً لتجديد البيعة وإحياء ذكريات انطلاقة الإسلام الأولى فى واد غير ذى زرع.

وعلى هذا فالحج هو أروع وسيلة تربوية تتناسب فيها الأقوال والأفعال والذكريات والمتاعب مع أيام الله وبيت الله ليعود الحاج إلى وطنه مغفوراً له مشحوناً بشحنات الدين والجهد ومملوءاً بالعزيمة والقوة؛ ليكون ثورة على الاستكبار والطواغيت.

الحج مدرسه روحية ومحطة تربوية لتربية الفرد على الطاعة والتسليم وتقوية الشعور بالعزة والقوة عن طريق شد العلاقات مع مصدر القوة الأصلية وهو الله تعالى.. وللحج منافع وفوائد- كأي فريضة عبادية أخرى- نذكر منها الشيء اليسير:

أولاً:- الحج يمهد للقاء المسلمين من مختلف أرجاء المعمورة، وهذا اللقاء يتيح لهم التواصل وتقوية العلاقات بعضهم مع بعض، ودراسة أوضاعهم السياسية والاجتماعية والعالمية والتباحث فى إيجاد الحلول لمشكلاتهم المختلفة، فالموج البشرى الذى ينطلق من الميقات المحدد لمسيرته نحو الكعبة مع فوران القلوب واهتزاز الروح؛ ليلتقى حول البيت الحرام كالأنهار التى جاءت من مصادر عديدة؛ لتلتقى عند

ص: ٢٠٧

البحر الكبير مع رحمة الله تعالى المطلقة على هؤلاء الذين جاءوا متعلقين بأستار بيته طلباً للرحمة والغفران.

وقبل الميقات كان الكثير منهم يعيش حالة التفاخر والرفعة والكبرياء، ويجادل بعضهم بعضاً ويخشى الضعيف منهم بطش القوى، ومع انطلاق الميقات تغيب كل هذه الصور، فهي المساواة المطلقة وهي الأمان المطلق عند البيت الآمن، وهي تتجاوز كل صنوف التوتر الأخلاقي التي قد تزيد العداوة والبغضاء بين المسلمين.. ولعل هذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً.

والمثابة هي المحل الذي يثوب إليه الناس ويرجع إليه المسلمون.. وإذا أردنا أن ندرج بعض فوائد هذا المؤتمر الإسلامي العظيم فنقول:

١- إن الحج يؤدي إلى اجتماع المسلمين والتعارف فيما بينهم، وهذا التعارف هو من أهداف رسالة الإسلام ودعوة الأنبياء يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

٢- المساواة المطلقة بين الجميع:

الغنى والفقير والأسود والأبيض والقرشى والهندي.. من خلال طوافهم حفاةً حول الكعبة، ومن لباسهم البسيط البعيد عن كل أشكال الزينة.

٣- إن الحرم هو عينه صغيرة لنموذج الحياة المنشودة في الإسلام، الحياة الآمنة المطمئنة التي يأمن فيها الإنسان على دمه وماله وعرضه، وهذا الشعور الأمني هو بغية الإنسان في كل مكان خاصة في وقتنا الحاضر إذ يعصف التيار اللأمني بالناس جميعاً، فترى التوتر والقلق والخوف يسيطر على البشرية كلها.. والفرد يعيش هواجس الخوف من أخيه وصاحبه وبنه ودوماً تتطاير في السماء نذر الحروب والقتل والدمار خصوصاً للمسلمين.. ولكنه في مكة لو رأى قاتل أبيه لما تعرض له بل إنه لا يسحق النملة ولا يصطاد الطيور؛ لأنه ليس الإنسان لوحده يعيش الأمن والأمان، بل حتى الطيور والحيوانات، وتكاد

ص: ٢٠٨

تكون صفة الأمان هي مرتجى البشرية الحاضرة.

٤- الحج الذي هو مؤتمر إسلامي كبير يربى عند الإنسان المسلم الشعور الديني والانتمائي بأنه جزء من أمة كبيرة، وهو واحد من الجموع المليونية الموحدة لله والمتناثرة في الأصقاع، وهؤلاء الطائفون حول الكعبة هم صورة مصغرة لتلك الأمة العظيمة.. والحاج يؤدي مناسكه من طواف وسعى ووقوف عند المشعر وعرفات والذبح يؤديها جماعة مع الآخرين، بل إن القرآن الكريم يدعو الحاج إلى أن لا يفيض بمفرده إنما من حيث يفيض الناس ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم. فالحج حركة إلى الله، ولكن من خلال الانصهار في الناس والتعامل معهم على مبنى أخلاقي بعيد عن الجدل والفسوق فلا رث ولا فسوق ولا جدال في الحج ولا يستطيع أى مؤتمر عالمي أن يحقق شيئاً مما يحققه مؤتمر الحج للمسلمين.

ثانياً:- الحج رحلة للإبحار في عالم الزمان والمكان.. إلى الماضي العزيز الراسخ في النفوس.. وهو انطلاقاً إلى تلك الربوع السامية التي مازالت تحكى للعالم على مدى آلاف السنين قصة الإسلام العظيم والفداء الكبير، فهذا الذي يطوف حوله الحجيج هو بيت الله أول بيت وضع للناس إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً. ومع تأمل البيت تتجدد ذكريات إبراهيم عليه السلام الذي بنى الكعبة بأمر منه تعالى، وحينما أكمل البناء تراه يتوسل هو وابنه بالله تعالى أن يتقبل عملهما وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

ليكون درساً عظيماً في التواضع أمام الله والرجاء دائماً بقبول الأعمال، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام يرجو قبول أعماله، فكيف بالإنسان العادي الذي يجب أن يكون طموحه هو قبول حجه

ص: ٢٠٩

ومناسكه؟

وهناك ذكريات الإسلام الاولى التي انطلقت من جوار الكعبة، فهناك غار حراء الذي كان يلجأ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله ليتلقى الوحي ويناجي ربه، وهناك شعب أبي طالب الذي حوَّصر فيه المسلمون ثلاثة أعوام كاملة حتى أكلوا تراب الأرض، وبين الصفا والمروة تتجدد صورة سعي هاجر لينبتق الماء من زمزم، ويكون باقياً مدى الدهور لإرواء الحجيج، إن هذه كلها تجعل المسلم يطير في افق جديد، افق العقيدة التي لاقت الصعوبات الجسيمة حتى أصبح هو مسلماً، ولا زالت كلمات الرسول صلى الله عليه وآله وأقواله واضحة جلية على كل التلال.. وهذه كلها تشد المسلم إلى تاريخه العظيم وإلى رسالته، فالتاريخ مدرسة الإنسان.. وقد نحتاج إلى هذا الربط في وقتنا الحاضر بعد أن حاول أعداء الإسلام تشويه تاريخنا العظيم لإزالة الفكرة الدينية عند المسلمين.

ثالثاً:- تحرير الذات الإنسانية من عبودية الهوى واتباع الشهوات.

هذا الأمر الذي يبدأ من هجر الاخلاء والأصحاب والأولاد والسفر إلى لقاء الله. وفي مظاهر الحج تلغى أشكال الزينة والتفخر والتعالي، وتنطلق دعوة جديدة للإنفاق على الفقراء من خلال تقديم الهدى..

وإذا درسنا شعائر الحج لوجدناها رحلة لاجتياز الأنا.. فالحج ينزع الأهواء عبر الميقات الأول ولبس ثياب الإحرام ونزع كل زينة والتجرد عن كل تعلّق دنيوي. الحج يعلم الإنسان أن يكون طوافه حول الله، وأن تكون نيته خالصة لوجهه تعالى، ويسعى لتكون مسيرته نحو الله تعالى.. والسعي بين الصفا والمروة يعلم الفرد كيف ينطلق نحو تحقيق الخير بسرعة ونبذ الخمول والتعاس، وبهذا ينطلق ضمن الدائرة الحركية الراضية لكل أسباب القعود والتباطؤ فضل الله المجاهدين على القاعدين وليقتدى بالعائلة الإبراهيمية التي عانت الكثير لتكون حياتها سلوكاً يقتدى به على مرّ الأجيال.

إن الحج مسيرة تكاملية ترفض الأنا وتجمد الشهوات؛ كي ينطلق الفرد

ص: ٢١٠

في رحاب التوحيد الإلهي نابذاً كلّ مظاهر الشرك الخفى والبائن، وهو بهذا يربّي الفرد على كثير من المعنويات الروحية، التي لا تستطيع آلاف المجلّدات والكلمات الوصول إليها.

عقبات أمام الحج الإبراهيمي

لقد عمد الاستكبار العالمي من خلال غزوه الفكرى للبلاد الإسلامية، الذى كان أقسى وأشدّ عليها من الغزو العسكرى.. عمد إلى تشويه صورة الشعائر الإسلامية وإماتتها وتحويلها إلى شعائر جوفاء لا روح فيها، وبذلك تفقد هدفها الذى شُرّعت من أجله ألا وهو تربية الإنسان المسلم وتوحيد الأمة الإسلامية وجمع صفوفها..

ووضع أمام الحج الصحيح عقبات وتشويهات كثيرة منها:

١- عدم فهم الحاج لشعائر الحج ومناسكه والمنطلقات التى تهدف إليها، وهذا جاء عبر الترويج بأنّ الهدف هو إكمال المناسك بأسرع وقت كى يحلّ له ما حرّم عليه وقت الإحرام.. ولهذا يطوف الحاج ويسعى بين الصفا والمروة وهو لا يفهم لماذا هذا الطواف؟ وما أهمية السعى والهرولة بين الجبلين؟

وبهذا فهو يؤدّى عملاً فارغاً ليس له أى مدلول تربوى أو روحى، وقد يهّمه أن يحمل لقب الحاج للتفاخر على الآخرين وينسى إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم.

٢- فصل الدين عن السياسة.. فما لله ولله وما لقيصر لقيصر.. وأصبح الدين بعيداً عن السياسة بل إنّنا نرى أنّ الكثير من المسلمين - مع الأسف - يرون فى تدخّل علماء الدين فى شؤون السياسة تدخّلاً فيما لا يعنيههم.

لقد كان لهذه الفكرة الاستعمارية آثار سيئة ووخيمة للغاية منها: دخول المبادئ الوضعيّة والكافرة والملحدة إلى البلاد الإسلامية واحتلالها قاعدة التشريع؛ لتكون قوانينها هى النافذة، ففى كثير من البلاد الإسلامية نجد التباين فى أحكام الزواج والطلاق والإرث مع الشريعة الإسلامية مع أنّ «حلال محمّد صلى الله عليه وآله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة».. وهذا أدّى إلى فقدان الإنسان المسلم لاعترازه بدينه كدين وعقيدة قادرة

ص: ٢١١

على الإدارة والحكم، وأصبح المسلم يرى الإسلام (أساطير الأولين) وهذا الفصل بين الدين والسياسة جعله يلتمس المبادئ التشريعية الوضعية التي أسقطته في دائرة الشرك، والابتعاد عن الله وعن الإسلام كالمبادئ الشيوعية والعلمانية وغيرها.

٣- في كثير من الدول الإسلامية نجد محدودية سن الحجيج وعددهم، ومع الأسف فكثير من الدول لا تسمح للشباب بالذهاب إلى مكة وأداء فريضة الحج، وتضع معدلاً للأعمار قد يتجاوز الخمسين أو الستين سنه حينما يصبح الفرد عاجزاً مريضاً كبيراً غير قادر على التجاوب مع معطيات الحج وأهدافه، في الوقت الذي اعتنى صلى الله عليه وآله بالشباب وأوصى بهم «أوصيكم بالشبان خيراً فإنهم أرق أفئدة».

والأمر الآخر هو تقليل الحصص في بعض الدول إلى عدد قليل، خاصة إذا كانت الحكومة معادية للإسلام، فلا تسمح سوى للعجائز والشيخ ورجال الاستخبارات بالذهاب إلى الحج، ومعنى هذا أن الأغلبية المسلمة محرومة من أداء هذه الفريضة، وإنما هي تعتمد إلى هذا الأمر كي لا يحتك المسلمون بغيرهم من بلدان الشعوب الأخرى، وكي يبقى التصور بأن الحج هو فريضة العجزة.

٤- لقد تحولت مكة إلى سوق عالمي تُعرض فيه البضائع من كل الأشكال والألوان والدول، ونجد الحاج يعيش آفاق التفكير فيما سيشتري قبل وأثناء الحج. وبعض منهم يقضى وقتاً طويلاً - خاصة النساء - في التجول في الأسواق ناسين أنها أيام معدودات قد لا تعود مستقبلاً، وأن الأفضل أداء المناسك وإكمالها ثم الانتقال إلى الأسواق.. لقد وجدتُ اناساً نزلوا إلى السوق قبل أن يفكوا إحرامهم باتمام مناسكهم، وهذا معناه عمق التفكير المادي الذي زرعه الحضارة الغربية في نفوس أبنائنا، علماً بأن هذه البضائع لكل الدول ومنها الدول الموالية لإسرائيل، والتي تجد في سوق مكة خير سوق للربح العظيم، تشتري بتلك الأموال السلاح وتقدمه عوناً لإسرائيل.. كي تقضى به على

ص: ٢١٢

المسلمين.

إنّ الحجّ الغربى أو الحجّ الأمريكى والذى يجعل الحجّ مجرد سفره سياحية للترف والنزهة، والذى هو أصبح سجية الكثير من الحجّاج المسلمين بسبب التضليل الإعلامى الدينى.. إنّ هذا الحجّ يصادر أهداف الحجّ السامية، فلا هو مؤتمر دينى ولا هو تربية روحية، ولا هو انبعاث جديد للمسلمين وشحنهم بالقوة ضد الطاغوت.. وبهذا أصبح خالياً من المنافع السياسية والفكرية والروحية التى أشارت إليها الآية الكريمة:

وأذن فى الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍّ عميق* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات... وأصبح قصراً على المنافع الاقتصادية التى تخدم الاستكبار العالمى!!

الإمام الخمينى رحمه الله والحجّ

«الحجّ يمثّل مركز المعارف الإلهية الذى ينبغى أن يؤخذ منه محتوى السياسة الإسلامية فى جميع الأبعاد الحياتية» الإمام الخمينى قدس سره

لقد كان انتصار الثورة الإسلامية فى إيران عاملاً فى إعادة طرح النظرية الإسلامية إلى العالم أجمع بعد دهور عديدة من التزييف والتضليل والتحريف..

لقد أعاد انتصار الثورة الإسلامية فى إيران إلى المسلم اعتزازه بالرسالة الإسلامية، التى صوّرها الاستكبار العالمى على أنها شىء قديم لا- ينفع (أساطير الأولين) وأنها غير صالحة لهذا الزمان ولا تواكب التطوّر الحديث.. وكثير من المفاهيم الإسلامية والفروض الإلهية التى تقوّعت تحت شراك الغزو الثقافى قد حاولت الثورة الإسلامية تصحيحها وتحريكها، وكان لخطابات الإمام ونداءاته وكلماته الأثر الفاعل فى ذلك، فنحن لا نكاد نجد مناسبة إسلامية إلّا وعالج الإمام الخمينى ما فيها بالفكر الإسلامى القرآنى الصحيح.

لقد بزغ فجر النهضة الخمينية بعد سنوات من التشويه الذى حاصر الدين وعلماء الدين. وكان هدف الإمام هو

ص: ٢١٣

تحقيق أهداف المرء المسلم الذي طالما غيبتة الحكومات الوضعية فسلبت شخصيته وهويته وتراثه؛ ليتسنى لها أن يبقى المسلم مقهوراً ضعيفاً لا يستطيع المقاومة أو الرفض، وجاءت كلمات الإمام لتحتل مكانه واسعة في قلوب المسلمين وغيرهم، الذين لفهم العجب لهذا الرجل الكبير المجرد من السلاح المادي، والذي سحق عرش الطاغوت ليقم دولة الإسلام.

ورغم أن العالم الإسلامي شهد خطابات ومفردات كثيرة، لكنها لم تنفع في إعادة الحيوية إلى الشعوب المسلمة وتحرير عقيدتها من أسر الطاغوت والاستبداد..

لقد كان لخطابات الإمام التأثير الفاعل على المسلمين بحيث أوجد عند الإنسان المسلم القناعة بأن عليه أن يفهم مفردات الإمام الجديدة كي ينطلق بحيوية وحركة أوضح إلى المجتمع..

لقد سئل السيد الخامنئي (دام ظله) عن السبب في تغلغل كلمات الإمام في النفوس فأجاب: «إن الإمام الخميني سلك الطريق نفسه الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وآله من أجل إعادة الحياة إلى الإسلام وهو طريق الثورة».

لقد أيقن الإمام أن المفهوم الديني والسياسي الذي حقق الانتصار على الإمبراطوريات القديمة وهزم الأحزاب، لا يزال قادراً على هزيمة الجاهلية الجديدة المتمثلة اليوم بالحضارة المادية الغربية، التي قوّعت الإنسان في إطار الشهوات والغرائز.

إن الإمام الخميني في خطابه الديني والسياسي الذي كان خطاباً دينياً قرآنياً في كلّ مفرداته ومفاهيمه، باعتبار أن الإسلام دين كامل على الصعيد النظري والعمل، ولا حاجة للمسلمين أن يتلقفوا مفردات ومفاهيم مستوردة من الثقافة الغربية.. وهو الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون من العلماء المسلمين..

ولهذا نجد أن لكلمات الإمام وخطاباته صدّى واضحاً على النفوس وعلى جميع المسلمين وغيرهم، ولعل من الأسباب التي هيأت لهذا: ١- إطلاء الإمام الخميني رضي الله عنه في القرن العشرين، الذي ظهرت فيه

ص: ٢١٤

الكثير من النظريات المعادية للدين من قبيل (الدين إفيون الشعوب) وهو كعالم دين دعا إلى نبذ كل الطواغيت الأرضية والفكرية، وعلى هذا فقد عادت صورة الإسلام إلى الظهور على الشاشة العالمية.. ولهذا جدّد النهضة الإسلامية.

٢- كان الإمام صورة للإسلام في التطبيق العملي، فهو الإمام القائد الذي قهر امبراطورية الفرس العظيمة، لكنّه رجل زاهد لم تأخذه الدنيا بزخارفها، ولم يداخله الزهو بما حقّقه للعالم الإسلامي من عزّة وقوّة.. وبهذا جدّد صورة رسول الله صلى الله عليه وآله المربّي الأوّل للانسان وللشريعة جمعاء، ولعل توافق القول مع التطبيق والسلوك هو الذي جعل كلماته نافذة في القلوب الوالهة بهذه الصورة الجديدة.

٣- سهولة بيانات الإمام وشمولها..

فهدف الإمام هو إيصال الفكر الديني بأقصر طريق إلى أكثر عدد من المسلمين وغيرهم؛ ولهذا جاءت كلماته مفهومة واضحة ليس عليها غبار، كما أنها كانت كلمات واسعة المضامين عالية المفاهيم، ولعل نجاح الإمام رحمه الله في إحياء الخطاب الديني كان من العوامل المساعدة على تهافت الناس لتتبع خطابه، وهذا جاء في الوقت الذي استطاع الاستكبار العالمي إيجاد هوة واسعة بين علماء الدين والناس حتى أوجدوا نفوراً منهم، وكما يقول الإمام في إحدى خطابه: إنّ سائق التاكسي كان يرفض حمل عالم الدين في سيارته..

فنقول إنّ الخطاب الديني عند الإمام كان طفرة واضحة في هذا القرن.

وكانت بيانات الإمام من البساطة والحركة بحيث يفهمها الأمي والمثقف ويعمل بها.. يقول الإمام الخميني قدس سره: الإسلام دين عبادته سياسة وسياسته عبادة. والآن إذ يجتمع المسلمون من شتى بقاع الأرض حول كعبة الآمال؛ لحج بيت الله وللقيام بالفرائض الإلهية..

يتوجب على المسلمين الذين يحملون رسالة الله تعالى أن يستوعبوا المحتوى السياسي والاجتماعي للحج إضافة إلى محتواه العبادي. وبهذا أخرج الإمام العنوان الجديد «سياستنا ذات ديننا» أخرجه من حيز التنظير والجدل، ومن دائرة الآمال

ص: ٢١٥

والأحلام المسيطرة على مخيلة المسلمين إلى واقع الاداء والفعل.. فالمدرسة الإسلامية تحتوى على تصوّر شامل للكون وللحياة بكلّ أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. بل إنّ رسالة الإسلام انطلقت من المسجد.. يقول الإمام قدس سره:

«لقد انطلقت منذ صدر الإسلام إلى اليوم كل الحركات من المسجد، إنّ المسجد هو الذى أوجد القوّة الموحّدة ضد الكفّار والمشرّكين، وأنتم المسجديون لابدّ من أن تبنوا المساجد على أساس الإسلام والحركة الإسلامية؛ لأجل قطع أيادى الشرك والكفر، ولدعم المستضعفين ضد المستكبرين. فالمسجد كان محلّ الصلاة والقيادة والحكومة والإدارة». يقول الإمام قدس سره:

«إنّ لفريضة الحج خصائص متميّزة بين كلّ الفرائض الإلهية، ولعلّ الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه الفريضة تفوق جوانبها الاخرى مع أنّ لجانبها العبادى خصائص متميّزة».

وقد أكّد الإمام الخمينى على ضرورة الاستفادة من هذه المناسبات فى سبيل تصحيح المفاهيم الخاطئة، التى عششت فى أذهان الناس، ولإيجاد العلائق بين المسلمين كافّة من خلال اجتماعهم فى ذلك المؤتمر الكبير.. ولعل الإمام كان يرى ضرورة تزويد و شحن المسلم بالقوّة الكافية وإعطائه شيئاً من الجرأة من خلال انفتاحه مع اخوانه هناك، وتبادله وجهات النظر حول الشؤون الإسلامية المتعدّدة.. يقول الإمام:

«علينا أن نستثمر موسم الحج ونجنى منه أطيب الثمار فى الدعوة إلى الوحدة والدعوة إلى تحكيم الإسلام فى الناس كافّة.. المسلمون الأوائل كانوا يجنون من جماعاتهم وجمعاتهم وأعيادهم ومواقف حجّهم أحسن الثمار». ويقول فى مكان آخر:

«على المسلمين الملتزمين الذين يجتمعون كلّ عام مرّة واحدة فى المواقف الشريفة، ويؤدّون واجباتهم الإسلامية فى هذا التجمّع العام والحشد الإلهى بمعزل عن الامتيازات وبمظهر واحد دون اهتمام بما يميّز بينهم من لون

ص: ٢١٦

أو لغة أو بلد أو منطقة وبأبسط المظاهر المادية وباندفاع نحو المعنوية والوفود على الله، عليهم أن لا يغفلوا عن الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه العبادة».

٣- دعا الإمام قدس سره إلى ضرورة تفهم شعائر الحج وأسراره كي ينطلق الحاج لاداء الفريضة بوعي وهدفية أكثر تمكنه من الوصول إلى ساحة القرب الإلهي.

يقول الإمام الخميني رحمه الله:

«إن مكة المعظمة والمشاهد المشرفة هي مرآة الأحداث الكبرى لنهضة الأنبياء وبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ورسالته».

ويقول أيضاً:

«إن الحضور في هذه المشاهد المشرفة والأماكن المقدسة، يجعلنا نتعرف على مسؤوليتنا في المحافظة على مكتسبات هذه النهضة والرسالة الإلهية..

ويظهر لنا مدى استقامة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى من أجل دين الحق وإزهاق الباطل، وعدم مبالاتهم بالتهم والاهانات التي كان يوجهها أبو جهل وأبو سفيان ومن لف لفهم.. إنهم لم يستسلموا في أصعب الظروف حينما كانوا محاصرين أشد المحاصرة من الناحية الاقتصادية في شعب أبي طالب».

يقول الإمام الخميني رحمه الله حول الطواف:

«إن الطواف حول بيت الله يعلمكم أن لا تطوفوا حول غير الله، وأن رجم الشيطان رمز لرجم شياطين الإنس والجن.. حين ترجمون الشيطان عاهدوا ربكم على طرد كل شياطين الإنس والقوى الكبرى من بلادكم العزيزة».

إنه يعلم المسلمين أن هذه الشعائر ليست عملاً أجوف، فمثلاً الطواف حول البيت يذكر المسلم بالطواف حول الله تعالى أي أن تكون أعماله مقصودة لوجهه تعالى وتكون حركته منه وإليه ابتغاء مرضاته، وبذلك يتعد عن الشرك الظاهر والشرك الخفي.. وحتى رجم الشياطين تمنح الفرد المسلم القوة والایمان لمواجهة شياطين الإنس والجن، وإنما ذكر شياطين الإنس كي يذكر الجموع المسلمة أن الطواغيت الذين يطوفون حولهم هم أولى بالرجم من غيرهم.

ويقول الإمام في موضع آخر:

«إن كلمة ليبيك التي تلتفظون بها هي

ص: ٢١٧

استجابة كبيرة وعميقة لدعوة الحق تعالى، وبها تنفون صفه الشرك بجميع مراتبها، وعليكم أن تشعروا بذلك أنفسكم، وبها تهاجروا بأنفسكم التى هى منشأ الشرك الكبير نحو البارى جل وعلا.. وعندئذ تنالون أجر كم وهو على الله تعالى».

نعم إنه يؤكد على أن هذه التلبية هى ليست ترديداً أجوف لكلمات واحدة، بل إنها كلمات التوحيد المنبعثة من القلوب المهاجرة إلى الله الساعية إلى رضوانه ومحبه، وحقاً ما أوسع البون بين من يردد كلمات لا- يتعاش بها، وبين من يعيش العشق الإلهى فيناجى المحبوب فى كلمات منبعثة من القلب المقرلة بالذل والخضوع!

يقول الإمام قدس سره:

«ليس حجاً هو الحج الخالى من الروح والحركة والقيام والبراءة والوحدة، والحج العاجز عن هدم صروح الكفر والشرك».

٤- دعوة الإمام جميع المسلمين إلى المشاركة فى مسيرة البراءة من المشركين.

يقول الإمام قدس سره:

«إن إعلام البراءة من المشركين يعتبر من الأركان التوحيدية والواجبات السياسية للحج».

وقفه:

مما لا شك فيه أن التوحيد هو أساس العقيدة الإسلامية، وهو المحور الذى تتفرع منه حركة التاريخ الفاعلة المؤثرة فى كل جوانب المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومن البديهي أن للتوحيد جانبين:

١- الجانب النظرى وهو الاعتقادى على مستوى الذهن والتفكير، ويقوم على تطهير الفرد من التلوث والشرك الفكرى، وبهذا يحافظ على حرم العقل من الخبائث النظرية.

٢- الجانب العملى وهو تجلّى آثار التوحيد النظرى على الواقع العملى على حياة وسلوك وقيم الفرد والمجتمع.

ورغم أهمية الجانب النظرى، ولكن التوحيد إذا لم ينطلق إلى واقع الحياة، ولم يكن له حضور فى المسرح الحياتى، فهنا يصبح تطبيق الشريعة أمراً صعباً

ص: ٢١٨

مستصعباً، ومعناه فتح الطريق والنغور أمام قوى الشرك الفكرية والتشريعية والعملية لغزو المجتمع من محطات الفراغ والضعف، خاصة في المواضع التي يغيب فيها الفكر التوحيدي.

وعلى هذا فقد يكون واجب المسلم دوماً هو إقصاء الشرك عن معالم وقيم وأفكار المجتمع، وتقويض سلطة الفراعنة والمتألهين والطواغيت الوثنيين، الذين يرهبون الناس كي يخشوهم ولا يخشوا الله تعالى.

إنّ الشرك العالمي يسعى لتطويق دائرة التوحيد؛ لكي يستطيع التسلط على الناس والثروات.

ولما كان الشرك معلماً من معالم الانحراف يشل المجتمعات عن التقدّم، ويصادر حقوق المستضعفين والموحدين، فلا بد من التصدي لهذا الوجود سواء على صعيد النظريات المطروحة أو على الصعيد العملي، وهنا تظهر أهمية البراءة من المشركين كحركة سياسية اجتماعية حضارية تهدف إلى تربية المسلم على إنكار الشرك والتصدي لمحاربه.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«أى إنسان عاقل لا يدرك عبادة الأصنام الجديدة بأشكالها وأحاديثها وحيلها الخاصة، ولا يعرف هيمنة معابد الأصنام - كالبيت الأسود الأمريكى - على البلدان الإسلامية وعلى أرواح وأعراض المسلمين والعالم الثالث؟!

إنّ صرخة براءتنا من المشركين والكفار اليوم، هي صرخة البراءة من الظلم والظالمين، وصرخة أمية ضاقت ذرعاً باعتداءات الشرق والغرب وعلى رأسهم أمريكا وأذنانها، وغضبت جراء نهب بيتها وثرواتها.

وربّ سائل يسأل ماذا تعنى البراءة؟

هل تعنى المخالفة اللسانية أم القلبية، أم تعنى الاستئصال لوجود هؤلاء المشركين؟

والحق أنّ البراءة تشمل كلّ هذه الأشكال، وعلى الكل أن يعلن براءته بما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأ-كبر أنّ الله برىء من المشركين ورسوله للوصول إلى الهدف المنشود وهو تطهير الأرض

ص: ٢١٩

من الأصنام المرئية وتطهير القلوب من الأصنام الصورية، لقد ألحَّ الله تعالى على خليله حينما بنى الكعبة أن يطهرها أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود.

وإبراهيم عليه السلام كان محطَّم الأصنام:

وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين.

وأول عمل قام به صلى الله عليه وآله حينما دخل مكة هو تحطيم الأصنام لتطهير البيت، ولما كان القلب هو حرم الله تعالى فالأولى تطهير حرم الله من كل ألوان الشرك الظاهر بالتماثيل والأصنام المرئية وإزالة الأصنام القلبية سواء كانت أهواءً أو مطامع أو طواغيت أو رجساً ذاتياً يحول بين الفرد وسعيه إلى ربه ليدخل جنّته.

وعلى هذا فمبدأ البراءة يرتكز على أمرين:

١- ضمن حركة الفكر والاعتقاد أي ضمن الحرم الداخلي للإنسان، وهو الذي يحافظ على نية العمل وعلى الهدفية في الحياة ويمهّد لتحقيق الأهداف الكبرى.

٢- ضمن الحركة الخارجية وهو الإعلان للتصدّي من المشركين إنَّ الله برىء من المشركين ورسوله.

وعلى هذا فالمسلم لا يستطيع الإنطلاق إلى الدائرة التغييرية في المجتمع ما لم يعيش مفهوم البراءة من المشركين قلباً ولساناً وفكراً وعملاً.

يقول الإمام الخميني رحمه الله:

«إنَّ إعلان البراءة في الحج هو تجديد العهد بالجهاد وتربية المجاهدين لمواصلة الحرب ضد الكفر والشرك وعبادة الأصنام، وهو لا يقتصر على الشعارات بل يتعداها لتعبئة وتنظيم جنود الله أمام جنود إبليس وبقية الأبالسة، والبراءة، هذه تعتبر من المبادئ الأولى للتوحيد».

ويقول أيضاً:

«إنَّ إعلان البراءة هو المرحلة الأولى من الجهاد، ومواصلته هي من المراحل الأخرى لواجبنا، وأنه يتطلّب في كلّ عصر وزمان مفاهيم وأساليب خاصة».

ورغم أنَّ الصراع بين الشرك والتوحيد صراع أزلي، ولكننا الآن نرى قيمومة كيانات الشرك والإلحاد في أرجاء المعمورة، وهي تسعى سعيّاً

ص: ٢٢٠

مسموماً لتحطيم عقيدة التوحيد سواء بمحاربة الفرد الموحّد أو الدولة الموحّدة أو بنشر الفساد والرذيلة لإلهاء الناس بها أو التنكيل بالموحّدين.. ومشكلة الإنسان المسلم أنه بحاجة إلى تجديد الشعور بالقوّة والعزّة، وبحاجة إلى استحضار الوعد الإلهي كتب الله لأغلبنا أنا ورسلي وبحاجة أيضاً إلى استحضار الشعور بالمعية مع الله ومع المسلمين، وأنه ليس وحده الذي يخوض هذا الصراع، بل هناك الملايين التي تشاركه هذه الأحاسيس التّيرة، وعلى هذا فقد كان اختيار أيام الحج واختيار مكّة المكرّمة ليكون التوقيت الزماني والمكاني متلائماً مع الغاية المنشودة.

يقول الإمام رحمه الله:

«وأي بيت هو أفضل من الكعبة؟! البيت الآمن والطاهر لنبذ كلّ أشكال الظلم والعدوان والاستغلال والرق واللاإنسانية قولاً وفعلًا وتحطيم أصنام الآلهة تجديداً لميثاق ألت برّبكم وذلك إحياءً لذكرى أهم وأكبر حركة سياسية للرسول عبّر عنها القرآن بقوله وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر».

إنّ التوقيت الزماني في أيام السفر إلى الله وفي أيام مباركة هجر فيها الحاج أسباب الدنيا وجاء متعلّقاً برحمته شاعراً بمسؤوليته، والتوقيت المكاني الذي يشدّ المسلمين إلى أيام ظهور الدعوة الاولى التي كان فيها المسلمون قلائل مستضعفين وإذا بهم يصبحون قادة للبشرية جميعاً نحو الخير والعزّة والكرامة، إنّ هذا التوقيت لي شحن الفرد المسلم بأسباب القوّة والإرادة؛ ليعود الحاج إلى وطنه إنساناً آخر هو «ثورة على كلّ باطل وطاغوت وسعيّاً لبناء الذات والمجتمع ووعياً للحياة وتضحية في سبيل الأهداف وفي سبيل رضا الله».

يقول الإمام:

«ليعرج الحجاج الأجزاء من أفضل أراضى العشق والجهاد وأكثرها قدسية..

إلى كعبة أكثر رفعة حيث ينطلقون من إحرام الحج إلى إحرام الحرب، ومن طواف الكعبة والحرم إلى طواف صاحب البيت، ومن التوضؤ بزمزم إلى غسل

ص: ٢٢١

الشهادة والدم ليتحولوا بذلك إلى امّة لا تقهر وبنيان مرصوص لا تستطيع معه القوى العظمى الشرقية والغربية الوقوف بوجهها...» وعلى هذا يمكن إيجاز الهدف من إعلان البراءة على المشركين أيام الحج ب:

- ١- تربية المسلم على رفض الطواغيت، وافهامهم أن الطاغوت صورة من صور الشرك الواجبة التطهير.
 - ٢- شحن المسلم بقدر من القوّة يؤهله للوقوف والمجابهة والرفض بعد أن استطاع الاستكبار العالمى أن يؤسره فى دائرة الخوف من المواجهة.
 - ٣- إشعار المسلم بأنه ليس وحده الذى يقف فى المواجهة ضد شياطين الإنس والجن، وإنما هناك الملايين التى تشاركه وهو جزء من هذه الامة المجاهدة.
 - ٤- استمداد القوّة والإرادة من ذكريات الإسلام الاولى التى يفوح شذاها فى سماء مكة.
 - ٥- إنذار المستكبرين بعظمته الإسلام وشدة الصحوة الإسلامية، التى ستدكّ حصونهم وقلاعهم يوماً ما.
 - ٦- الإعلان عن الإسلام كدين سياسى اجتماعى.
 - ٧- وبهذا تكون البراءة من المشركين.. المسيرة الراضة لكل الأصنام، والتى تنطلق من بيت التوحيد العتيق هى صورة من صور تصدير الثورة والمفاهيم التى حملتها إلى خارج حدود الدولة الإسلامية.
- لقد استطاع الإمام قدس سره أن يخرج المسلمين من صورة الحج الأجوف..
- الحج الأمريكى.. إلى الحج الإبراهيمى المحمّدى الذى يؤتى أكله كلّ حين بإذن ربّه.

ص: ٢٢٢

الهوامش:

ص: ٢٢٤

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

محمد حسن يزبك

هذا الموضوع له أبعاده ولا- يمكن أن تتفلسف الحكمة الإلهية لعبادة من أهم العبادات، بل هي الشرعية على حد وصف بعض الروايات لها، ولكنني اقتنص بعض معالم تلك الفلسفة من قوله تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس.

القيام وما يعنيه أن دور الإنسان في الحياة الحركة المستمرة مع حركة الكون؛ لأنه إذا ما توقفت حركة الكون انتهى كل شيء، وجميل الربط بين الإنسان والكون من خلال الحركة؛ لأنَّ مهمّة الإنسان البناء والإعمار، وهذا يستلزم الحركة المتجددة، لكي لا يتساوى يوماً الإنسان فيكون مغبوناً فضلاً عن أن يتروى غده فيكون ملعوناً على حدّ فلسفة أمير البيان والبلاغة ومرجع الفلسفة أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام.

قيام الناس الذي رتب عليه جعل الله الكعبة البيت الحرام لم يكن هذا القيام إلّا عظيماً يتجاوز بعظمته حدود ما رتب عليه لأنه لا يحفظ بدونه. وهذه

ص: ٢٢٥

العظمة تتلمسها من القائد الأول الذى نهض فى وجه الأصنام والصنمية مكسراً ومعلنًا عن أبعاد دعوته المقدسة وقد نسجها القرآن الكريم بأروع بيان: إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين* قال لقد كنتم أنتم وأبائكم فى ضلال مبين* قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعين* قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين* وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين* فجعلهم حُذًا إلَّا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون* قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين* قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم* قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فسالوهم إن كانوا ينطقون* فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون* ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون* قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم* أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون* قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين

هذه الآيات عرضتها بهذه الكيفية؛ ليعطى مفهوم القيام وزنه ومعناه وحقيقته وما بعد القرآن من حقيقة.

فآيات وضحت أن القيام دعوة وثورة ومواجهه للظلم والانحراف والعصبية والتقاليد البالية، والمتأمل يدرك حقيقة الثورة أنها ثورة من أجل التوحيد وربط الإنسان بخالقه، وتطهير العقول من التبعية العمياء والابتعاد بها عن منطق أننا وجدنا الأمر كذلك فمضينا حيث تاريخ الآباء والأجداد والتقاليد والعادات.

أترى نترك ما كان عليه الآباء؟ نعم صرخة الحق والعدل والضمير لم توجد أيها الإنسان لتلغى دور العقل متذرعاً وهكذا وجدت الآباء ولعلهم كانوا فى ضلال مبين، وهل من ضلال أوضح من عبادة الأصنام واعتبارها الإله؟ الإنسان الذى

ص: ٢٢٦

كترم بالعقل وسخر له كل شيء فينحدر إلى أسفل ما يتصور؛ ليتخذ من الصنم معبوداً وخالقاً أو ليقربه إلى الخالق والمعبود، ولا يعرف الخالق ما قيمة هذا الحجر والوثن أولست أنت الصانع له؟ وهل ينفع أو يضر؟

كان دور نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يصحح العقيدة وينفض عنها غبار الوثنية والصنمية والتحجّر، دعاهم والحق والهدى سبيله، تحرّكت العقول أجتئنا بالحق؟

لم نسمع بهذا في الملة الأولى، وإذا لم تكن الأصنام هي الآلهة؟ فمن الإله قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهنّ. ومن القيام الذي نهض به خليل الرحمن عليه السلام نفهم علاقة الحج بإبراهيم عليه السلام والبيت والاتخاذ من مقامه مصلى ومعنى تطهير البيت للطائفين والركع السجود، وفلسفه هذا التشريع، ويبتنى على ركيزتين أساسيتين:

الأولى: التوحيد.

الثانية: علاقة الشريعة الإسلامية بالشرائع السابقة واستمراريتها بالحفاظ على الركيزة الأولى.

هو دعوة الأنبياء جميعاً لأمامهم ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

وتجلّى الصراع مع الشرك والوثنية بعد الطوفان بشخص القائد الأمة الذي نعتة القرآن بذلك إنّ إبراهيم كان أمة قانتاً لله خنيفاً ولم يك من المشركين.

والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء قومه بخير الدنيا والآخرة واختصر عليهم كل شيء:

«أنا دعوة أبيكم إبراهيم عليه السلام قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا». إنه النبي والرسول الذي ولد بمكة وترعرع فيها، وساءه الكثير من المشاهد، وأزعجه ما كان عليه الناس في ذلك الوقت، يتنافسون على عبادة الأصنام، ويتسابقون على تعليق آلهتهم في الكعبة وجدرائها، ولم يبق من الإبراهيمية إلّا بصيص أمل ونور يلمع من بين ظلمات الشرك. النور الذي استقر بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعدما تناقله الأجداد

ص: ٢٢٧

والأمّهات من الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهّرة من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وكان لهذا النور من العظمة أن كشح ظلام الجاهلية وليل الشرك الدامس بفجر الإسلام المشرق، الذي ألقى بخيوطه النورانية على العالم فهرب الشيطان وصيّق وتهافت معه الأصنام وتكسّرت وسكت نفس الشرك واندرثر، وتعالى صوت الله أكبر من حجرة بلال الحبشي على مأذنة الفجر الساطع، وردّد الكون لا كبير إلّا الله، وتهلّل وجه الدنيا وتلألأ فرحاً وابتسامه بكلمة التوحيد...

والحجّ الذي كان أحد الأركان الأساسية للإسلام، «بنى الإسلام على خمس:

الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية» فقد جمع بين العبادة البدنية والمالية وفيه من الكدح ما فيه، وكانت فلسفته بقيام الناس جميعاً من خلال مؤتمرهم الشعبي العام الذي يلتقون فيه في الأرض المقدّسة، ليحجّوا مع نبيهم حجّته ويقفوا مواقفه معلّنين معه النداء «لا إله إلّا الله» مقتلعين من أنفسهم كلّ ما سواه لأنه الباطل، متأسّين بطهارة ونقاء الرسول صلى الله عليه وآله وسيرته متّخذين من أنفاسه وتعاليمه الهدى يتذكّرونه ويذكّرونه مع ذكر الله؛ لأنه الدليل الصادق والبار الوفي والتقى المعلم، يستعرضون وهم يؤدّون الفريضة كلماته العذبة الرقيقة وهي تدغدغ المشاعر والأحاسيس: «إنّ حرمة المسلم أعظم من حرمة الشهر الحرام وعرفات والحرم والبيت» فتنبعث انتفاضة وثورة في داخل الإنسان وهو يتألّم من تقصيره بهذا الحقّ. الله أكبر أهكذا حرمة المسلم؟ فأين أنا من حقوق المسلمين وهو يرمقهم ببصره يتحولون حول البيت ويهرولون وإلى الجبل يمشون؟ مشهد من مشاهد يوم القيامة، ولا يكاد يصدق الأسود والأبيض والعربي والأعجمي والألسن مختلفة واللغات متعدّدة سبحانه ياربّ الكلّ منك وإليك وأنت الغفور الرحيم.

أدركت فلسفة الحج بكلمة واحدة من خلال هذه المناظر وأداء المناسك (كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة) سبحانه يارب لو التزمنا بذلك وأدّينا الحق الذي اعتبره رسولك أعظم من كلّ شيء حقّ المسلم، فأين كانت امتنا؟ فهل كنّا نعانى

ص: ٢٢٨

من الفرقة والتمزق والضياع....؟ ألسنا جميعاً نقف مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونطلّ معه على الغيب نستحضر ذلك الماضى فنرى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بعد أبينا آدم عليه السلام فى هذه الأماكن يؤدى المناسك ويرمى الشيطان ويقدم القران؟ وأى قربان؟! نبي الله إسماعيل عليه السلام وتذكر التسليم والصدق والإخلاص بالطاعة ونحن نقرأ فى سورة الصافات فلما بلغ معه السعى قال يا بُنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين* فلما اسلما وتلاه للجبين* ونادياه أن يا إبراهيم* قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين* إن هذا لهو البلاء المبين* وفديناه بذبح عظيم.

سبحانك ربى أنت الخالق وأنت المشرّع، فالرسالة واحدة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مثلى ومثل من تقدمنى من الأنبياء كمثلى بيت كمل ولم يبق إلّا موضعه لبنه وأنا تلك اللبنه»..
والحج من أهم العبادات التى تؤكد هذه الوحدة بالمواقف الحسيّة التى لا ندرك علّة تشريعها، وهرولة هاجر أم إسماعيل تحوّلت إلى عبادة فضلاً عن سائر المناسك.

فالضرورة قاضية من أجل إعطاء الحجّ بعده الحقيقى وفلسفته الصادقة من التوحيد وربط الرسالة الإسلامية بالرسالات السابقة واستمراريتها أن يعود الحجّ إلى انطلاقة المحدثيّة صلى الله عليه وآله وسلم التى تجسّدت بالبراءة من الشرك، وسورة براءة قد بلغها خليفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الإمام على عليه السلام والتى حدّدت معالم العلاقات وآذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله وإذا لم يؤدّ الحجّ هذا الدور فقدت الفريضة فلسفتها وأهدافها، ولا نعجب أن يكون وضع المسلمين على ما هو عليه من المآسى.

والحجيج يتدافعون إلى بيت الله الحرام ولكنهم لم يرموا الشيطان وحبه من قلوبهم، لم يتبرأوا من المشركين، ولم يلتفتوا إلى هذه الفريضة العبادية السياسية،

ص: ٢٢٩

ولم يهتموا بالجانب الآخر الذى لا يتم الجانب الأول بدونه، وفهمنا ذلك البعد لهذه الفريضة من خطبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى عرفته وغدير خم...

ونحن نستعرض هذا الواقع الأليم نتذكر الإمام الخميني قدس سره قائد الأمة الإسلامية وصانع مجدها وعزّها فى هذا العصر كيف نظر إلى الفرائض، فقال عن الجمعة: «العبادية السياسية» والحج: «فريضة عبادية سياسية» والشبه كبير بين الجمعة والحج، والقاسم المشترك اجتماع الناس، والاستفادة من هذا الاجتماع، وتذكير الأمة بكل ما يعانى أبنائها، وإطلاع الشعب على كل مجريات الأمور، ومن هذه المواقف تحدّد الخطوط السياسية للأمة من حيث العلاقات والمودة والمواولة والبغضاء والمعاداة، والحج أهمّ لأنّه مؤتمر عالمي جامع لكل مؤتمرات الجمعيات فى مكان واحد. فلا حجّ بدون البراءة فكيف يجتمع حبّ الله مع حبّ أعدائه؟! وكيف يكون هذا القلب محطّة للعشق الإلهي مع استيلاء الشيطان عليه؟!

نحن اليوم- وبفضل الإمام الخميني- نرى أنفسنا نعود إلى الحجّ المحمّدي صلى الله عليه وآله وسلم الإبراهيمي، ونرفع راية البراءة من المشركين، ونعلنها صرخة مدوية فى وجه الشيطان الأكبر وأذنا به. وما هذا إلّا تعبير عن إعطاء هذه الفريضة بُعدها الحقيقي؛ ليطلع المسلمون على أوضاعهم عن كثب ونقتنع جميعاً بضرورة الأمة الموحدة، ولا خلاص لهذه الأمة من الضياع إلّا بالعمل الجاد من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة.

فالمسلمون اليوم مدعوون للتأمل بواقعهم ومصيرهم وعليهم أن يحافظوا على هذه الصحوة الإسلامية لتنمو وتكبر، والسعى الدؤوب للوصول إلى جذور الوحدة الإسلامية، التى هى الردّ العملى والمباشر على كل مخططات الاستكبار، والصاعقة فى وجه الشيطان الأكبر أمريكا والأذنان، والتى تمنع من تحقّق النظام الدولى المتفرعن على حساب المسلمين والشعوب المستضعفة؛ لأنّ مؤشرات هذا النظام الدولى الموهوم أنه محكوم لمصالح الصهيونية والصليبية العالمية والمؤسسات

ص: ٢٣٠

الدولية بحسب الممارسات العملية، محكومة كلها لهذه الإرادة فلا شيء خارج قبضة الطاغوت إلّا الإسلام. أيّها المسلمون: عودوا إلى إسلامكم من خلال حجكم الإبراهيمي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما نادى به السيد الإمام، وارفضوا الشرك والاستعانة بغير الله تعالى واعتمدوا على قدراتكم وطاقاتكم متوكلين على الله تعالى رافضين القوى الطاغية والظالمة والحلول الاستسلامية المهيئة وفرض هيمنة النظام الدولي الجديد (نظام المحميات) بأساليبه البشعة وأنيابه الكاسرة.

من الحجّ يجب أن يتخرج الثّوار المجاهدون الذين يلتون نداء العراق الجريح النازف عراق الإسلام الذي قدّم الآلاف من الشهداء المظلومين وعلى رأسهم المرجع الكبير والمفكر الإسلامي السيد محمّد باقر الصدر، على مذبحه الحق ضد أعتى طاغية يتحكّم بمصره، ونداء البوسنيين والهرسك وسرايفو الذين يواجهون عصابات الصهيونية والصليبية المتمثل مفتاحها بالصربيين، وفلسطين التي طال عذابها وأوحش ليلها كلّ عفيفه وحرّ وطفل حتى تفجّرت بانتفاضه إسلامية عارمة، حوّل فيها الطفل الحجر إلى قبله والمقلع إلى مدفع والخنجر إلى قاذف، والقبضات والعصى إلى غضب إلهي. وكشمير التي تسجّل بدمائها دوماً الوفاء للإسلام في مواجهة وثنية القرن العشرين وهجمته، والأقليات المسلمة في جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقاً الذين يعانون الكثير من الوضع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي، والشيشان والمجازر التي يرتكبها الجيش الأحمر فيها. والجزائر وتونس ومصر الذين يستنهضون همهم المسلمين ليرفعوا كابوس الأنظمة البوليسية الظالمة عن رقابهم.

ولبنان الذي قدّم المزيد من الشهداء مجاهدين وقادة من شيخ المقاومة راغب حرب إلى شيخ الأسرى عبد الكريم عبيد إلى سيد شهداء المقاومة الإسلامية السيد عباس الموسوي إلى كلّ الشهداء الذين سقطوا من أجل تحرير لبنان

ص: ٢٣١

وفلسطين والامة من الكيان الغاصب الغدّة السرطانية إسرائيل ومن مخططات الشيطان الأكبر أمريكا. من الحجّ المحمّدى صلى الله عليه وآله وسلم تخرج الامة بجوّ الالفه والمحبة والمناصرة تحت راية قيادة إسلامية موحّدة، وإنّه عصر الإسلام وليس عصر الشيطان الأكبر أمريكا والنظام الدولى الفرعونى الموهوم إنّها الراية بيد القائد الإمام الخامنئى (دام ظلّه) سنتوحد تحت هذه الراية ممهّدين لدولة الإسلام الكبرى التى تشرق أنوارها بالعدالة والمساواة والاستقامة بنور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه المبارك).
الهوامش:

ص: ٢٣٢

الحج الإبراهيمي

الحج الإبراهيمي- رؤية إحيائية جديدة في منظور الامام الخميني

الحج الإبراهيمي- رؤية إحيائية جديدة في منظور الامام الخميني

مختار الأسدي

مقدمه

عاش الامام الخميني أمه في رجل، ورحل عظيمًا عن أمه، كان تجسيداً كاملاً للمبادئ التي عاش لها ودعا إليها. لم تنفصل أقواله عن أفعاله، ولم تنسلخ كينونته عن كلماته، فكان النظرية والتطبيق، والقول والفعل، والمصداق والمفهوم، كان صدى أهل السماء لأهل الأرض، وهبة الله تعالى للمؤمنين والمسلمين والمستضعفين في نهاية القرن العشرين...

حرّك الشارع الاسلامي عقداً كاملاً من السنين، ومن أقصى الأرض الى أقصاها، وحكم وما زال يحكم وسيظل هكذا عقوداً أخرى ومن قبره الشريف، ما دام على وجه الأرض غيارى يرفضون الظلم، أو أحرار يتمرّدون على البغي، أو ثوار يتحدّون الطغاة.

لقد أصبحت كلماته، مثل مرقده الشريف، مزاراً للعشاق ومنهلاً للثوار ومثابة لطلاب الكرامة والمحرومين، ونشيداً للمستضعفين والشرفاء ودعاة التغيير

ص: ٢٣٣

والاصلاح.

لم تكن كلماته التي تركها في أعناق الرجال إلّا مشعلًا آخر من مشاعل النور يضيء الدرب للأحرار والثوار، ليشقوا طريقهم في الدهاليز المظلمة التي صنعها طواغيت الأرض، ونبراساً يواصل به رجال خطه الأصيل إضاءة هذه الدهاليز... نعم، ستظل كلمات الامام الخميني ومواقفه ووصاياه مصاديق صارخه لكشف زيف الأدعياء والمقاولين ووعاظ السلاطين وتجار الدين. كما ستظل صيحاته ورؤاه صرخات غضب مقدس لاستنهاض الأحرار والشرفاء واستصراخهم ومناشدتهم لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، سعيًا حثيثًا لاستكمال المشروع التغييرى الذى بدأه وصولًا لإنجاز مشروع النهضة الاسلاميه المعاصرة... من هنا صار الوفاء واجباً لهذا الرجل، وصار لزاماً أن تبقى كلماته خالده في ضمائر الأحرار والنجباء، وأن تبقى بياناته وأفكاره شاخص هداية ونبرات نور للسالكين والمناضلين والمؤمنين...

العبادات وفلسفه التغيير عند الامام

في فلسفه التغيير الاجتماعى والعبادات، كان للإمام الخميني قدس سره رؤية خاصه وأطروحه متكامله ميّزته عن الكثيرين من العلماء ومراجع الدين العظام، وجعلت منه رائداً ومجدّداً استطاع أن يؤكد قدرته التغييرية ومنهجه التجديدي بموقفية ونجاح باهرين. ولا نجانب الحق إذا قلنا: إنّ منهجه الإحيائي نال إعجاب العدو والصدّيق والقريب والبعيد حيث أعاد للدين الاسلامي العظيم قدرته الكامنه على تغيير النفوس، وفعله المؤثر على النفس البشرية في انطلاقتها نحو التكامل والرقى... وقد لُخصت رؤيته الإحيائية هذه في إيمانه العميق بقدرة الاسلام العزيز على

ص: ٢٣٤

إحداث نقله نوعيه في المحتوى الداخلي للانسان وصولاً الى التغيير الاجتماعي الشامل... ومن هنا نالت أفكاره قدره إشعاعيه فائقه، وصارت ثقافه جماهيريه يتحدث بها المثقفون والمفكرون وعوام الناس، فضلاً عن الفلاسفه والمتخصصين والعلماء. هذه الرؤيه هي التي مكنته من تفجير ثورته الاسلاميه العملاقه وإنهاء طاغوت متحكم، انطلق بعدها لتحكيم دين الله على أرض ايران الاسلام بعد غياب أو تغيب دام مئات السنين.

هذا الايمان وهذه الرؤيه وهذا التصدي لإقامه حكم إسلامي، كلّها كلفت الامام ضربه باهضه جعلته يتقاطع مع رؤى الكثيرين أو اجتهداتهم ومناهجهم، ووضعته أمام مرافعات تاريخيه حساسه خرج منها منتصراً، بعد أن تحدت المراكز الفقهيّه لهذا التوجه، وبعد أن تجلّت قدره الامام، بتوفيق الله تعالى، على صياغه نظريه متكامله في حركه التغيير وإعادة الروح الى عبادات وطقوس ما جاءت إلّا لصالح الانسان، أو ما جرى بها إلّا لمصلحه البشريه وإرساء دعائم الحب والموده بين بنى البشر، وصولاً لتحكيم حدود الله وشريعته وقرآنه...

لقد كان واضحاً تمام الوضوح لدى الامام رضى الله عنه أن الجماهير إذا عُبت تعبئه رساليه واعيه، ستكون أقوى من كلّ الأسلحه الماديّه والقوى السلطويه المعروفة في دنيا الناس... وقد أثبت فعلاً أن (القبضات الخاليه) إلّا من الايمان كانت أقوى من كلّ (سافاك) الشاه وجيشه ودرعه وأسلحته...

ففيما يرى بعض العلماء- وفق رؤيتهم الحركيه ومنهجهم التغييرى- مثلاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجبان إلّا بعد (ضمان الأثر وحرز الأمن من الضرر) وأن التغيير يمكن أن يأتى بسياسه اللين ومداراه الحاكم، والتسلل تدريجياً الى أجهزه السلطه، يرى الامام الخميني- وفق مبناه الفقهي طبعاً- أن التضحيه والمواجهه وثقافه الاستشهاد وتحدي السلطه الظالمه كلّها كفيله بإحقاق الحق

ص: ٢٣٥

وإزهاق الباطل.

وهذا يعني أنّ الإمام أدرك بثاقب بصيرة وعمق رؤية أنّ الطواغيت لا يتنازلون عن السلطة ولا يذعنون للحق إلّا تحت التهديد والذعر، وهو عين ما فعله النبي صلى الله عليه وآله حيث بدأ دعوته المباركة سلمية وعظيمة حكيمة في البداية، ولكن، وحين لم ترق لقريش وجبروتها وخيلائها، وحين قررت مواجهتها وملاحقة دعائها، شھر السلاح وحكم السيف في رقاب المتجبرين وأعداء (الحكمة والموعظة الحسنة).

صحيح أنه صلى الله عليه وآله وعلى امتداد رسالته الحركية دعوة وثورة ودولة لم يرق من الدماء إلّا القليل القليل جدّاً، وأنه تحمّل من الأذى ما لم يتحمّله نبيّ قبله من أجل حقن الدماء واستفراغ الحجّة، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه وآله، لم يجد بداً من تحكيم القوة في مرحلة من مراحل الصراع...

من هذا المنطلق يمكن القول: إنّ للإمام منهجاً خاصاً يتميز به عن الكثير من العلماء سمي فيما بعد بـ (خط الإمام) أو (نهج الإمام) أو (ما أطلق اصطلاحاً (خط الاسلام المحمدي الأصيل)) وكلّها مصطلحات حديثة شاع استخدامها بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وتمّ ترويجها مقابل (الاسلام الأمريكي) و (الخط الأموي) و (الحكم السلطاني) الذي كان يطلق على إسلام الملوك والسلاطين، الذين كانوا يوظفون الدين ونصوص الدين لتمرير مخططاتهم وتبرير شرعيتهم أو مشروعيتهم حكمهم، وتبريك من وعاظهم طبعاً (وعاظ السلاطين) وإطلاق بخور فقههم السلطاني (معمّداً) بمسوح دينية مزيفة.

ولا يعني هذا، على الإطلاق، أنّ نهج الإمام جاء شرعاً جديداً أو خطأً مذهبياً أو عقيدياً جديداً في الاسلام مقطوعاً أو مبتوراً عن مبادئ الاسلام وقيم الدين العظيم، وإنما جاء سلوكاً وتجربة وممارسة، وجاء دعوة صادقة لإحياء المغيب من تعاليم الاسلام، والدعوة الى إعادة حكومة الشريعة التي غابت أو

ص: ٢٣٦

غيت لقرون مديدة، تارةً تحت شعار طاعة الحاكم الظالم براً كان أو فاجراً، وتارةً تحت تميع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخرى تحت شعار التقيّة وعدم الاصطدام بالسلطين، وهكذا...

منهج الامام يهزّ الضمير المسلم بعنف

هذا من جانب، ومن جانب آخر، جاء خط الامام مندداً بدعاة انتظار الفرج بمعنى القعود والانتظار السلبي وليس الايجابي، وجاء مشدداً النكير على أولئك الذين يريدون تهميش دور العالم الديني وحصره في التكايا وحلقات الذكر وفتاوى الفقه الفرديّة المحدودة، التي ابتعدت عن الواقع الاجتماعي كثيراً، وانهمكت بالكامل بأحكام الطهارة والنجاسات والقصاص والديات وأحكام الشكوك والمياه، وعموم العقود والايقات، والزواج والطلاق، وما الى ذلك، أي استغرقت في العبادات دون المعاملات.

وهذا يعني أنّ الامام الخميني استطاع أن يحدث هزةً عنيفةً في ضمير الانسان المسلم، ويحدث (زلزالاً) في وجدان الشعوب الاسلامية، بعد أن أحدث يقظةً في نفوس العلماء، وفجر صحوةً في الفكر السياسي الاسلامي المعاصر.

هكذا تشكّلت خيوط (خط الامام) وهكذا بدأت حركته التغييرية من الحوزة ضد الطاغوت الحاكم، ومن العلماء ضد الحكم القائم، فتزلزلت (الثوابت) أو الرواسب البالية والموروثة، وتراجع الكثيرون ممن كانوا يعانون الحيرة في شرعية الثورة، وتأمّل آخرون ممن كانوا يعتقدون أنّ السيف أقوى من الدم، وأنّ الدبابة لا تُهزم بالقبضة الخالية، وانبهر صنف ثالث قائلين: إنّ (الفرج) يمكن أن يأتي على يد نائب صاحب الأمر وليس بالضرورة أن تكون كلّ راية ترفع قبل ظهور (الحجة عليه السلام) (راية ضلال) وصاحبها (طاغوت) (تصطلمه البليّة) - على حدّ تعبير الروايات التاريخية المتدافعة -... نعم، اهتزت ثوابت ما كان يُظن أنها ستهتز أو تهزّ، وارتجت مقاييس ما ظن أصحابها أنها سترجّ يوماً أو تُرجّ.

ص: ٢٣٧

جاء خط الامام ليؤكد احتواء العصر، ويوجه محددات الزمان والمكان وتحولاتها ومتغيراتها وحقائقها، ويترك للفقيه الكفوء العادل تقدير مصالح المجتمع الاسلامي الجديد، وفق هذه المتغيرات والتحولات. فقال:

«لو كان هناك شخص أعلم من ناحية العلوم المعهودة في الحوزات، ولكنه لا يستطيع تحديد مصلحة المجتمع، فهذا الشخص ليس مجتهداً في المسائل الاجتماعية والحكومية» أي أنه قدس سره اعتبر القدرة على تحديد مصالح المجتمع شرطاً من شروط الاجتهاد الجديدة، وأضاف عمقاً آخر لما يسمى ب (الاحكام الثانوية) التي تأتي مع الطرفين الزماني والمكاني، وبالتالي أسس رؤيته هذه على حدّ قوله:

«إنّ القضية التي لها حكم معيّن في السابق، يمكن أن يكون لها في الظاهر حكم جديد، فيما يتعلق بالعلاقات التي تحكم السياسة والاجتماع والاقتصاد في نظام ما، بمعنى أنّ نتيجة المعرفة الدقيقة في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تحوّل الموضوع الأول- الذي لم يتغير في الظاهر- الى موضوع يستلزم حكماً جديداً بالضرورة...» هذا (الاتجاه الاجتهادي) الذي سماه بعض الفقهاء (تحوّل الاجتهاد) والذي يقوم على أساس الزمان والمكان والظروف والأحوال، هو الذي استلّ خيوطه (منهج الامام) هذا، وهذا لا يعني بطبيعة الحال تغييراً في حكم الشرع المقدس، بل المتغير هو موضوع الحكم؛ لأنّ (المقيّد عدم عند عدم قيده) كما يقول الذهن الفقهى، ولذلك فإنّ الحكم يمكن أن يتبدّل تبعاً لتبدّل الموضوع.

دوائر التغير لدى الامام

وهنا تأتي الى إحصاء سريع لأهم الدوائر المغلقة التي سعى الامام لفك مغاليقها والانطلاق بها الى دوائر الفعل والتغير وتجاوز دوائر التنظير والتحذير، لنأتي في خاتمتها على أهم هذه الدوائر في الفعل الحركي الاسلامي وهي دائرة الحج الابراهيمى حسب تعبيره رضوان الله عليه.

ويمكن القول: إن أول هذه الدوائر المغلقة هو الفصل بين الدين والسياسة،

ص: ٢٣٨

حيث انتقل الامام بعالم الدين من كونه (مفتياً) في دار الافتاء أو موظفاً في وزارة الأوقاف أو (عابداً) في صومعة، الى مرجع للأمة وقائد للجماهير، وحاكم مبسوط اليد لتحكيم دين الله وتفعيل المشروع الاسلامي النهضوي الجديد...

وهذا يعني أن الامام قدس سره استطاع أن يتخطى الكثير من الأطر التقليدية، التي انكمشت داخلها الحوزة العلمية، وكادت تخنقها في جو من التشرنق والدوران حول الذات، وينتقل بالفكر الاسلامي من حالة التحجر والجمود والتقوقع الى آفاق واسعة في الانفتاح والواقعية والشمول...

بكلمة أخرى استطاع الامام أن يتجاوز الواقع المتكس، ويقفز على المخطط الاستكباري المدروس الذي أراد أو أريد به استغلال الشعوب الاسلامية واستهبالها، فنزل الى ميدان المعركة بوعى شمولي ثاقب وإرادة حديدية لا تخضع للتدجين ولا تنتهي أمام الابتزاز والإرهاب، فقال بوضوح كامل:

«إن المؤسسات الاستعمارية كلها وسوست في صدور الناس أن الدين لا يلتقى مع السياسة، والعلماء ليس لهم أن يتدخلوا في الشؤون الاجتماعية، وليس من حق الفقهاء أن يعملوا لتقرير مصير الأمة، ومن المؤسف - والقول للامام طبعاً - أن البعض منا صدق تلك الأباطيل، وقد تحقق بهذا التصديق أكبر أمل تحلم به نفوس المستعمرين...».

وهذا يعني أن الامام نسف القاعدة الغربية التي تدعو الى فصل الكنيسة عن السلطة؛ لأن الاسلام ليس كالمسيحية وأن علماء الاسلام ليسوا كالبابوات، وإذا صاروا مثلهم فسوف يحل بهم ما حل بأولئك... وباختصار شديد أن الغرب أراد للبابا أن يكون أباً روحياً لا علاقة له من قريب أو بعيد بشؤون الدولة وأمور الناس إلّا ما يخص الآثام والذنوب والاستغفار و (صكوك الغفران) السيئة الصيت ... ولكن ومع هذا الشد الأصيل لعدم فصل الدين عن السياسة، حذر أشد الحذر من عدم انجرار العالم الديني الى بحر السياسة الآسنة واصطياد أسماكه الميتة؛ لأن ذلك كما قال يؤدي الى خراب الدين والدنيا معاً... فقد كان دائم التحذير من

ص: ٢٣٩

الانجرار الى الأعيب السياسة والسياسيين، وكثير التأكيد على تهذيب النفس وتركيتها قبل الدخول فى دهاليز العمل السياسى... وكان يذكر دائماً بأقوال الأئمة سلام الله عليهم فى تحذيرهم الناس من حب الرئاسة وكيف أن «حب الرئاسة شاغل عن حب الله» وأن (السلطة ماء آجن) و «من طلب الرئاسة هلك» و «ملعون من ترأس» و «الرئاسة عطب» وأمثال ذلك.

أى أن الامام حاول التأكيد على الموازنة الدقيقة بين السياسة كهدف دنيوى رخيص، وبين كونها وسيلة ضرورية لإحقاق الحق وتحكيم الدين وإقامة المصير من حدوده وتعاليمه وقيمه...

هذا بشأن العلماء والسياسة، أما حول الأمة والسياسة، ودور الجماهير، فقد كان الامام الراحل دائم التأكيد على حضور الأمة فى الميدان وتحملها للمسؤولية فى خضم الصراع... وكان رضوان الله عليه يراهن على المستضعفين؛ لأنهم مادة الثورة ووقودها ومعينها الذى لا ينضب، ويوصى بخدمة هؤلاء ورعايتهم...

ولعله لم يترك مناسبة إلا وأكّد فيها على ما كان يسميه حضور الجماهير ورقابة الأمة، وكان يقول:

«ولولا حضوركم فى ساحة المواجهة لكانوا يسودون وجه ثورتكم فى العالم..»

إنكم بحضوركم الدائم أحبطتم مكائد أعدائكم... ليس هناك إثم أكبر من السكوت أمام أعداء الأمة... ولا توجد منحة إلهية أكبر من منحة حضوركم لمقاومة أعداء الثورة...».

انقذوا القرآن الكريم أولاً

وحين يقترب الامام قدس سره من شؤون العبادة وطقوسها المعروفة، خاصة فى كتاب العبادة الأول فى الاسلام (القرآن الكريم) نراه يتألم ألماً كبيراً وهو يرى هذا الكتاب العظيم يتحول فى دوائر الناس والعلماء والسياسيين الى (رقية) يُعلق على صدور الفتيات، أو وسيلة تبرّك يوضع على الرفوف، أو وسيلة اصطيد للبسطاء

ص: ٢٤٠

عبر توظيف بعض نصوصه وتجاهل النصوص الأخرى، وفي أحسن الأحوال يتحول هذا الكتاب المقدس الى كتاب موتى يُقرأ على القبور وأيام الفواتح... وليس كتاب أحياء.

يقول الامام في هذا السياق:

«وقد عمدت الحكومات الشيطانية وبواسطة الحكومات المنحرفة التي تتظاهر كذباً بالارتباط بالاسلام، الى طبع القرآن الكريم بخط جميل وإرساله الى البلدان المختلفة، فيتم بذلك استغلال بعض الجهلة ممن يتصورون أن هذا وحده يكفي...».

الى أن يعلن رأيه الواضح الصريح في دور القرآن الكريم في الحياة، ويدعو الى تحكيم حدوده وتعاليمه دون تعسف أو اجتراء، ويصرخ بأعلى صوته يوماً قائلاً:

«إننا نريد إنقاذ القرآن الكريم من المقابر».

بهذا الفهم للقرآن الكريم وتكريس دوره في حياة الناس، قيمةً ومنهجاً وثقافةً، عقيدةً ونظاماً، يأتي منهج الامام الراحل رداً واضحاً وصريحاً على أولئك الذين حاولوا إقصاء القرآن وتحنيط تعاليم السماء، ويأتي أيضاً تذكيراً صارخاً لأولئك الذين يريدون محاكمة (النص الديني) - كما يقولون - حين يهتمون القرآن أنه أصبح شيئاً ثميناً في ذاته، وبالأحرى أريد له أن يكون هكذا فيتألمون أو يتباكون قائلين:

«لقد تحول هذا النص المقدس الى شيء ثمين في ذاته، وتم تشيئته في الثقافة، فصار حلياً للنساء ورقيةً للأطفال وزينة تعلق على الحيطان، تُعرض الى جانب الفضيات والذهبيات...».

الإمام الخميني والحج الإبراهيمي:

حين يأتي الإمام الخميني الى الشعائر نرى له رؤية خاصة وفهماً خاصاً ميزاه عن الكثير من العلماء والفقهاء... ويأتي هذا الفهم من إدراك الامام الى الدور

ص: ٢٤١

العملى للشعار وليس فقط الى ظاهره وشكله...

ولعلّ الشغل الشاغل الذى استحوذ على فكر الامام وأثقل عليه همومه فى ايجاد معنى جديد لهذه الشعائر المقدسة هو رؤيته لمسألة الحج وما شخّص فيها من أبعاد إجتماعية مهمة جدّاً، أبعد بكثير مما كان يتصوّره الآخرون فى كونها ممارسة عبادية تنأى بالبعد الصالح بعيداً عن هموم الدنيا ومشاغلها وارتباطاتها...

نعم، كان الامام يقدر ما للحج من آثار معنوية ومعين روحى هائل وتركّية وتهذيب للنفوس لا حدود لهما، لما فى مشاعرها المقدسة من هيبة وأثر فى نفوس المؤمنين... ولكنه حاول أن يضيف الى ذلك المعنى الروحى معنىً اجتماعياً أغفله أو تغافل عنه الكثيرون ممن ينظرون الى الأمور بعين واحدة أو بُعد واحد...

وكان أكثر ما أشار إليه الإمام وأكّده فى بياناته المتكررة الى حجاج بيت الله الحرام وتوضيح رؤيته فى فلسفة الحج، هو تحويل هذه الشعيرة الاسلامية الكبرى الى فعل عبادى حركى يقضى على ذلك (الفصام النكد) بين الدين والسياسة، من جهة، وبين العبادة فى بُعديها الروحى والاجتماعى من جهة أخرى...

هذا الموسم العبادى المقدس - فى وجهة نظر الإمام - الذى يجتمع فيه قرابة المليونى مسلم من مختلف أصقاع العالم الاسلامى، والذى شرعه البارى - عزّوجلّ - كملتقى عام للمسلمين يجب أن يتحول الى مؤتمر عالمى شعبى جماهيرى يتدارس فيه المسلمون همومهم وشجونهم، ويسعون من خلال دراسة أهدافه الى الانعتاق من جور الطواغيت والحكام الظلمة، وأن تتخطى شعاريته حدود كونه طقساً عبادياً لتزكية النفس وتهذيبها رغم ما فى هذه التركيبة والتهذيب من معانٍ عظيمة ودور مؤثر فى صياغة النفس الانسانية وإشعاعها.

جاء الامام لينسف الفهم التقليدى المتحجّر الذى يريد لهذه الفريضة الالهية أن تبقى طقساً عبادياً مجرداً، لا يُعمق فيه وعى، ولا تتبلور فيه فكرة، ولا ينضج

ص: ٢٤٢

فيه رشد، ولا يتصعد فيه شعار الى شعور... أراد الإمام أن يجعل من هذا الحج الإبراهيمي - كما أراد الله خليل الله إبراهيم عليه السلام - قياماً للناس جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس.
فكان - رضوان الله عليه - يقول:

«إن على المسلمين الملتزمين الذين يجتمعون في كل عام مرة واحدة في المواقف الشريفة، ويؤدون واجباتهم الإسلامية في هذا التجمع العام والحشد الالهي... وباندفاع خالص نحو الله والقيم المعنوية والوفود على بيت الله العتيق أن لا يغفلوا عن الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه العبادة في هذا الملتقى العبادي السياسي» ويضيف:

«على العلماء الأعلام والخطباء العظام أن ينهوا المسلمين على مسائلهم السياسية وواجباتهم الخطيرة التي لو عملوا بها لنالوا الاستقلال الواقعي والحرية الحقيقية في كنف الاسلام العزيز وقطعوا أيدي المستكبرين وأعادوا مجد الاسلام وعظمته».

ويقول الامام الخميني في مكان آخر من هذا البيان:

«في هذا التجمع الالهي العظيم، الذي لا تستطيع أية قدرة سوى القدرة الأزلية لله تعالى أن تعقده، يتوجب على المسلمين أن يباشروا في دراسة مشاكل المسلمين العامة ويبدلوا جهودهم بالتشاور لحلها...».

فمن هذا الفهم الواعي لهذا المؤتمر الاسلامي الالهي الكبير، ينطلق الامام من محطة تغييرية كبرى يجدر بالمسلمين استثمارها في تصعيد وعيهم ودراسة مشاكلهم والارتفاع الى مستوى مسؤوليتهم في كونهم مستخلفين من قبل الله تعالى على هذه الأرض في إحقاق الحق وإقامة العدل...

وما دام هذا التجمع الالهي عالمياً - كما يرى الامام - وهو كذلك، فلماذا لا يجرى تدارس الوحدة الاسلامية؟ ولماذا يتواصل الطرز على الخلافات بين المسلمين في محاولات خيثة لزرع الفتنة في الصف الاسلامي؟ ولماذا لا يحجم دور الحكام في إذكاء نار الفتنة هذه؟

ص: ٢٤٣

الحج والوحدة بين المسلمين

يقول الامام متحرراً في هذا السياق:

«إن من أكبر هذه المشاكل وأكثرها أهمية، هي عدم الوحدة بين المسلمين، وإن بعض من يُسمون بزعماء الدول الإسلامية هم أساس هذه المشكلة، إذ إنهم يقومون تماماً كما يقوم الجناء الطامعون باستغلال هذه الخلافات بين الشعوب والحكومات لصالحهم، فيسخون هذه الخلافات عن طريق عملائهم الذين لا يعرفون الله، وأكثر من ذلك كلما وضع أساس للوحدة بين المسلمين هب هؤلاء لمحاربته بكل ما أوتوا من قوة وعملوا على نشر بذور الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الإسلامية...».

ولعل أكثر هذه الخلافات أو الاثارات خبثاً ومكرراً هو ما يثيره بعض وعاظ السلاطين حول بعض المسائل العبادية المذهبية، التي لا تخل بأصل العقيدة ولا تؤثر على جوهر الدين، وكيف أن بعض هؤلاء الوعاظ مثلاً ينشغلون في مواسم الحج في إثارة هذه النزعات الجانبية، فهذا يدعو الله باسم أوليائه وأنبيائه، وآخر لا يرضى بذلك؛ لأن المدعو هو الله تعالى وحده، وآخر يطلب الشفاعة بالوسيلة كما وردت في القرآن الكريم وغريمه يؤاخذة على هذه الوسيلة ويعتبرها شركاً أو كفراً، وثالث يُقبل قبر النبي مثلاً وصاحبه لا يرضى منه ذلك وهو يقبل القرآن الكريم مثلاً، وما الى ذلك من قناعات روحية وعاطفية لا تقتل في الود قضية ولا تخلف ديناً جديداً أو عقيدة جديدة ما دام الرب واحداً والنبي واحداً والقرآن واحداً والقبلة واحدة وكان الله يحب المحسنين.

ولم يكن الامام الخميني قدس سره ليقول هذه الكلمات أو يؤكد على الوحدة الإسلامية بعبارات مجردة ويترك الأمور العملية على عواهنها كما يفعل الكثيرون، ولكنه- رضوان الله عليه- اقترب خطوات عملية أذهلت الخصوم وجعلتهم في حيرة من أمرهم، فتراه مثلاً يُفتي بوجوب الصلاة خلف أئمة الجماعة في مكة

ص: ٢٤٤

والمدينة، وعدم جواز الصلاة خلف غيرهم في الديار المقدسة رغم الخلافات الظاهرية المزعومة بين الطائفتين المسلمتين، ويُفتى كذلك بعدم الصلاة على التربة الحسينية التي يعتبرها المسلمون الإيرانيون شعاراً عظيماً لاستحضار التواضع والسجود على التراب كما صلى النبي صلى الله عليه وآله في مسجد المدينة... لئلا يثير حفيظة إخوانهم المسلمين الآخرين الذين لم يألفوا هذا الطقس... محاولاً جهد إمكانه توصية المؤمنين أن يكونوا يداً واحدة ضد أعداء الاسلام وخاصة المستكبرين الذين لا يريدون للاسلام عزاً ولا لأهله وحدة أو مجداً أو كرامة...

إثارة الخلافات في الحج جريمة

ويروح الامام يندد بأولئك الجناة الذين يحاولون شق الصف الاسلامي وتمزيق كلمة المسلمين الواحدة بقوله:

«إن إثارة الخلافات بين المذاهب الاسلامية تعتبر من الخطط الإجرامية، التي تدبرها القوى المستفيدة من الخلافات بين المسلمين، بالتعاون مع عملائها المنحرفين بمن فيهم وعاظ السلاطين الذين اسودت وجوههم أكثر من سلاطين الجور أنفسهم...».

ولعل أكثر ما كان يجرح قلب الامام قدس سره هو تلك المعزوفة أو كلمة الحق التي أريد بها الباطل، والترويج لها في موسم الحج من قبل بعض وعاظ السلاطين، وكيف كانوا يوظفون ظاهرها أو معناها الظاهري لإيقاع القطيعة بين المسلمين ومنعهم من الحوار وتجاذب الحديث وتدارس الهموم والمشاكل...

فكانوا يرفعون الآية القرآنية الكريمة فلا رث ولا فسوق ولا جدال في الحج شعاراً لمنع أي حديث سياسي أو اجتماعي يمر خلاله المسلمون على آلامهم وأمالهم وتطلعاتهم، ويروحون يؤكدون فقط فقط على الجوانب العبادية التي تنأى بالمسلمين بعيداً عن أي حديث له علاقة بالأرض والواقع، وتحرّضهم على

ص: ٢٤٥

التحليق والتحليق فقط في ملكوت الله تعالى في تلك الأجواء الروحانية العظيمة... وفي محاولات مقصودة لإبعادهم عن كل ما يثير اهتماماتهم بشعوبهم وأرضهم وأوطانهم وحكامهم وثرواتهم ووحدتهم وعزتهم... هذا الشعار الذي أريد له أن يكون معولاً لتهديم كل حلقة حوار بناء بين المسلمين، ووصفه بأنه جدل وفسوق مقروناً بالرفث... جاء الامام ليحوّله الى جدل بالتي هي أحسن والى موعظة ودعوة كريمة لتلاقى المسلمين وحل مشاكلهم وحتى خلافاتهم بالكلمة الطيبة، وبعيداً عن السجال الفارغ والجدل المتهافت الذي لا يحل المشاكل فعلاً وإنما يعقدها ويذكرى نيرانها... بل يمكن أن تكون خطورة هذا الشعار أكثر من ذلك الذي حجز القرآن في المقابر، أو ذلك الذي راح يفسره ويوظف نصوصه لما يخدم أغراضه ومعالمة...

يقول الامام:

«إنّ هناك قضايا مؤسفة توجب البكاء عليها دماً... إنّ فقهاء البلاط الذين هم أسوأ من الطغاة اتخذوا من القرآن الكريم وسيلة للظلم وترويج الفساد وتسويق أعمال الظلمة والمعاندين لإرادة الحق تعالى... فوا أسفاه، إنّ القرآن الكريم كتاب الهداية الرباني هذا، لم يعد له من دور سوى في المقابر والمآتم بسبب الأعداء المتآمرين...» وأكثر من ذلك- والقول للامام طبعاً- «وبسبب الأصدقاء الجهلة أيضاً، وبدل أن يكون محوراً لتوحيد المسلمين في العالم ودستوراً لهم، أصبح هذا القرآن وسيلة للتفرقة وإثارة الفتن والخلافات...».

رسالة الحج امتداد لرسالة القرآن:

وفي سياق هذا الفهم الواعي لرسالة الحج يأتي الامام ليؤكد أنّ الدور المعول على هذا المؤتمر الالهي العالمي، لا يقلّ عن دور القرآن الكريم في إحياء الأمة

ص: ٢٤٦

المسلمة واستنهاض مسؤوليتها في الحركة والتغيير، اعتقاداً منه قدس سره أن القرآن كما هو كتاب هداية وحياء وليس كتاب موتى وقبور وفوائح فقط، فإنّ الحج هو الآخر كان وسيبقى مؤتمراً إسلامياً عالمياً لبناء الوحدة الإسلامية وتأكيد عزه المسلمين واستخلافهم أو ميراثهم لخلافة الأرض.

يقول الامام في هذا السياق:

«الحج هو النداء السماوي لإيجاد وبناء المجتمع الجديد البعيد عن الرذائل المادية والمعنوية. إنّ الحج ومناسكه هو التجلي الأعظم لحياء كريمه ومجتمع متكامل في هذه الحياة الدنيا...» ويضيف:

«ومن ذلك المكان ومن ذلك الموقع الذي يتواصل فيه مجتمع المسلمين من أي قومية كانوا ويصبحون يداً واحدة، ينطلق أداء هذه الفريضة المباركة التي يجب أن يكون أدائها وجوهرها توحيداً إبراهيمياً محمدياً. إنّ الحج هو ساحة عرض ومرآة صادقة للاستعدادات والقابليات المادية والمعنوية للمسلمين. الحج كالقرآن يستفيد منه المجتمع، فالمفكرون والعارفون بآلام الأمة الإسلامية إذا ما فتحوا قلوبهم، ولم يهابوا الغوص عن قرب في أحكامه وسياساته الاجتماعية سيصطادون الكثير من صدف هذا البحر، جواهر الهداية والرشد والحكمة والحرية، وسيرون إلى الأبد من زلال حكمته ومعارفه، ولكن ماذا نفعل؟».

وهنا يتأوه الإمام ويزفر زفرة مزرّة تعبّر عن لوعه وحزن وألم، لما يراه من واقع المسلمين وابتعادهم عن جوهر الهداية هذا، فيقول: «وأقولها بألم وحزن، إنّ الحج أصبح مهجوراً كالقرآن وبنفس النسبة التي اختفى فيها هذا الكتاب- كتاب الحياة والكمال والجمال- بسبب حجب النفس التي صنعناها بأيدينا ودفعنا هذا الكثر. كنز أسرار الخلقة، فكذلك الحج أصبح أسير هذا القدر، قدر أنّ الملايين من المسلمين يجتمعون كلّ سنة ويضعون

ص: ٢٤٧

أقدامهم محل قدم محمد وإبراهيم وإسماعيل وهاجر ولا يوجد أحد يسأل:

ماذا فعل إبراهيم ومحمد؟ وما هو هدفهما؟ ماذا طلبا منا؟ ماذا أرادا؟ وهذا مالا نفكر به مع الأسف الشديد».

بهذا التشخيص الدقيق للدور، وبهذه الرؤية الفاحصة لرسالة الحج يروح الامام الخمينى منظرًا ومفكرًا حين يرى أن لابد من التنظير، والتنظير على الأقل، لإنقاذ المسلمين من هذا الواقع المؤلم.

الحج دون وعى ليس حجاً

يواصل الامام حديثه قائلاً:

«من المسلم أن حجاً دون معرفه ووعى ودون روح ودون حركة ونهوض، وحجاً دون براءة، وحجاً دون وحدة، وحجاً لا ينتج هدماً للكفر والشرك ليس حجاً. وخلاصة الأمر أنه يجب على جميع المسلمين السعى لأجل تجديد حياة الحج والقرآن وإعادتهما ثانية الى ساحه حياتهم، وعلى المحققين المؤمنين بالاسلام أن يبينوا التفاسير الصحيحة والواقعية لفلسفه الحج، ويرموا فى البحر كل نسيج الخرافات وادعاءات علماء البلاط».

ولم يكتف الامام بعرض هذا البعد العملى لفلسفه الحج ودوره فى البناء الرسالى للشخصية الرسالية، بل راح الامام وفى مواطن كثيرة من بياناته وتوجيهاته يؤكد على البعد الآخر، وهو البعد الروحى والمعنوى، وهو ليس أقل من البعد الأول فى دوره وهدفه فى بناء الشخصية الرسالية المتوازنة... إذ يقول قدس سره:

«إننى أوصى جميع العلماء المحترمين والكتاب والمتحدثين الملتزمين أن يوضحوا لجميع المسلمين وخاصةً الحجاج منهم أهداف هذه الفريضة المقدسة. كما إننى أوصيهم بتعليم الحجاج مناسك الحج وكيفية أدائها بشكلها

ص: ٢٤٨

الصحيح حتى يكون عملهم خالياً من الأخطاء، وعدم الاكتفاء بأننا أدينا الفريضة وأنجزنا الواجب كيفما كان، فإنَّ الأخطاء في هذه الفريضة تترك آثاراً وإشكالات على صحتها قد تكلفهم وقتاً وجهداً مضاعفاً لتصحيحها...».

الحج عبادة ورسالة

ومن قراءة متأنية لبعض كلمات وخطابات الامام العميق حول الحج كفريضة عبادية ذات بُعد اجتماعي وسياسي يكتشف المحلل أن الامام لم يفصل بين السماء والأرض، ولم تتضح لديه حالة على أخرى، فكما تراه هائماً عرفانياً في ملكوت السماء عاشقاً لقدرة الله غارقاً في محبته تراه في الجانب الآخر غارقاً في حب الناس مستشعراً همومهم متحسناً لآلامهم وأوجاعهم يحث السير لتحقيق العدل والحرية لبنى الانسان مستلماً عمقاً اجتماعياً من هذه العبادة، ووعياً سياسياً تغييراً من تلك...

لنستمع الى الامام وهو يقول:

«عندما تلفظون لييك اللهم لييك، قولوا: لا، لجميع الأصنام، واصرخوا: لا، لكل الطواغيت الكبار والصغار...».

وهو بهذا يجسد الوجدانية الكبرى لله تعالى والألوهية المطلقة له سبحانه...

فالتلبية لله وحده هي رفض لكل الآلهة المزيفة الأخرى، والتوحيد المطلق لقدرته جلّ وعلا هي الرفض المطلق لكل الأصنام البشرية... وعبارة (الله أكبر) هي الأخرى تعني أن الله سبحانه وتعالى أكبر من كل كبير... وأن تكبيره سبحانه هو تصغير لكل الطواغيت الصغار والكبار وخاصة الكبار...

وهو بهذا المعنى يريد أن يؤكد أن هؤلاء الطواغيت والحكام الظلمة إنما هم أصنام وأوثان يجب سحقهم، وأن على المسلمين أن يعتمدوا على القدرة المطلقة للباري تعالى وأن يتمردوا على الحكومات الظالمة ويحققوا عزتهم وكرامتهم من

ص: ٢٤٩

خلال الانتماء لقدرة الله وإرادته وجبروته...

وهو في مكان آخر، وحين يؤكد على مسيرة البراءة من المشركين والظالمين إنما يريد أن يعلن موقفه الواضح والصريح من أصنام الشرق والغرب وأذنانهم وأذيانهم، فنراه يقول:

«وأثناء الطواف في حرم الله حيث يتجلى العشق الإلهي، أخلوا قلوبكم من الآخرين، وطهروا أرواحكم من أى خوف لغير الله، وفي موازاة العشق الإلهي، تبرأوا من الأصنام الكبيرة والصغيرة، وكذلك من الطواغيت وعملائهم وأزلامهم، حيث إن الله تعالى ومحبيه تبرأوا منهم، وإن جميع أحرار العالم بريئون منهم...

وكلما اقترب الامام من تفاصيل الممارسة العبادية للحج، يضع لكل ممارسة هدفاً اجتماعياً يشد المتعبد خلالها بما وراءها من أجل العمل في سبيل عيال الله وعدم الاكتفاء بالارتواء الروحي الذي هو بحد ذاته حالة نفسية عظيمة تشد العبد الى خالقه والتأمل بما وراء هذا الخلق والهدف منه ونهايته ومآله... يقول الامام:

«وحين تلمسون الحجر الأسود اعقدوا البيعة مع الله أن تكونوا أعداء أعداء الله ورسوله والصالحين والأحرار، ومطيعين وعبداً له، أينما كنتم، لا- تحنوا رؤوسكم واطردوا الخوف من قلوبكم، واعلموا أن أعداء الله وعلى رأسهم الشيطان الأ-كبر جناء وإن كانوا متفوقين في قتل البشر وجرائمهم وجنایاتهم».

وفي توجيهه أو تفسيره للسعى بين الصفا والمروءة، يشير الامام الى هدف اجتماعي آخر أقل ما فيه هو الوصول الى المعشوق والسعى للالتحام به، وتجاوز كل المعشوقات الطينية الدنيوية التي تشد الانسان إلى الأرض وتُخذله وتُمسك به، وتُثقله بهموم تافهة وطموحات صغيرة...

يقول الامام في هذا الصدد:

«أثناء سعيكم بين الصفا والمروءة اسعوا سعى من يريد الوصول الى المحبوب،

ص: ٢٥٠

حتى إذا ما وجدتموه هانت كل الأمور الدنيوية، وانتهت كل الشكوك والترددات... وحينها تزول كل المخاوف والحبائل الشيطانية والارتباطات القلبية المادية، فتزهر الحرية، وتنكسر القيود الشيطانية والطاغوتية التي أسرت عباد الله...».

وهكذا في كل موقف ومشهد من مواقف ومشاهد المشاعر المشرفة في مسيرة الحج الكبرى، فترى للإمام رؤية في المشعر الحرام وفي عرفات، ورؤية في منى وعند الرجم ورؤية عند الطواف وعند الذبح... وكلها تؤكد على ضرورة استشعار الإنسان لدوره على هذه الأرض وأنه خليفة الله وعليه أداء الرسالة وحمل الأمانة باخلاص وصدق... يقول الامام:

«سيروا الى المشعر الحرام وعرفات وأنتم في حالة إحساس وعرفان، كونوا في كل موقف مطمئني القلب لوعد الله الحق بإقامته حكم المستضعفين. وبسكون وهدوء فكروا بآيات الله الحق، وفكروا بتخليص المحرومين والمستضعفين من براثن الاستكبار العالمي، واطلبوا من الحق تعالى في تلك المواقف الكريمة تحقيق سبل النجاة. بعد ذلك عندما تذهبون الى منى اطلبوا هناك أن تتحقق الآمال الحقة حيث التضحية هناك بأثمن وأحب شيء في طريق المحبوب المطلق، واعلموا أنه ما لم تتجاوزوا هذه الرغبات، التي أعلاها حب النفس وحب الدنيا التابع لها، فسوف لن تصلوا الى المحبوب المطلق. وفي هذا الحال ارجموا الشيطان، واطردوا الشيطان من أنفسكم، وكرروا رجم الشيطان في مواقع مختلفة بناءً على الأوامر الإلهية، لدفع شر الشياطين وأبنائهم عنكم...».

لاحظ استخدام الامام لكلمة (الشياطين) و (أبنائهم) ولاحظ التوجيه المتعمد للتأمل في شياطين الأرض الذين هم أسوأ من شياطين السماء...، ولاحظ أيضاً كم استغرق (المستضعفون والمحرومون) من فكر الامام وهم، والذين هم ضحية الطواغيت وأبناء الشياطين.. هؤلاء الفقراء والحفاه - كما يسميهم الإمام - الذين

ص: ٢٥١

يصنعون الحياة وهي محرمة عليهم...

ولم يكتفِ الامام بأن يقف مع مناسك الحج وقفه عباديه بحتة لا علاقة لها مع دنيا الناس، ولكنه حاول إشعار ضيوف الرحمن بأن يتأدبوا بآداب الله ويتخلقوا بأخلاق رسول الله وأن يكونوا رحمانين في تعاملهم مع عباد الله، وأن يحفظوا كرامة الاسلام بمحاربة أعداء الدين وتبني هموم المسلمين...

يقول الامام قدس سره:

إن هذا السفر الالهي الذي تذهبون إليه، وترجمون فيه الشيطان، وإذا ما كنتم- لا سمح الله- من جنود الشيطان سترجمون أنفسكم أيضاً، يجب أن تكونوا في هذا السفر رحمانين، وأن تصبحوا رحمانين، حتى يكون رجمكم رجم أتباع الرحمن وجنوده للشيطان، وأنتم تقفون في تلك المواقف والمواضع الكريمة.

معاذ الله أن يتلوث وقوفكم بشيء خلاف الشرع، أو يتلوث بالمعصية، ففضلاً عن إراقة ماء الوجه أمام الله تسقط كرامه الاسلام في الدنيا. إن كرامه الاسلام اليوم متقومه بوجودكم، أنتم الذين تذهبون جماعات جماعات الى تلك المواقف الكريمة ويشاهدكم سائر المسلمين في شتى بقاع العالم...».

الحج هدف ووسيلة

وكما هي بقية العبادات في نظر الامام، فإن الحج ليس هدفاً بحد ذاته وإلا «فما أكثر الضجيج وأقل الحجيج» كما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام والحج ليس تركية للنفس فقط من براثن الآثام وشرورها فقط، فقد يكون المرء أحياناً ولياً من أولياء الله في طهره ونظافته ونزاهته، ولكنه ليس ولياً لعباد الله... أي أنه عمل لتزكية نفسه وتطهيرها ولم يعمل لتطهير الآخرين وتزكيتهم وتغيير نفوسهم، وربما يكون المرء نقياً طاهراً في ذاته ولكنه لا علاقة له بالناس ولا شأن له بهم... يدور حول نفسه وذاته صائناً نفسه مهذباً لها، ولكن ليس له هم غير هم نفسه ولا يهمه غير تهذيب عائلته وبيته ولو تلوث جو الأرض ومن عليها.

ص: ٢٥٢

هذه الإثارة الحساسة، حاول الامام الخميني التحرش بها ودعوة الناس والعلماء خاصة للتأمل في آثارها الاجتماعية، ويتساءل كيف ولماذا بعث الله تعالى الأنبياء مبشرين ومنذرين؟ وكيف دعا سبحانه في العديد من آياته البينات حتى الى القتال في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟

قال تعالى:

وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

وهذا يعني أن العبادات والأحكام والأنبياء والرسول والكتب السماوية كلها جاءت من أجل الناس والمستضعفين منهم خاصة الذين لا حول لهم ولا قوة، والذين يسحقهم طغيان الجبابة وفرعونيتهم وغلظتهم...

فالمستضعفون في نظر الامام هم صناع التاريخ ووقود الثورات، وهم «أرذلنا» في مصطلح القرآن الكريم، الذين اتبعوا الأنبياء وانتصروا لهم، وكانوا نداءً للطغاة والمستكبرين على امتداد التاريخ... هم الحفأة الجياع القادرون على المواجهة ونزف الدم، فهم لا يساومون ولا يجاملون ولا يدهنون... فهم الذين أوصى القرآن الكريم بإطعامهم وتقديم الأضحية لهم في موسم الحج والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر.

ولم يرفع الامام الخميني شعار المحرومين والمستضعفين للتجارة والاستهلاك كما يفعل السياسيون عادة لتوظيف الشارع وتعبئته وتحشيدته باتجاه هدف خاص، وإنما كان ذلك من مقدمات وبواكير أفكاره... فهو القائل في بدايات محاضراته حول الحكومة الاسلامية قبل سنين من انتصار ثورته:

«وقد استعان المستعمرون بعملاء لهم في بلادنا من أجل تنفيذ مآربهم الاقتصادية الجائرة، فنتج عن ذلك أن يوجد مئات الملايين من الناس الجياع

ص: ٢٥٣

يفتقدون أبسط الوسائل الصحية والتعليمية، وفي مقابلهم أفراد ذو ثراء فاحش وفساد عريض... وهؤلاء الجياع هم دائماً في كفاح مستمر ضد الحكام الجائرين، أما نحن فمكلفون بانقاذ المحرومين والمظلومين، وإننا مأمورون بإعانتهم لمناوأة الظالمين وفقاً لما جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام «كونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».

واستمر الامام على هذا النهج طيلة أيام حكمه حتى قيل فيه: إنه لم يوجد عالم أو مرجع مبسوط اليد على امتداد عصر الغيبة، يحب شعبه ويناصر المحرومين، ويعيش همومهم وآلامهم مثل هذا الرجل. أما أقواله الشهيرة «أنا خادم وليس قائداً» و «أنا أقبل أيادي شباب التعبئة» و «إن شعرة واحدة من جلد فقير تساوي كل أصحاب القصور» معروفة للقاصي والداني، وأنه مثل تلك المفاهيم مصاديق واضحة في شخصيته وزهده وتواضعه... فكان الوريث الطبيعي والامتداد الحق لذلك الوصي الزاهد العظيم، الذي عاش ورحل مثلاً رائعاً لقولته الخالدة:

«ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عز» أي أنه لم يكن يطلق هذه العبارات كشعارات ولافتات للاستهلاك والارتشاء السياسي، ولكنه كان مصداقاً رائعاً لما قاله وأطلقه وتحدث به قبل ثورته وبعدها، فهو القائل لنجله (أحمد): «لا تكتب لي بعد الآن اسحب خط هاتف وأنا أدفع» فأنت أيضاً لا تملك شيئاً سوى أموال الفقراء. احترز من الصرف الزائد».

وهذا حينما كان الامام في النجف الأشرف، ونجله في ايران، وكذلك ما تذكره سيرته العطرة عن عدم وجود هاتف في بيته في النجف، وكانت زوجته كلما أرادت الاتصال بأولادها في ايران كان عليها أن تخرج الى دائرة البريد في حر الصيف أو تذهب بخجل الى بيت الشيخ نصر الله الخلخالي لتستأذنه في الاتصال بايران، وكان الرجل يرحب بها ويستقبلها بتكريم... أما بعد انتصار الثورة وأثناءها فمعروفة مواقفه ومصاديق زهده بشكل

ص: ٢٥٤

مذهل، فهو الذي رفض أن يسكن بيتاً فخماً في قم أو طهران، ورفض أن تخصص له سيارة خاصة فارهه، واعترض يوماً حين جيء له بسيارة أخرى غير السيارة الشعبية المصنوعة في إيران، كما اعترض بشدة يوماً حين اكتشف أنه قد تم إعداد ملجأ له خاص يحميه من القصف الجوي أثناء الحرب وأمر بتهديم الملجأ.

أما ما كتبه حول مسأله تركته فتوقف عنده العقول والقلوب معاً، ولا- يعبر فقط عن موقف استنهاضي أو تعبوي، وإنما عن موقف رسالي ومبدئي مسؤول لا يقوله ولا يفعله إلا الأولياء والأوصياء.

هاك ما كتبه في هذا الصدد وأكدده على كل مسؤولي الدولة الاسلاميه:

«... وإني أعلم بوضوح كامل، أنه ليس لابني أحمد في أي بنك داخلي أو خارجي، أو أية مؤسسة أي سهم أو مبلغ، وأنه لا يملك في أي مكان لا في الداخل ولا في الخارج أي أرض، زراعيه أو غير زراعيه، ولا يملك أي مبنى أو عقار أو ما شابه ذلك...».

ويضيف:

«وإذا ما تبين من بعدى أنه يملك أيّاً من ذلك في الداخل أو الخارج فإنّ على الحكومة أن تصادرها منه بإجازة فقيه ذلك الزمان، أو تحاكمه (لاحظ)...»

والمؤمل أن يراعى مسؤولو الجمهوريه الاسلاميه دوماً الضوابط وأن يحترزوا من الروابط...».

وعلى نفس النهج وفي نفس الاتجاه جاءت كلمات معبره في وصيته لنجله المذكور (رحمه الله عليه) ووصيته له بالمستضعفين والمحرومين، حين كتب له يوماً يقول:

«... آمل أن يرضى الله تعالى عنه (عن أحمد) كما رضى عنه أبوه، وأن يوفق ما وسعه ذلك في خدمه المحرومين والمستضعفين، الشريحه الأكثر استحقاقاً لتقديم الخدمه من بين جماهير الشعب التي أوصى بها الاسلام...».

ص: ٢٥٥

وفي وصية أخرى له لنجمله أيضاً جاء فيها:

«... وكذلك من الأمور المهمة التي ينبغي أن أوصي بها: هي الحرص على إعانة عباد الله خصوصاً المحرومين والمستضعفين المظلومين الذين لا ملاذ لهم إلا الله تعالى، فابذل ما وسعك في خدمتهم، فذلك خير زاد وهو من أفضل الأعمال عند الله، ومن أفضل الخدمات التي تقدم للإسلام العظيم...»

وأضاف:

«اسع في خدمة المظلومين وفي حمايتهم مقابل المستكبرين الظلمة»

وكأنه بذلك تجسيد جديد بل إحياء عظيم لذلك الصوت السماوي (صوت العدالة الانسانية) الخالد، صوت أمير المؤمنين عليه السلام حين كتب لواليه على البصرة يقول:

«... أقنع من نفسي بأن يقال عني أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون لهم أسوة في جشوبة العيش...».

وهكذا، ولئن افتتح الإمام الخميني مقدمات ثورته بهذا الحب للمستضعفين ومواساته لهم، فإنه عاش لهم نفس الحب ونفس المواساة في ثورته وأيام حكمه، ولم ينس ذلك في معظم بياناته حتى لحجاج بيت الله الحرام وهم يؤدون مناسك حجهم الأعظم، ولم ينس أن يترك رؤيته الصريحة في هؤلاء المحرومين حتى في وصيته الخالدة، حيث كتب يقول:

«... إن كل ما فعلته الحكومات المتسلطة كان من أجل مصالحها الشخصية أو الفئوية، أو من أجل رفاهيّة فئة المترفين والأعيان، فيما كانت الفئة المظلومة وسكنة الأكواخ محرومين من كل مواهب الحياة، حتى الماء والخبز وما يُقام به الأود، وهؤلاء المساكين مسخرون لخدمة تلك الفئة المترفة المنغمسة في الملذات...»

وأضاف مستصرخاً هؤلاء المحرومين أنفسهم:

ص: ٢٥٦

«وليرص أبناء الشعب النبيل أن يكون رئيس الجمهورية والنواب من الذين تحسّسوا حرمان المستضعفين والمحرومين وظلامتهم، وممن يسعون الى رفاهيتهم، وليسوا من الرأسماليين والإقطاع والأعيان المترفين الغارقين في الملذات والشهوات، الذين لا يستطيعون إدراك معنى الحرمان وآلام الجوع والحفاة...».

اذن، ومن خلاصة ما أراد الامام تركيزه في صناعته هديفة العبادة والحكم، والبحث عن مقاصد الشريعة كما يقولون، في الحج وغير الحج، هو تأكيد على هؤلاء المستضعفين، وأنهم الأبناء البررة للثورة الذين يعطون عادةً ولا يأخذون، أو أنهم يعطون أضعاف ما يأخذون، أي عكس غيرهم الذين يأخذون ولا يعطون، وإذا أعطوا فإنهم يأخذون أضعاف ما يعطون... وهذا هو الفرق بين من يدرك أن السلطة عطاء وتضحية ونزف، وغيره الذي يفهم أنها سلطة وفرصة وحصّة وسهم...

من هذه المنطلقات ووفق هذه الأسس والمقاييس كان الامام الخميني يحاول خلق ثقافة جماهيرية ورأى عام إسلامي يُشعر الأمة الاسلامية أولاً بمسؤوليتها ويستنهضها على الارتفاع لتلك المسؤولية والنهوض بها... فلم يجد ملتقى أفضل من ملتقى الحج الإبراهيمي هذا الذي يقوم فيه مئات الألوف من المسلمين الآتين لبيت الله العتيق من كلّ فج عميق، وجميعهم يرددون: «لييك اللهم لييك، لييك لا شريك لك لييك... إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»..

ومن هذه التلبية ومن هذا الجو الروحي المفعم بمعاني الطهر والصفاء وتركبة الروح... أراد الامام أن ينتقل بالفرد المسلم الى أبعد من هذه التركيبة، وأن ينتقل بالعبادة من شأنها الفردي العظيم بحد ذاته الى شأنها الاجتماعي الفاعل ودورها في تغيير الأمم والشعوب... فما دام المسلمون في هذا المؤتمر قلباً واحداً وروحاً واحدة، وتوجهاً واحداً

ص: ٢٥٧

نحو أنبياء الله، تجمعهم كعبه واحدة وقرآن واحد ونبي واحد وقبل كل ذلك وبعده رب واحد، فلماذا لا تستثمر هذه المعاني العالية لخلق إرادة إسلامية واحدة ومنهج إسلامي واحد وعلى الأقل لمواجهة أعداء الإسلام أو ممن يريدون تمزيق المسلمين بإثارة الفتن والثغرات، والنأي بهم بعيداً عن همومهم وآلامهم وآمالهم وتطلعاتهم...

كان الإمام بهذا الاتجاه، وكان في تعاطيه مع مسألة الحج بهذا المستوى من الشعور بالمسؤولية... مسيرة من الفرد إلى المطلق، وسفر من الخلق إلى الحق، وعودة ناضجة وراشدة لتحقيق رسالية المرء المسلم في كونه خليفة الله في أرضه ومستخلفاً عاهد ربه على حمل رسالته حين ناءت بحملها الأرض والسماء والجبال...

إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان...

الهوامش:

ص: ٢٥٩

اثر الحج في الوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية

اثر الحج في الوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية

اثر الحج في الوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية

عفيف النابلسي

قال تعالى: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍّ عميق* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير.

فكرة الحج هي فكرة تمهيدية وصورة مصغرة عن يوم القيامة، بل قل هي القيامة الصغرى، وهذه الفكرة تقوم بدور تذكيري كبير لإعادة الوضع الإنساني إلى الدائرة الوسط.

فهى أولًا: تثير بنفس الإنسان حالة القرب من النهاية، والتي تجعل الإنسان يراجع حساباته في الظروف الصعبة، ويتراجع عن أمور كثيرة، ويتنازل عنها لحساب المستقبل.

وثانيًا: تعيد إلى الإنسان ذاكرة الإنسانية في نفسه، بل قل العبودية الصحيحة؛ لأنَّ البيئة الاجتماعية خلقت فيه ميلًا حسيًا ونفسيًا إلى عبوديات كثيرة، فهو مستغرق في أشكال العبوديات يهتف لها ويعمل من أجلها ويفلسفها ويدعو إلى العمل تحت

ص: ٢٤٠

شعاراتها، كما نسمع أو نقرأ عن أشكال متعددة وعناوين متنوعة من فلسفة انجرار الإنسانية إلى عبودية البشر والحجر والشجر والذات والهوى والجند والرئاسة والقومية والعرقية والأصالة والعراقة والكرامة والمصلحة، فهو عندما يحرم ويلبى ويصلى وينوى ويطوف ويسعى ويقصر ويقف ويبت ويرجم ويذبح ويخلق، يستشعر عظمه الله في نفسه، ويستصغر كل الآلهة المصطنعة وأنصاف الآلهة الذين جعلوا أنفسهم أرباباً تُعبد من دون الله.

نعم في مناسك الحج يتجاوز الإنسان ذاته ويهاجر كهوفها المظلمة ويترك أنانيته وكبرياه؛ ليحقق أفضل المنطلقات الجديدة لها، أو قل لبنى ذاته من جديد، ويركز وجوده من جديد ويؤمن ذاته من جديد. ويعلى ذاته من جديد؛ لأنه كما ساهم في إنزال الذات وإسقاطها من لباس الكبرياء والعظمة والأنانية كما أعلى شأنها وأقام بناءها على أتم أساس وأكرم مستقبل.

ثالثاً: أن الحج يثير في النفس فكرة التجرد والصعود إلى العلو حيث الشوق الكلى والاستغراق المجموعى في انس القداسة حيث للنفس أشواق تتجاوز فيها المعانى التى تعرفها عبر الحب والعلم والمجد والأمر والنهى والكرامة، ولا يتم ذلك إلا من خلال المعاناة والقرب المعنوى، الذى يجعل دائرة الذات أقرب إلى دائرة الاتحاد الكلى.

لا يدرك الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها رابعاً: الحج على مستوى الدائرة الشخصية أنفع عمل شاق لراحة النفس يكتسب الإنسان فيها قوة ومناعة وطاقه روحية وإضاءة نفسية تعكس صورته وطاقته على حياته الفردية والعائلية والاجتماعية، ويتحول الفرد من خلال هذا السلوك إلى أمة؛ لأنه يحقق جوهر العبودية، ولم يصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى هذا المستوى الرفيع من السلوك، أو قل لم يتحول إلى أمة إلا بعد أن مرّ بمرحلة الاحتراق الكامل والانصهار التام بنار المحبة الإلهية إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله.

خامساً: عندما يصل الإنسان إلى المستوى العالى، ويطهر هذه الذات

ص: ٢٤١

الأماره بالسوء ينتقل إلى حب الآخرين ويعمل من أجل إسعادهم، فهو يذوب جوعاً وشوقاً في محبتهم وخدمتهم، ويعمل جاهداً من أجل راحتهم، وإذا أصبح الإنسان كذلك، ذابت من نفسه كل الفوارق القومية والعرقية والقبلية واللونية، ونظر إلى بقية المسلمين بمنظار عالمي لا يفرق بين أرض وأرض وجنس وجنس وعرق وعرق ومذهب وآخر وعاد هذا الفرد يشكّل امية بكل ما لها من أحاسيس ومشاعر عامة وطموحات وتطلعات كبيرة.

وأذكر أنني عندما تشرفت قبل عشرين سنة إلى بيت الله الحرام وشاهدت عن كثب كيف أن الملايين من المسلمين ترمق بنظر الذلة إلى العزيز الجبار، والجميع يطلبون منه تعالى فكاك رقابهم من النار، ذهبت من نفسي كل الرواسب الجغرافية والعرقية والمذهبية، ورحت معهم أَدعو إلى الله أن يغفر لهؤلاء جميعاً. شعرت أنني أحبهم بصدق؛ لأنهم يحبون معبودي ومعشوقي بصدق. وعندما تصل الامية إلى هذا المستوى من الصديق في التعاطي، وتذوب فيها كل الرواسب الجليدية، وتلتقي على محبة الله سيكون عندئذ للامة شأن آخر.

سادساً: عندما يحج الإنسان بوعى سوف يشعر أنه كان معزولاً عن أهله ومحبيه، وأن له اخوة إذا استحكمت علاقته الطيبة معهم سوف يكون علاقته من الوشائج الثقافية على مستوى طموحات الامة ثقافياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ومن الأخطاء أن يحاول بعض جرّ الناس لنفسه بدل أن يجزّها لرّبّه، ويقدم لها ثقافة شخصية بدل أن يزودهم بثقافة إلهية.

لأنه عندما يحج ويرى هذه الحشود البشرية الدولية العالمية كلها تلتقي في الكعبة المشرفة وتؤدي نفس المناسك، وتعبر المناسك عن مدلول وحدوى كبير سوف يشعر الحاج بأدائه لهذه الفريضة أنه مل الزمن ومل التاريخ ومل المستقبل، وأن المعاناة التي يلاقيها من طواغيت زمانه ما هي إلا مشقة صغيرة، وبعدها الراحة الكبرى في وصول الإسلام المحمدي الأصيل كما

ص: ٢٤٢

نادى به الإمام الخميني قدس سره - إلى قيادة الامة، وإحلال العدل الإلهي والسلام العالمي المنشود.

سابعاً: أن تأملات المسيرة الاجتماعية من خلال التصور الإسلامي سوف تظهر بشكل أبرز وأوضح: لأن المجتمع الإسلامي المجتمع النخبة يعيش حالة الانصهار الكامل في المشاعر والعواطف والشعائر، وهذا المجتمع المتماسك القوى، والذي يتفاعل مع ربه وأوليائه في هذه الرحلة هو الذي سوف ينقل هذا التفاعل من خلال عملية تلقيحية تنتج زرواً نامية الثمار في الحقل الاجتماعي الكبير. وأفضل وسيلة لتربية الامة التعليم السلوكي، الذي يجسد الفكرة عملياً من خلال صبر القيادة أو صلاتها أو ذوبانها في الحق.

وما كانت المسيرة الإسلامية في حياة الرسول الأقدس لتتصر لولا وجود المجتمع القدوة صاحب السلوك النبيل والفارق في الاثار والمحبة وخدمة الناس، وكذلك ما كانت المسيرة الالهية لتتصر لولا وجود عناصر ذابت في الوحدة والامة وأعطت كل ما عندها، وتنازلت عن الكثير الكثير من وجودها وحضورها في المسرح وتحت الشعاع.

ثامناً: أن المدخل السياسي المهم لحركة الامة يؤخذ من قوتها وتمسكها بشعائرها ومقدساتها، وأنه بلغ من حفاظ الامة على مقدساتها أن تبذل النفس والنفيس للوصول إليها، فهاهم المسلمون اليوم وقبل اليوم يستجيبون لنداء الله، ويأتون على كل ضامر ومن كل فج عميق في الجو والبر والبحر، ليعلنوا موقفاً موحداً وهدفاً موحداً وثقافة موحدة وشعائر موحدة.

وعلى الامة في هذا المجال أن تضع القيادة الموحدة، وتتخذ المواقف الموحدة من أعدائها، وتحدد العداوات على ضوء المرحلة أو على ضوء الهدف.

والعدو جاد لانتزاع الكعبة من يد المسلمين؛ لأن بقاءها يشكل نقطة التمرکز الكلي الدائم والعام، ويضفي عليها قوة إضافية يصعب على العدو اختزان هذه المفاهيم.

بعد كل هذه المقدمات، لا بد لي من إثارة بعض النقاط الهامة:

ص: ٢٦٣

أولاً: أن الاستكبار العالمي يرصد بحذر شديد كل تحركات الامة، ويعمل جاداً بكل ما يملك من وسائل متطورة لإيجاد حالة الشرخ بين المذاهب الإسلامية كما أوجد حالة الشرخ بين القوميات والعرقيات، لهذا فإن هذا المؤتمر من الوسائل الأساسية للوقوف في وجه المد المعادي خارجياً وداخلياً، وعلى علماء المذاهب الإسلامية تقع مسؤولية توعية الامة أمام المخاطر المحدقة بها، وأن كل فرد يثير في مجتمعه أي نوع من التشنجات والتعقيدات المذهبية يجب الوقوف في وجهه ومناقشته وبيان خطورة ذلك، وأن عمله يصب في خانة الاستكبار العالمي، وأنه يضرب بالوحدة الإسلامية، وبالتالي يضرب طائفته ونفسه.

ثانياً: على علماء المذاهب الإسلامية أن يدفعوا بعجلة اعتراف المذاهب بعضها ببعض، ولا يسمح لمن يكفر المسلمين لأي بادرة أن تتغلغل أفكاره بينهم، بل يجب عليهم العمل السريع، وتربية الناشئة على عملية التسامح المذهبي بين أهل القبلة كما فعل وأفتى المرحوم الشيخ محمود شلتوت، وكما فعل الإمام المقدس الإمام الخميني قدس سره في دعوته إلى الوحدة بين المسلمين، وتجنب ما يثير البغضاء بينهم..

ثالثاً: دعوة الحركة الإسلامية العالمية للالتحاق بالموقف السياسي العام، الذي تتبناه الجمهورية الإسلامية رائدة المسلمين، حيث لا يجوز أمام التغيرات السياسية المتلاحقة أن نستفرد كل حركة على حدة، بل لابد من ضم كل حركة إلى أخرى؛ لتتحول الحزمة الصغيرة إلى عود قوي وغليظ يصعب على الآخرين كسره فضلاً عن عصره.

رابعاً: أن مسيرة البراءة من المشركين، التي جددها الإمام الخميني وراح يدعو لها بكل قوة، تعني رفض اطروحة الشرك، لأنها تتباين مع الحالة الإسلامية العالمية تبايناً كلياً في تصوراتها وحضارتها ورفض كل لوازمها، التي منها رفض نظرية السلام الأمريكية والصلح مع العدو الصهيوني الغاشم.

خامساً: جعل القدس قضية الإسلام المركزية، التي تتمحور حولها كل قضايا

ص: ٢٦٤

الامة المصيرية مثل قضية المسلمين في فلسطين ولبنان وافغانستان والعراق وكشمير والبوسنة والهرسك والفلبين والصومال وغيرها. إعادة النظر في اسلوب الحركات الإسلامية والاستفادة من خبرات الجمهوريّة الإسلاميّة والعمل على إسقاط الأنظمة الأمريكية التي تحكم بالحديد والنار.

سادساً: توجيه الرأي العام الإسلامي لدعم الانتفاضة الإسلامية الباسلة في فلسطين و المقاومة الإسلامية في جبل عامل لبنان. الهوامش:

ص: ٢٦٥

أبعاد الحجّ في فكر الإمام الخميني (قدّس سرّه)

أبعاد الحجّ في فكر الإمام الخميني قدس سره

أبعاد الحجّ في فكر الإمام الخميني قدس سره

ماجدة المؤمن

مقدمه

أبعاد الحج بعيدة المدى، متعددة الميزات، واحدة الهدف في شموليتها للفكرة الواقعية للفرد والجماعة والمجتمع، وهذه الأبعاد لا تسمح في خصائصها الذاتية بالانفصال عن الأخرى، يمتزج بعضها مع بعض في كلّ الجوانب المادية والروحية والمعنوية، فليس هناك بُعد مادي تختنق فيه الروح داخل الأسوار المادية، أو عنصر روحي تحلّق فيه النفس بعيداً عن المادة في حالة تجريدية، بل يمتزج فيه - في الحج - البعد الروحي مع البعد التربوي، وهكذا مع البعد السياسي والعبادي والاقتصادي والثقافي والفقهى والاخلاقي بحيث تكمل بعضها البعض؛ لتصبح كتلة واحدة لا تقبل الانفكاك أو التباعد أو التجريد...

وستحدث عن هذه الأبعاد بعد تفكيكها وقراءتها منفصلة الواحدة عن الأخرى؛ لغرض منهجي يبين الفروقات بين البعد الواحد والآخر، وإلا فالبعد الواحد لا شك هو ذائب في الأبعاد الأخرى لا يمكن فصله عنها.

ص: ٢٦٦

سنقرأ أبعاد الحج في أفكار الإمام الخميني - قدس سره الشريف - واحداً واحداً وبعداً بعداً؛ لنعرف قيمة الحج المتكامل الذي يجمع بين الأعمال المادية والمعاني الروحية والهدف الإلهي السامي، الذي أراده الله تعالى من عباده الملتزمين المخلصين.

تمهيد

على الرغم من أن الحج في الدين الاسلامي الحنيف واحد في أغلب تفاصيله، يتفق المسلمون على صلبه ويختلفون في بعض تفاصيله، إلا أن الإمام الخميني تميز بين أقرانه العلماء برأيه المتميز في هذه الفريضة الاسلامية.

فما أتى به الإمام الخميني - قدس سره الشريف - أن أخرجه من جموده وروتينته، مضيفاً اليه معنىً حيواً جديداً، فقد نادى بتفعيله وتحريكه على الساحة الاسلامية.

فلم يعد ذلك الحج الطقوسي أو الشعائري الجامد، لم يعد مجرد سفر وحركات محددة وأداء واجبات معينة، وإنما صار إضافة الى الأداء الصحيح لمراسمه وأركانه، صار فريضة فاعلة لعبت دوراً حيوياً في الحياة الاجتماعية والسياسية والنفسية و... الخ.

فأصبح من خلال أفكار الإمام الخميني - قدس سره الشريف - أقرب الى المؤتمر السنوي الحامل لرسالته الوعى والإرشاد، يستضيء المسلمون بضوئه في حياتهم وسلوكهم، دنيا وآخره.

وهذا طرح جديد على مستوى الحياة الاسلامية الدينية اقتضتها ضرورة التجديد وإصلاح حال الامة الاسلامية التي جمدت على أفكار لا بد من تفعيلها.

وما قام به الإمام الخميني - قدس سره الشريف - لم يكن غريباً على الدين الاسلامي ولا جديداً على أصالته، وإنما هو الرجوع الى الأصالة، والعودة الى الصورة الأصلية التي أتى بها رسولنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، منفذاً ما أمر الله تعالى،

ص: ٢٦٧

ومطبّقاً فريضة إسلامية لا بد من تطبيقها تطبيقاً دينياً صحيحاً منسجماً مع هدفها الأصلي الأول. وهكذا دخل الإمام الخميني إلى أبعاد الحج المتنوعة واحداً واحداً ليدرسها ويقرأها من جديد، ويقدمها للأمم حالة إسلامية عصرية ضرورية، فقد سلط الضوء على البعد الفقهي للحج والبعد الروحي والعبادي وكذلك البعد التربوي والأخلاقي وأعطى للبعد السياسي الثقل الأكبر والنصيب الأوفر، وتحدث عن البعد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، كما سنرى لاحقاً:

البعد الفقهي

البعد الفقهي عند الإمام الخميني - قدس سره الشريف - أحد الأبعاد الكثيرة للحج التي تحدث عنها الإمام في مؤلفاته، وهو لا شك بُعد أساسي ومحوري قامت الأبعاد الأخرى لدعمه وتركيزه، وقد أعطاه المعنى الحقيقي، فكان الحج الذي تحدث عنه الإمام هو الحج الحقيقي المتكامل المعنى والأبعاد.

وحيث إنّ البعد الفقهي محور وأساس لكل الأبعاد الأخرى، وجدنا من المناسب الحديث عنه - مختصراً - كما ورد في كتبه الفقهية... فقد جاء عنه: أن الحج ركن من أركان الدين وتركه من الكبائر، وأنه واجب على من استجمع الشرائط كالبلوغ والعقل والمال والصحة وغيرها، وتجب في أصل الشرع مرة واحدة في العمر، ووجوبه فوري مع تحقق الشرائط، بمعنى وجوب المبادرة إليه في العام الأول من الاستطاعة ولا يجوز تأخيرها.

ولو توقف إدراكه على مقدمات بعد حصول الاستطاعة في السفر وتهيئة أسبابه، وجب تحصيلها على وجه يدركه في ذلك العام.

ويجب الحج بالنذر والعهد واليمين، ويشترط في انعقادها: البلوغ والعقل والقصد والاختيار.

ويحج عن الميت إذا أوصى بالحج أخرج من الأصل لو كان واجباً، إلّا أن

ص: ٢٦٨

يصرح بخروجه من الثلث فأخرج منه، فإن لم يفِ أخرج الزائد من الأصل، ولا فرق في الخروج من الأصل بين حجة الاسلام والحج النذري والافسادى، وأخرج من الثلث لو كان ندياً، ولو لم يعلم كونه واجباً أو مندوباً فمع قيام قرينه أو تحقق انصراف فهو، وإلا فيخرج من الثلث إلا أن يعلم وجوبه عليه سابقاً وشك في أدائه فمن الأصل.

ويستحب لفاقد الشرائط من البلوغ والاستطاعة وغيرهما أن يحج مهما أمكن، وكذا من أتى بحجه الواجب، ويستحب تكراره بل في كل سنة بل يكره تركه خمس سنين متوالية، ويستحب نية العود اليه عند الخروج من مكة، ويكره نية عدمه.

ويستحب التبرع بالحج عن الأقارب وغيرهم أحياء وأمواتاً، وكذا عن المعصومين عليهم السلام أحياء وأمواتاً، والطواف عنهم عليهم السلام وعن غيرهم أمواتاً وأحياء مع عدم حضورهم في مكة أو كونهم معذورين، ويستحب احجاج الغير استطاع أم لا، ويجوز إعطاء الزكاة لمن لا يستطيع الحج ليحج بها.

ويستحب لمن ليس له زاد وراحلة أن يستقرض ويحج إذا كان واثقاً بالوفاء، ويستحب كثرة الانفاق في الحج، والحج أفضل من الصدقة بنفقته.

لا يجوز الحج بالمال الحرام، ويجوز بالمشتبه كجوائز الظلمة مع عدم العلم بحرمتها، ويجوز إهداء ثواب الحج الى الغير بعد الفراغ عنه، كما يجوز أن يكون ذلك من نيته قبل الشروع فيه، ويستحب لمن لا مال له يحج به أن يأتي بالحج ولو باجارة نفسه عن غيره.

اما محرمات الحج ومكروهاته فقد ذكر الامام رضى الله عنه أن المحرمات هي:

الأول: صيد البر اصطياداً وأكلًا- ولو صاده محل- وإشارة ودلالة واغلاقاً وذبحاً وفرخاً ويضه، فلو ذبحه كان ميتة على المشهور وهو أحوط، والطيور حتى الجراد بحكم الصيد البرى، والأحوط ترك قتل الزنبور والنحل إن لم يقصد إيذاه.

ص: ٢٦٩

الثاني: النساء وطاً وتقبيلاً ولمساً ونظراً بشهوة، بل كل لذة وتمتع منها.

الثالث: إيقاع العقد لنفسه أو لغيره ولو كان محلاً، وشهادة العقد وإقامتها عليه على الأحوط ولو تحملها محلاً وإن لا يبعد جوازها، ولو عقد لنفسه في حال الاحرام حرمت عليه دائماً مع علمه بالحكم، ولو جهله فالعقد باطل لكن لا تحرم عليه دائماً. والأحوط ذلك سيما مع المقاربة.

الرابع: الاستمناء بيده أو غيرها بأيّة وسيلة، فإن أمنى فعليه بدنه والأحوط بطلان ما يوجب الجماع بطلانه..

الخامس: الطيب بأنواعه حتى الكافور صبغاً وإطلاءً وبخوراً على بدنه أو لباسه، ولا يجوز لبس ما فيه رائحته، ولا أكل ما فيه الطيب كالزعفران، والأقوى عدم حرمة الزنجبيل والدارصيني..

السادس: حرمة لبس المخيط للرجال كالقميص والسرّويل والقباء وأشباهها.

السابع: لا يجوز الاكتحال بالسواد إن كان فيه الزينة وإن لم يقصدها.

الثامن: النظر في المرأة من غير فرق بين الرجل والمرأة.

التاسع: لبس ما يستر جميع ظهر القدم كالخف والجورب وغيرهما، ويختص ذلك بالرجال ولا يحرم على النساء.

العاشر: الفسوق، ولا يختص بالكذب، بل يشمل السباب والمفاخرة أيضاً وليس في الفسوق كفارة، بل يجب التوبة عنه، ويستحب الكفارة بشيء، والاحسن الذبح.

الحادي عشر: الجدال وهو قول «لا والله» و «بلى والله» وكلّ ما هو مرادف لذلك في أى لغة كان إذا كان في مقام إثبات أمر أو نفيه.

الثاني عشر: قتل هوام الجسد من القملة والبرغوث ونحوهما، وكذا هوام جسد سائر الحيوانات...

ص: ٢٧٠

الثالث عشر: لبس الخاتم للزينة واستعمال الحناء للزينة...

الرابع عشر: لبس المرأة الحلى للزينة، ولا بأس بما كانت معتادة به قبل الاحرام.

الخامس عشر: التدهين وإن لم يكن فيه طيب.

السادس عشر: إزالة الشعر كثيره وقليله حتى شعرة واحدة عن الرأس واللحية.

السابع عشر: تغطية الرجل رأسه بكل ما يغطيه حتى الحشيش والحناء والطين.

الثامن عشر: تغطية المرأة وجهها بنقاب وبرقع ونحوهما.

التاسع عشر: التظليل فوق الرأس للرجال دون النساء...

العشرون: إخراج الدم من بدنه ولو بنحو الخدش أو المسواك..

الحادى والعشرون: قلم الأظفار وقصها كلها أو بعضاً من اليد أو الرجل.

الثانى والعشرون: قلع الضرس ولو لم يدم على الأحوط، وفيه شاء على الأحوط.

الثالث والعشرون: قلع الشجر والحشيش النابتين فى الحرم وقطعهما.

الرابع والعشرون: لبس السلاح على الأحوط كالسيف والخنجر والطبنجة ونحوها مما هو آلات الحرب إلّا الضرورة، ويكره حمل السلاح

إذا لم يلبسه إن كان ظاهراً، والأحوط الترك.

هذا وقد تناول الامام- قدس سره الشريف- كل ما يتعلق بالحج من الناحية الفقهية، لكننا نكتف بهذا المقدار ولغرض منهجى.

والجدير بالذكر أن الامام ركز على أهم مقومات الحج، كما ركز العلماء الآخرون عليه، لكنه تميز أن فزع من تلك المقومات الشرعية

أبعداً أبعد مدى من المادة الفقهية والشرعية، فأقام أسساً جديدة جمع من خلال المادة الفقهية بالحياة

ص: ٢٧١

العملية للانسان، فأخرج بذلك الحج من الفكرة النظرية المجردة الى واقع عملي يعيشه الانسان بكلّ جوارحه، وذلك هو ما مارسه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عندما كانوا يعتبرون الحج قاعدة حوار فكري وساحة تربوية ومدرسة علم ومعرفة لكل أبعاد الحياة وساحة صراع مع شياطين الانس والجن، بل كانوا عليهم السلام يعتبرون الحج الساحة التي يريدون للأمة المسلمة أن تسير في خطها الاسلامي المستقيم، في خطة توجيهية عملية شاملة.

التباعد العبادي والروحي

المؤمن الصادق الطموح يجهد نفسه في أداء مناسك الحج بشكل متقن وصحيح وبنفس طاهرة متعلقة بخالقها ومعبودها؛ لأنّ نفسه تنظر الى المرأة الالهية قبل أن تنظر الى المرأة الاجتماعية والاقتصادية وغيرهما... بحيث يكون سلوكه الذاتي والداخلي والروحي مطابقاً للخطاب الشرعي وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فج عميق.

وقد وجه الامام الخميني - قدس سره الشريف - خطابات عديدة في هذا المجال؛ ليبين أنّ على الحاج أن يطهر نفسه ويخلي قلبه من كلّ شيء إلّا حب الله والطاعة والخضوع له، وأنه يجب عليه أن يربط روحه بمعبوده الواحد الأحد، فقد قال رضى الله عنه محدثاً الحجيج:

«عندما تلفظون لييك اللهم لييك، قولوا: لا، لجميع الاصنام، واصرخوا: لا، لكل الطواغيت الكبار والصغار، وأثناء الطواف في حرم الله حيث يتجلى العشق الالهى، اخلوا قلوبكم من الآخرين، وطهروا ارواحكم من أى خوف لغير الله. وفي موازاة العشق الالهى، تبرأوا من الأصنام الكبيرة والصغيرة والطواغيت وعملائهم وأزلامهم، من حيث أنّ الله تعالى ومحبيه تبرّوا منهم، وإنّ جميع أحرار العالم بريئون منهم، وأثناء سعيكم بين الصفا والمروة اسعوا سعى من يريد الوصول الى المحبوب، حتى إذا ما وجدتموه هانت كلّ الامور الدنيوية، وتنتهى كلّ الشكوك والترددات. وتزول كل المخاوف والحبائل

ص: ٢٧٢

الشیطانية والارتباطات المادية.

وحين تلمسون الحجر الأسود أعقدوا البيعة مع الله أن تكونوا أعداء لأعداء الله ورسوله والصالحين والأحرار، ومطيعين وعبداً له، أينما كنتم وكيفما كنتم، لا- تحنوا رؤوسكم واطردوا الخوف من قلوبكم، واعلموا أن أعداء الله وعلى رأسهم الشيطان الأكبر جبناء، وإن كانوا متفوقين في قتل البشر وفي جرائمهم وجنایاتهم.

ويسترسل الامام رضى الله عنه في حديثه للحجيج مذكرهم بالاطمئنان القلبي الحاصل من الحالة العرفانية التي يعيشها العبد من معبوده ومحبوه قائلاً:

سيروا الى المشعر الحرام وعرفات وأنتم في حالة إحساس وعرفان، وكونوا في أى موقف مطمئني القلب لوعده الله الحق بإقامه حكم المستضعفين، وبسكون وهدوء فكروا بآيات الله الحق، وفكروا بتخليص المحرومين والمستضعفين من براثن الاستكبار العالمي، واطلبوا من الحق تعالى في تلك المواقف الكريمة تحقيق سبل النجاة. بعد ذلك عندما تذهبون الى منى أطلبوا هناك أن تتحقق الآمال الحقة حيث التضحية هناك بأثمن وأحب شيء في طريق المحبوب المطلق، وأعلموا أنه ما لم تتجاوزا هذه الرغبات، التي أعلاها حب النفس وحب الدنيا التابع لها، فسوف لن تصلوا الى المحبوب المطلق. وفي هذا الحال ارجموا الشيطان. واطردوا الشيطان من أنفسكم، وكرروا رجم الشيطان في مواقع مختلفة بناءً على الأوامر الإلهية؛ لدفع شر الشياطين وأبنائهم عنهم.

هذا وقد أكد الامام رضى الله عنه مراراً وتكراراً أن هذا السفر سفر إلهي وليس سفرأ عادياً مادياً مجرداً، وأن المراتب المعنوية للحج هي رأس مال الحياة الخالدة وهي التي تقرب الانسان من افق التوحيد والتنزيه، وأنه لن يحصل عليها الحاج ما لم يطبق أحكام وقوانين الحج العبادية بشكل صحيح وحسن. وحرفاً بحرف، وإذا دفن الحاج في عالم النسيان الجوانب المعنوية فلا يظن أنه قادر على التخلص والتحرر من مخالب شيطان النفس، وما دام في أسر وقيد ذاته وأهوائه النفسية فلن يستطيع جهاداً في سبيل الله ودفاعاً عن حرمانه تعالى...

ص: ٢٧٣

ومن الجدير بالمعرفة أنَّ روح الحاج من خلال المراسم العبادية تسمو وترتفع الى أعلى درجات الكمال النفسى والروحى مع المعبود المحبوب من خلال تطبيق المناسك بالشكل الصحيح المتقن ومن خلال الأدعية والخوف والانسجام والتضرع والبكاء، خصوصاً عندما يشعر الحاج أنه من أناس يخافون الخالق ويهابونه فى بيته وحرمة الشريف. يقول الامام رضى الله عنه: «اعلموا جميعاً أنَّ البعد السياسى والاجتماعى للحج لا يتحقق إلَّا بعد أن يتحقق البُعد المعنوى».

فالبُعد المعنوى هو الدافع والوازع للمسلم يدفعه نحو الأبعاد الأخرى بالشكل الذى يرضى الله جلَّ وعلا...

البُعد التربوى والاخلاقى

مناسك الحج ومراسمه ما هى إلَّا دورة تدريبية تربوية للنفس والروح والبدن على السواء لصنع انسان الحياة الحرَّ فى فكره وإرادته وفى حركة الحياة من حوله غير منقادٍ لأعداء الله شياطين الانس والجنِّ كبيرهم وصغيرهم.

فالافعال العبادية والتروك والالتزامات، كلُّ هذه التعابير الجسدية والنفسية وسيله من وسائل انتظام الخلق وسموه ككيان روحى فكرى أخلاقى عبادى متميز، ولهذا نجد الامام رضى الله عنه اهتم بهذا الجانب؛ لأنه الوسيلة الناجعة لارتقاء المسلم الأبعاد الأخرى، فقد جاء عنه قدس سره:

«فى المواقيت الإلهية والمقامات المقدسة، فى جوار بيت الله الملىء بالبركات، راعوا آداب الحضور فى الساحة المقدسة للعلی العظيم، وحرَّروا قلوبكم أيها الحجاج الأعزاء من جميع الارتباطات المتعلقة بغير الله...».

وفى محلٍ آخر بين الامام رضى الله عنه أنَّ الحجاج الحقيقين الواعين المعبرين يرجعون الى أوطانهم حاملين الأخلاق المفروضة عليهم بالحج وكأنها ملكة تأصلت بروحهم والتصقت بتصرفاتهم، فيقول رضى الله عنه:

«وبنبذهم ما يمايزهم من اللون والقومية والأصل، يعودون الى أرضهم ويبتهم

ص: ٢٧٤

الأول، وبمراعاتهم للأخلاق الإسلامية الكريمة، وتجنبهم للجدال ومظاهر الزينة، يجسدون صفاء الأخوة الإسلامية ومظهر وحدة الأمة المحمدية».

ففي الحج يتعود المسلم الإلفة، والتعارف عن طريق السفر والاختلاط، فتتمو لديه الروح الاجتماعية، وتتهذب ملكاته الأخلاقية، عن طريق هذه الممارسة التربوية، والتفاعل البشري الرائع، الذي يشهده في الحج، بأرقى درجات الالتزام، والاستقامة السلوكية، من خلال المناسك والمراسم الشرعية. وكثير ما يتغير الإنسان إلى الأفضل، فهو يربى - أي الحج - النفس على السلوك الصالح ويقضى على النزاع السلبية لدى الإنسان المسلم الملتزم الصادق مع الله ومع نفسه، فيتعود الحاج على الصبر، واحتمال المشاق والصعاب، إضافة إلى تعوده من خلال المعاشرة على حسن الخلق والصدق واتساع الصدر للمجاملة والنقاش أو المجادلة والحوار مع الحجاج الآخرين، ويتعود اللطف، والتواضع، واللين، وحسن المحادثة، والتعاطف، والكرم، والامتناع عن: الكذب، والخصومة والغيبة والنميمة والتكبر، والعظمة، والجدال وغيرها حيث قال تعالى: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج.

وهذه النواهي في الحج تساهم في بناء شخصية المسلم، وتعمل على إعادة تنظيمها، وتصحيح مسيرتها في الحياة، وتسد وجهتها ومسارها إلى الله تعالى...

وتزرع في النفس مكارم الاخلاق وتقودها إلى استقامة السلوك، وحسن المعاشرة...

فقد قال الامام الخميني قدس سره مخاطباً الحجاج حاثاً على مكارم الاخلاق:

«أخرجوا من قلوبكم غير حب الله ونورها بأنوار التجليات الالهية، حتى تكون الأعمال والمناسك في سيرها إلى الله مليئة بمضمون الحج الابراهيمي وبعده بالحج المحمدي، وبمقدار تخفيف الحمل من أفعال الطبيعة يسلم الجميع من أوزار المنى والمنية، وبحمل ثقل معرفة الحق وعشق المحبوب تعودون إلى

ص: ٢٧٥

أوطانكم، وتجلبون للأصدقاء هدايا النعم الإلهية الأزلية بدل الهدايا المادية الفانية، وبقبضات مليئة بالقيم الإسلامية التي بعث لأجلها الأنبياء العظام من ابراهيم خليل الله الى محمد حبيب الله صلى الله عليهم وآلهم أجمعين...».

وقال في مكارم الأخلاق وتربية النفس ايضاً:

«... تلتحقون بالرفاق عشاق الشهادة. هذه القيم والدوافع التي تحرّر الانسان من أسر النفس الأمارة بالسوء، وتنجّي من الارتباط بالشرق والغرب، وتوصل الى شجرة الزيتون المباركة اللالشرقية واللالغربية».

التبعد السياسي

إنّ أغلب خطابات الامام رضى الله عنه السنوية لحجاج بيت الله الحرام كانت تتناول التبعد السياسي بالخصوص بعد انتصار الثورة الإسلامية في ايران... كان يعرض فيها قضايا الأمة الكبرى ومشاكلها، مستنهضاً المسلمين الى وجوب التحرك الشامل للتصدى بها، داعياً إياهم الى الوحدة في العمل والصف والأهداف تحت راية الاسلام للتخلص من الظلم والاستضعاف والتخلف والتبعية للاستكبار العالمي، والسعى الى تحقيق ما من شأنه تعزيز ونشر قيم الله وأحكامه في الأرض.

يقول الامام الخميني قدس سره: «هناك عوامل سياسية عديدة وراء عقد الاجتماعات والمجامع وخاصة اجتماع الحج القيم، والتي منها التعرف على المشاكل الأساسية والقضايا السياسية للاسلام والمسلمين، ولا يمكن ذلك إلّا باجتماع رجال الدين والمفكرين والمليزمين الزائرين لبيت الله الحرام، وذلك بعرض وتبادل الآراء لإيجاد الحلول، وفي العودة الى البلدان الإسلامية يعرضونها في المجامع العامة ويسعون في رفع وحل مشاكلهم».

كان موسم الحج فرصة نادرة؛ ليوصل الامام قدس سره فكره النهضوي لجميع مسلمي العالم، فكان يناشد المسلمين في موسم الحج قائلاً:

ص: ٢٧٦

«ماذا دهاكم يا مسلمي العالم، أنتم الذين استطعتم أن تحطموا القوى العظمى في صدر الاسلام مع قلّة عددكم، وأوجدتم الأمة الاسلاميّة الكبرى، واليوم مع ما يقارب من مليار نسمة وامتلاككم للثروات الكبيرة، التي هي أكبر حربة أمام الأعداء، أصبحتم هكذا أذلاء ضعفاء! هل تعلمون أنّ جميع مصائبكم ناشئة من الاختلاف والفرقة بين رؤساء بلادكم وبالتالي بينكم أنفسكم. قوموا من أماكنكم واحملوا القرآن الكريم بأيديكم واخضعوا لأمر الله تعالى؛ لكي تعيدوا مجد الإسلام العزيز وعظمته. تعالوا واستمعوا الى موعظة واحدة من الله عندما يقول: قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى. قوموا جميعاً لله قياماً فردياً لمواجهة جنود الشيطان في باطنكم وقياماً جماعياً أمام القوى الشيطانية؛ لذا كان القيام إلهياً وكانت النهضة لله وهي منتصرة.

يا زوار بيت الله: اتحدوا معاً في المواقف والمشاعر الإلهية، واطلبوا من الله تعالى غلبة الاسلام والمسلمين ومستضعفى العالم. أيها المسلمون وأيها المستضعفون في العالم؛ تعاضدوا وتوجهوا الى الله العظيم والجأوا الى الاسلام وانتفضوا ضد المستكبرين ومنتهم كي حقوق الشعوب.

ولا نستغرب من الامام رضى الله عنه بصفته مرجعاً دينياً أن يتجه هذا الاتجاه في مفهوم الحج وواقعه العملي، فإنه كما قال د. سمير سليمان: «إنّ هذه الطروحات التي رأى الامام موسم الحج من خلالها هي - من غير شك - انعطاف مفهومي كبير في اتجاه العودة الى الينابيع والاصول الاسلاميّة التي لم تكن عبادة الحج فيها إلّا مصادر طروحات الامام ومرجعها، فلم يكن الحج أيام النبي صلى الله عليه و آله إلّا في الإطار الذي أعاد الامام رسمه وربطه بالمتغيرات الزمنية والاجتماعية والسياسية المستجدة، فكان له في رسول الله صلى الله عليه و آله أسوة حسنة عندما قام بمفرده ليرفع لواء التوحيد لصالح المستضعفين، في وجه عبدة الاصنام والمستكبرين».

وقد كان الامام رضى الله عنه جاداً ومخلصاً في توجيه المسلمين كافة وتحويل الحج الى

ص: ٢٧٧

مؤتمر اسلامي عام، تعرض فيه المشاكل الصعبة التي يعانها العالم الاسلامي في كل بقاع العالم، كقضية فلسطين وغيرها، ومعالجة كل القضايا بصدق وإخلاص ووفاء...

ولكن كانت الظروف أقوى من أن تأخذ هذه الخطوة مجراها الطبيعي، فقد قوبلت بالضغط والتعتيم والتشويه والتضييق من قبل الاستكبار العالمي.

«ولو رجع المسلمون الى الماضي قليلاً، الى ما عانى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى من الغرباء لأجل دين الحق وازهاق الباطل، لقد استقاموا ووقفوا ولم يهابوا أو يزعزعوا على كثرة التهم والإهانات التي كالتها ألسنة أمثال أبي لهب وأبي جهل وأبي سفيان. وفي نفس الوقت استمروا وأكملوا طريقهم مع وجود الحصار الاقتصادي في شعب أبي طالب، ولم يستسلموا ولم يهنوا، ومن بعدها تحمّلوا الهجرة والغربة ومراراتها وآلامها في سبيل دعوة الحق، وتبليغ رسالة الله وتواجدوا في الحروب المتتالية وغير المتكافئة، رغم المؤامرات وكثرة المنافقين، قاموا بهداية وإرشاد الناس بهمة عالية وصلبة حيث شهدت صخور وحصى مكة والمدينة وصحاريها وجبالها وأزقتها وأسواقها آثار تبليغ رسالتهم.

وإذا ما رفعنا الستار وكشفنا النقاب عن سرّ ورمز تحقق فاستقم كما أمرت لعرف وعلم زوّار بيت الله الحرام كم سعى رسول الله صلى الله عليه وآله لأجل هدايتنا وحصول المسلمين على الجنة».

البُعد الاجتماعي

الحج ذلك المؤتمر الكبير الذي يجتمع فيه الملايين من المسلمين في كلّ عام، وأغلبهم حريص على أن يكون على أتم أشكال الطهارة البدنية والروحية، ولا شك أن هؤلاء الأفراد - بسبب شروط الحج في البلوغ والعقل - لديهم القابلية الفكرية والاستعداد الروحي والذاتي على استيعاب وتقبل شروط ومفردات التغيير الاجتماعي...

يقول الامام الخميني قدس سره في هذا المجال: «اعلموا أيها المسلمون، أن هذا التجمع

ص: ٢٧٨

الكبير، الذي ينعقد كل عام بأمر من الله تبارك وتعالى، يفرض عليكم - بصفتمكم أمه مؤمنة ذات عقيدة راسخة - أن تبدلوا جهودكم في سبيل تحقيق أهداف الاسلام السامية وشريعته الغراء، وفي سبيل تقدم المسلمين وتضامنهم ووحدتهم الشاملة».

وهذا المؤتمر الالهى لا يعطى ثماره ولا يسمو الى الهدف الاسلامى المطلوب، إلّا إذا عرف الحاضرون فيه والمدعوون اليه كيف يتصرفون ويستخدمونه «لتبادل الآراء فى حل مشاكلهم العامة أولاً، ومشاكل بلادهم الاسلامية ثانياً، وليتعارفوا على ما يحلّ بإخوانهم المسلمين فى بلادهم من أساليب المستعمر، وماذا يجرى عليهم من مصائب وآلام» و «الآن حيث يجتمع مسلمو العالم من البلاد المختلفة حول كعبة الآمال وحج بيت الله؛ للقيام بهذه الفريضة الإلهية العظيمة، وعقد هذا المؤتمر الاسلامى الكبير فى هذه الأيام المباركة، فإنّ على المسلمين الذين يتحملون رسالة الله تعالى، أن يستفيدوا من المحتوى السياسى والاجتماعى للحج بالاضافة الى المحتوى العبادى منه ولا يكتفوا بالمظهر».

وقد دعا الامام المسلمين فى كافة قارات العالم المدعوين الى مؤتمر السماء وحثهم على الوحدة الاسلامية ووحدة الكلمة والتعاون والاعتصام بحبل الله المتين وعدم التفرقة قائلاً: «أيها المسلمون فى العالم ويا أتباع مبدأ التوحيد: إنّ سبب كلّ المشاكل فى البلاد الاسلامية هو اختلاف الكلمة وعدم التعاون، ورمز الانتصار هو وحدة الكلمة وإيجاد التعاون. قال تعالى فى جملة واحدة: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا... الاعتصام بحبل الله بيان لتعاون المسلمين، كونوا جميعاً للاسلام وتوجهوا الى الاسلام ولصالح المسلمين، وابتعدوا عن التفرقة والخلاف الذى هو أساس مشاكلنا وتخلّفنا».

وقال قدس سره أيضاً: «إنّ الحج يمثل أفضل مكان لتعارف الشعوب الاسلامية، حيث يتعارف المسلمون على إخوانهم وأخواتهم فى الدين من شتى أنحاء العالم، ويلتقون مع بعضهم فى البيت الذى تتعلق به كلّ المجتمعات الاسلامية من أتباع إبراهيم الحنيف».

ص: ٢٧٩

فالحج إذن محل اجتماع المسلمين أسودهم وأبيضهم، عربهم وأعجميهم، غنيهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم، رجالهم ونسائهم، كل ذلك يدل على أن من مقاصد الحج هو تقريب الأفراد من مختلف الأجناس والمواطن نحو بعضهم البعض، حتى يتم تفاعلهم الاجتماعي وهم في أسمى درجات العبادة والتنسك والابتغال والدعاء في مجتمع التوحيد الاسلامي وبالقرب من بيت المعبود والمحبوب.

ولا شك أن هذا ينسجم تماماً مع أهداف الرسالة الاسلامية في إقامة دولة التوحيد العالمية المنسجمة على كل الأصعدة الحياتية.

يقول الامام الخميني قدس سره في بيانه الى حجاج بيت الله الحرام:

«ليعلم الاخوة أهل السَّنة في جميع البلدان الاسلامية أنَّ المأجورين المرتبطين بالقوى الشيطانية الكبرى لا يستهدفون خير الاسلام والمسلمين. وعلى المسلمين ان يتبرأوا منهم ويعرضوا عن اشاعتهم المنافقة».

ثم يضيف قائلاً: «إنني أمد يد الأخوة الى جميع المسلمين المتلزمين في العالم، وأطلب منهم أن ينظروا الى الشيعة باعتبارهم أخوة اعزاء لهم، وبذلك نشترك جميعاً في إحباط هذه المخططات المشؤومة».

وقال أيضاً: «... وتجنبوا التفرقة والتنازع: ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.....».

وخاطب الكتاب والخطباء المجتمعين مع إخوانهم في عرفات ومنى والمشعر وغيرها، قائلاً:

«أيها الكتاب والخطباء: أذكروا قضاياكم الاجتماعية والسياسية لآخوانكم المؤمنين أثناء الاجتماعات الكبيرة في عرفات ومشعر ومنى ومكة المعظمة والمدينة المنورة واطلبوا منهم العون».

وقد يعرّف الامام الحج بأنه نداء لايجاد وبناء المجتمع البعيد عن الرذائل

ص: ٢٨٠

المادية والمعنوية، وأنَّ مناسكه تجلَّ عظيم لحياء كريمه ومجتمع متكامل في هذه الدنيا، وانه يتواصل فيه مجتمع المسلمين من أى قومية كانوا ويصبحوا يداً واحدة، وأنه كذلك ساحه عرض ومرآة صادقه للاستعدادات والقابليات المادية والمعنوية للمسلمين.

البُعد الثقافي

الحج يمنح المجتمعات الإنسانية مصدراً مستمراً من مصادر الكسب الثقافي الناتج عن تفاعل الأفراد من مختلف الثقافات والطبائع البشرية، وذلك عن طريق تقريب الأفراد- بأجناسهم المتباينة- في المكان الواحد في الوقت المعين؛ ليتشاوروا في أمور دينهم وعقيدتهم وحياتهم، ويتبادلوا الخبرات والتجارب والآراء والعادات الحسنة، ويتعرف بعضهم على أخبار البعض الآخر، فيزداد الوعي، وتنمو المعرفة، وتشحذ الهمم من أجل الإصلاح والتغيير والاهتمام بشؤون الأمة والعقيدة ليشهدوا منافع لهم.

وقد بين الامام قدس سره أنَّ الحج فرصة ثمينة لتشارك أفكار المسلمين لنشر الثقافة الاسلامية والقرآنية، وحذر من تسرب الثقافة الغربية الى الشعوب المسلمة، فقال:

«اليوم حيث نشبت براثن الاستعمار الخبيثة- بسبب تهاون وتساهل الشعوب الاسلامية- في أعماق الأرض المترامية لأمة القرآن، لتهب جميع الثروات الوطنية والخيرات الطائلة، ولتنشر الثقافة الاستعمارية المسموعة في أعماق وقصبات العالم الاسلامي، ولتقضى على ثقافة القرآن، وتجنّد الشباب أفواجا لخدمة الأجانب المستعمرين، وتطلع علينا كلّ يوم بنغمة جديدة وبأسماء خادعة تضلّ بها شبابنا. في مثل هذه الظروف عليكم، يا أبناء الأمة الأعزاء المجتمعين لأداء مناسك الحج في أرض الوحي هذه، أن تستثمروا الفرصة وتفكروا في الحل، وأن تتبادلوا وجهات النظر وتتفاهموا لحل مسائل

ص: ٢٨١

المسلمين المستعصية».

ثم قال - قدس سره الشريف - في مناسبة أخرى للحج:

«من المسلم أن حجاً دون معرفه ووعى ودون روح ودون حركة ونهوض، وحجاً دون براءة، وحجاً دون وحده، وحجاً لا ينتج هدماً للكفر والشرك، ليس حجاً، وخلاصه الأمر أنه يجب على جميع المسلمين السعى لأجل تجديد حياة الحج والقرآن وإعادتهما ثانية الى ساحة حياتهم، وعلى المحققين المؤمنين بالاسلام أن يبينوا التفاسير الصحيحة والواقعية لفلسفه الحج، ويرموا في البحر كل نسيج خرافات وادعاءات علماء البلاط».

وقال أيضاً:

«إننى أوصى جميع العلماء المحترمين والكتاب والمتحدثين الملتزمين أن يوضحوا لجميع المسلمين وخاصة الحجاج منهم أهداف هذه الفريضة المقدسة، كما أنى أوصيهم بتعليم مناسك الحج وكيفية أدائها بشكلها الصحيح حتى يكون عملهم خالياً من الأخطاء. وعدم الاكتفاء بأننا أدينا الفريضة وأنجزنا الواجب كيفما كان، فإن الأخطاء في هذه الفريضة تترك آثاراً واشكالاتاً على صحتها قد تكلفهم وقتاً وجهداً مضاعفاً لتصحيحها».

وأيضاً خاطب العلماء وحملهم المسؤولية في إيقاظ المسلمين في هذا الاجتماع الكبير، فقال:

«وعلى العلماء المشاركين في هذا الاجتماع، من أى بلد كانوا، أن يصدروا - بعد تبادل وجهات النظر - بيانات صريحة واضحة لإيقاظ المسلمين، وأن يوزعوها في مهبط الوحي بين أبناء الأمة الاسلاميه، ثم ينشروها في بلدانهم بعد عودتهم».

كان الامام قدس سره متيقناً أن التلاحق الفكرى للمسلمين في موسم الحج سيعطى ثماراً جيدة، لكن أين الأيدى المؤيدة لهذا المشروع الاصلاحى؟!

ص: ٢٨٢

البعد الاقتصادي

والحج بما هو تجمع بشري ضخم، يستقطب الملايين من المسلمين، يأتون رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍّ عميق، فهو ينتج حركة بشرية هائلة، يتبعها تحرك اقتصادي ومالي ضخم، عن طريق النقل، والاستهلاك، وحمل البضائع، وتبادل النقود، وشراء الأضاحي والحاجيات، ومستلزمات الحج والإقامة والسفر، فينتفع العديد من المسلمين ويشهد مجتمعهم حركة اقتصادية ومالية نشطة. والحالة الاقتصادية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع، وما يشهد من منافع يمكن تحقيقها من خلال الحج في الحياة الفردية والاجتماعية الى جانب الروح العبادية المتمثلة بذكر الله تعالى في الأيام المعلومات وذلك في قوله تعالى:

ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. وكذلك في قوله تعالى: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم حيث توهم البعض أن الاكتساب في أيام الحج حرام، فأزال الله سبحانه هذا الوهم وبين أن الاكتساب لا يتنافى مع الإخلاص في أعمال الحج.

ولم يغفل الامام الخميني قدس سره البعد الاقتصادي للحج فقد اصدر بياناً بمناسبة موسم الحج قال فيه:

«إخواني وأخواتي:

إنكم تعرفون أن القوى الكبرى الشرقية والغربية تنهب جميع ثرواتنا المادية والمعنوية وقد جعلونا في حالة فقر وحاجة، سواء من الناحية السياسية أم الاقتصادية أم الثقافية، عودوا الى أنفسكم واسترجعوا شخصيتكم الاسلامية. لا تخضعوا للظلم وافضحوا- بكل حذر- المؤامرات المشؤومة للناهبين الدوليين وعلى رأسهم أمريكا».

ص: ٢٨٣

هذا وقد اكد الامام الخميني على الجانب الاقتصادي للحج رامية الى عدم تقديم العمل التجارى على مبادئ وأوليات وأساسيات الحج، حيث يجب أن لا تطغى العمليات التجارية على أصالة الحج، وإلا فالتجارة أيام الحج مباحة شرعاً، لكن المفروض أن لا تتغلب على الجانب الروحي والمعنوي والشرعى، وفي هذا المجال اكد الامام هذا المعنى معبراً أن العمل التجارى من أمور الدنيا... فقد قال لحجاج بيت الله الحرام محذراً:

«يا حجاج بيت الله الحرام! انتبهوا الى أن السفر الى الحج ليس سفراً للتجارة، وليس سفراً لتحصيل أمور الدنيا، وإنما هو سفر الى الله. أنتم ذاهبون الى بيت الله الحرام، فأتّموا كلّ الأمور والأعمال المطلوبة منكم بطريقة إلهية... معاذ الله أن تجعلوا هذا السفر سفراً للتجارة، وأن يكون ميداناً تبيحوا فيه الأمور والمسائل التجارية فيما بينكم».

وفى النهاية

لابد من القول: إنّ جميع المذاهب الاسلامية اهتمت بفريضة الحج وعدتها شعيرة مهمة من شعائر الدين الحنيف، وأنها مظهر من مظاهر وحدة الأمة الاسلامية واستقلال كيانها، وأنه- أى الحج- مظهر قوة المسلمين وعظمتهم...

لكن كثيراً من المسلمين، ابتعدوا عن أهدافه وجردوه من أصالته، وألبسوه لباساً شكلياً يهتم بالمظهر الخارجى فى أغلب تكاليفه الشرعية، حتى ظهور المشروع الاصلاحى للامام الخميني رضوان الله تعالى عليه الذى شمل كلّ جوانب الحياة العبادية والسياسية والاجتماعية والروحية... الخ.

وكان الامام يتحرك فى مشروعه الاصلاحى باتجاه هدف واضح، وقد أعلن عنه فى أكثر من مناسبة، من خلال توجيهاته وبياناته وخطاباته الموجهة للأمة ولحجاج بيت الله الحرام فى موسم الحج من كلّ عام، وبذلك أثبت صدقيّة مشروعه من خلال الواقع...

ص: ٢٨٤

وقد حرص على تأكيد دور علماء الدين في الأمة باعتبارهم: «خلفاء الرسل» و «حكاماً على الناس» و «ورثة الأنبياء». وذكر أبناء آدم بشكل عام مبيناً الهدف الرئيسي من إيجاد فريضة الحج في الأماكن المقدسة من مكة ومنى، قائلاً: «لقد عرفنا نحن ذرية آدم أن مكة ومنى أماكن لنشر التوحيد ونفى الشرك، الذي من مصاديقه التعلق بالنفس والأعزاء. لقد تعلم أبناء آدم من هذه الأماكن الجهاد في سبيل الله، فعليكم أن تعلموا العالم قيمة الفداء والتضحية، وقولوا له: إنه في سبيل الله وإقامة العدل الإلهي وقطع أيادي المشركين في هذا الزمان، يجب أن يخلد الحق بتمامه ببذل أي شيء حتى ولو كان مثل اسماعيل». وقال أيضاً:

«إن إبراهيم واسماعيل وولدهم العزيز سيد الأنبياء محمد المصطفى صلى الله عليه وآله محطمو الأصنام ومعلمو البشرية أنه يجب تحطيم كل الأصنام والأوثان كيفما تكن. وأن الكعبة أم القرى على امتدادها وسعتها حتى آخر نقطة من الأرض وحتى آخر يوم في العالم يجب أن تطهر من دنس الأصنام. أي صنم كان وكيفما كان أكان هياكل أو شمساً أو قمراً أو حيواناً أو انساناً أو صنماً». ثم يضيف قائلاً ومتسائلاً:

«أولست القوى الكبرى في زماننا أصناماً كبيرة سيطرت على العالم ودعته لعبادتها وفرضت نفسها عليه بالقوة والتزوير؟!... إن الكعبة المعظمة هي المركز الأوحده لتحطيم هذه الأصنام وتطهير هذه البقاع من كل أنواعها... قال الله تعالى: وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود».

وكان ما نسجه الامام في مشروعه على منوال أجداده السابقين من آل البيت - صلوات الله عليهم جميعاً - فكان هدف الحج لديه واضحاً كوضوح

ص: ٢٨٥

الشمس في رابعة النهار، كما كان لديهم، فقد تحدث الامام جعفر الصادق عليه السلام عن منافع الحج وفوائده بإجابته البليغة عن سؤال أحد أصحابه (هشام بن الحكم).

قال هذا الصحابي الجليل للامام يسأله: ما العلة التي من أجلها كلف الله العباد بالحج والطواف بالبيت؟

فقال عليه السلام: «إنَّ الله خلق الخلق... الى أن قال- وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب، ليتعارفوا، ولينزع كل قوم من التجارات من بلد الى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمال، ولتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله، وتعرف أخباره، ويذكر ولا ينسى... الخ».

وعن الامام الرضا عليه السلام قال: «إنما امرؤ بالحج لعله الوفادة الى الله عزوجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف العبد، تأثراً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل،... وحظر النفس عن اللذات، دائماً مع الخضوع والاستكانة والتذلل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع، لجميع من في شرق الأرض وغربها، ومن في البر والبحر ممن يحج وممن لم يحج، من بين تاجر، وجالب، وبائع، ومشتري، وكاسب، ومسكين، ومكار، وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقه، ونقل أخبار الأئمة الى كل صقع وناحية، كما قال الله عزوجل... فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون وليشهدوا منافع لهم..

وبهذا خرجت فريضة الحج من جمودها وسكونها الى الحج المتحرك الهادف الذي أراده الله تعالى لبنى البشر في سبيل بناء الروح وتكامل الذات، ومن ثم بناء مجتمع متكامل الأبعاد.

ص: ٢٨٦

الهوامش:

ص: ٢٨٧

فريضة الحج في نظر الامام

ص: ٢٨٨

فريضة الحج في نظر الإمام

حيدر حسن

«فريضة الحج لها بين الفرائض الإلهية خصائص متميزة، ولعلّ الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه الفريضة تفوق جوانبها الأخرى، مع أنّ جانبها العبادي ذو خصائص متميزة أيضاً.

على المسلمين الملتزمين الذين يجتمعون مرّة في كلّ عام على صعيد المواقف الشريفة ويؤدّون واجباتهم الإسلامية في هذا المجتمع العامّ والحشد الإلهي بمعزل عن الامتيازات، وبمظهر واحد، ودون اهتمام بما يميّز بينهم من لون أو لغة أو بلد أو منطقة، وبأبسط المظاهر المادية، وباندفاع نحو المعنوية والوفود على الله... عليهم أن لا يغفلوا عن الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه العبادة».

الإمام الخميني قدس سره

ص: ٢٨٩

اعتاد المسلمون على ممارسة الحج ممارسة عبادة جافة لا تنعكس لها أية آثار على شخصياتهم وسلوكهم إلانادراً، كما لم يستغل هذا الملتقى الواسع والشامل لكل الشعوب الإسلامية- يوماً ما- من قبل المسلمين ولا سيما العلماء المتواجدين في الحج لطرح القضايا والمشاكل المشتركة بينهم أو التفكير بوضع الحلول المناسبة لها. بل صيروا منه سفرة سياحية لزيارة بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي وآله الأطهار مع الإتيان بالواجبات والمستحبات الموارد في هذه العبادة فقط. أمّا التدخل في الشؤون الإسلامية فهو من ضمن الخطوط الحمراء التي لا يحقّ للحاج تجاوزها؛ لذلك افتقدت هذه العبادة روحها والغاية من تشريعها.

مفهوم الحج عند الإمام

«إنّ الحجّ هو أفضل ملتقى للتعارف بين أبناء الشعوب الإسلامية. إذ يتعرّف المسلمون على إخوانهم في الدين من جميع أنحاء العالم، ويجتمعون في ذلك البيت الذي يخصّ جميع المجتمعات الإسلامية، وأتباع إبراهيم الحنيف، ويرجعون إلى بيتهم الأول من خلال وضع كلّ القوميات والألوان والعناصر جانباً، ويعرضون على العالم كلّ صفاء الأخوة الإسلامية، وآفاق انسجام الأمة المحمدية، من خلال رعاية الأخلاق الكريمة، وتجنّب الجدل والتمحلات».

إنّ الحج عند الإمام- مفهوماً- يتجاوز حدود الممارسة العبادية والطقوس التقليدية إلى دائرة أوسع. فالحجّ- برأيه- مناسبة نادرة وفرصة ثمينة حيث تلتقى أعداد كبيرة من مسلمي العالم بما في ذلك العلماء والمفكرّون استجابة لأمر الله- تعالى- لأداء مناسك الحجّ، ومثل هذه الفريضة لا يمكن أن تحقّقها أيّ قوة أخرى.

يقول الإمام قدس سره: «اجتماع الحجّ أعظم اجتماع إذ لا تستطيع أيّ دولة أن تخلق مثله، والله- تبارك وتعالى- أوجده لكي يجتمع المسلمون دون أن تنفق الدول أموالاً طائلة لتحقيق ذلك، ودون مشقّة وتعب، ولكن لا يستفاد من ذلك مع الأسف».

ص: ٢٩٠

لذا يجب أن تستغل هذه المناسبة من قبل المسلمين؛ لتدارس أوضاعهم العامّة والخاصّة بعد أن يتعرفوا على بعضهم بعضاً. وقد أناط الامام مهمّة تبني عقد الاجتماعات واللقاءات وإدارة الندوات إضافة إلى تعبئة المسلمين الوافدين إلى الديار المقدّسة وتوعيتهم، أناطها بالعلماء والمرشدين، فخاطبهم قائلاً:

«يجب على العلماء الذين يشاركون في هذا الاجتماع - من أيّ بلد كانوا - أن يتبادلوا الآراء وينشروا بيانات تستهدف توعية الشعوب، وينشروها بين المسلمين في مهبط الوحي، كما يجب عليهم نشرها بين أبناء بلادهم بعد الرجوع إليها. وليطلبوا فيها الى زعماء البلدان الإسلاميّة أن يجعلوا الأهداف الإسلاميّة نُصبَ أعينهم، فلا يختلفوا فيما بينهم، ويتفكّروا في التخلّص من براثن الاستعمار». ويضيف رحمه الله:

«على العلماء الأعلام، والخطباء العظام، أن يُتّهِوا المسلمين على مسائلهم السياسيّة وواجباتهم الخطيرة». كما طالب الإمام أن تكون هذه الاجتماعات محرّرة من القيود، بعيدة عن الاضطهاد والإرهاب والممارسات التعسّفية؛ لأنّ المسلمين - كما يقول رحمه الله - المضطهدين في بلدانهم سياسيّاً يجب أن تعطى لهم الفرصة للتعبير عن آرائهم وإبداء وجهات نظرهم بالقضايا الراهنة. فهو يقول:

«بما أنّ مسلمي العالم لا يستطيعون تبيان مصائبهم والمظالم التي يفرضها عليهم حكامهم المسلّطون عليهم بسيف الإرهاب والسجن والإعدام، فيجب أن يُسمح لهم بأن يعرضوا مظلوميّتهم ويبيّنوا مصائبهم في حرم الأمن الإلهيّ بكامل الحرّيّة ليذكّروا باقي المسلمين بالسعي لإنقاذهم؛ لذا نحن نصرّ (بقوّة) على أن يعتبر المسلمون أنفسهم في بيت الله الحرام وحرم الأمن الإلهيّ

ص: ٢٩١

أحراراً، في الأقل، من جميع قيود الظالمين، وأن يعلنوا البراءة مما ييغضون في استعراض مهيب ويستثمروا كل الوسائل للخلاص». فلسفة الحج في نظر الإمام يقول رحمه الله:

«إن أهم أسباب ما تعانيه المجتمعات الإسلامية هي أنها لم تدرك الفلسفة الحقيقية للكثير من الأحكام الإلهية. والحج - بما يشتمل عليه من أسرار وعظمة - لا زال يُمارَس كعبادة جامدة، وحركات غير مثمرة؛ لذا فإن من الواجبات الكبرى على المسلمين أن يتوصلوا إلى فهم حقيقة الحج. فما هو الحج؟ ولماذا يجب عليهم أن يخصصوا جزءاً من إمكاناتهم المادية والمعنوية من أجل أدائه؟! كل ما قدّمه الجهلة أو المغرضون أو المرتزقة تحت عنوان (فلسفة الحج) لا يعدو إطار تصويره بأنه عبادة جماعية وزيارة سياحية، فما علاقة الحج بالإجابة عن تساؤلات: كيف يجب أن نحيا؟ وكيف يجب أن نجاهد؟ وبأيّة صورة نواجه عالم الرأسمالية والشيوعية؟ وما علاقة الحج بوجوب انتزاع حقوق المسلمين والمحرومين من الظالمين؟ ما علاقة الحج بلزوم أن يظهر المسلمون كقوة كبرى ثالثة في العالم؟ وما شأنه هو بتحريض المسلمين للانقضاض على الحكومات العميلة؟ وهل هو إلأسفرة سياحية لزيارة الكعبة والمدينة لا أكثر؟ هذا كلّما قدّمه أولئك».

انتهج المستكبرون في البلاد الإسلامية سياسة معادية مبرمجة تستهدف صرف أبناء الأمة الإسلامية عن دينهم وإسلامهم عن طريق نشر المدارس الفكرية المادية والتيارات المنحرفة، فعمدوا بواسطة الحملات الإعلامية المكثفة إلى إفراغ الإسلام من محتواه وروحه، وتشويه أحكامه ومبادئه حتى أصبح الدين في أذهان معتنقيه مجرد طقوس لا علاقة لها بحياة الإنسان ومستقبله.

ص: ٢٩٢

وقد وُظف الطغاة طاقات كبيرة لتحقيق ذلك، كما استعانوا ببعض المثقفين دعاة الحداثه والمعاصيره المرتبطين بالشرق أو الغرب، والمتظاهرين بالتطرف الديني السلفي لتنفيذ مشاريعهم وخططهم.

لكن بالرغم من جميع تلك المحاولات لم تتمكن تلك الجهود أن تحقق كامل أهدافها طالما كان في الأمية رجال يقظون كالإمام القائد رحمه الله يتمتعون بدرجة عالية من الوعي والثقافة، فلا تنطلي عليهم خطط الاستعمار والأعبيه. والحجّ هو أحد المفردات التي عمل عليها الاستكبار العالمي بواسطة عملائه طويلاً حتى تمكن من أن يصير منه طقساً عبادياً يحظر خلاله ممارسة أى نشاط آخر خلافاً لما كان عليه المسلمون الأوائل، وبعيداً عن روح التشريع الإسلامي.

لذا يقول الإمام بهذا الصدد:

«لقد كان هذان الحرمان مركزين للعبادة والسياسة الإسلامية. فيهما ترسم خطط الفتح، وتحدّد مناهج السياسة في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وهكذا بقيا فترة طويلة بعد رحيله.

بيد أن سوء الفهم وأغراض القوى الكبرى ودعايتها الواسعة جعلت المشاركة في الشؤون السياسية والاجتماعية، التي هي من أهم واجبات المسلمين، داخل الحرمين الشريفين جريمة.

... هل هتاف هؤلاء ضد أميركا وإسرائيل - عدوتي الله ورسوله - جريمة؟».

إن فصل السياسة عن الدين من الأمور التي يرفضها الإمام رحمه الله لأنه يعتقد أنّها جزء منه. وما لم يتمكن الدين من ممارسة دوره على الصعيد السياسي يفتقد حركيته وفاعليته. كما يعتقد أن التجمعات العبادية تنطوي في ذاتها على عطاء سياسي؛ فلا يجوز أن تجرد عنه وإلا فقدت محتواها ولم تحقق أهدافها. يقول رحمه الله:

«كثير من الأحكام العبادية تصدر عنها معطيات اجتماعية وسياسية. فعبادات الإسلام عادة تؤم سياسته وتدبيره الاجتماعيّة.

ص: ٢٩٣

صلاة الجماعة، مثلاً، واجتماعات الحج والجمعة تحقق - بالإضافة إلى مالها من آثار خلقية وعاطفية - نتائج وآثاراً سياسية. استحدث الإسلام هذه الاجتماعات وندب الناس إليها، وألزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية وتعم العواطف الأخوية وتتماسك عرى الصداقة والتعارف بين الناس، وتنضج الأفكار وتنمو وتتلاقح، وتبحث المشاكل السياسية والاجتماعية وحلولها. المسلمون الأوائل كانوا يجنون من جماعاتهم وجمعاتهم وأعيادهم ومواقف حجهم أحسن الثمار.

لذا فالإمام رحمه الله يتوفر على فلسفة خاصة بالحج تعتمد على أساس إسلامي رصين. وفيما يلي استعراض موجز لفلسفة الحج على ضوء توجهاته وبياناته:

أولاً: العمل على إرساء دعائم الوحدة الإسلامية، وتوظيفها لخدمة المصالح الإسلامية المشتركة، وتكريسها لطرح الحلول المناسبة للقضايا الراهنة، واستغلالها لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية. يقول الإمام قدس سره:

«علينا أن نستثمر موسم الحج ونجني منه أطيب الثمار في الدعوة إلى الوحدة، وإلى تحكيم الإسلام في حياة الناس كافة. علينا أن نبحث مشاكلها ونستمد حلولها من الإسلام. علينا أن نسعى لتحرير فلسطين وغيرها».

«في هذا الاجتماع المقدس (الحج) لابد من تبادل الآراء في القضايا الأساسية للإسلام أولاً، وتبادل الآراء في القضايا والمشاكل الخاصة للبلدان الإسلامية، ولتعرّف الحجاج على ما يحلّ بإخوانهم المسلمين في بلدانهم على أيدي الاستعمار وعملائه. ولابد لأهل كل بلد في هذا الاجتماع المقدس أن يعرفوا المسلمين في العالم بمشاكلهم الداخلية».

ثانياً: تعميق روح العبودية لله تعالى، من خلال ممارسة مناسك الحج ممارسةً عباديةً واعيةً تتجاوز حدود المظاهر والأفعال المريئة، وترقى بالمرء إلى أعلى

ص: ٢٩٤

درجات سلم التكامل الأخلاقي والعقائدي، وتدفعه نحو بناء مجتمع تحكمه المبادئ والقيم الإسلامية. يقول الإمام رحمه الله: «الحج هو منطلق رسالة بناء مجتمع المستقبل المطهر من الرذائل المادية والمعنوية كافة».

«مناسك الحج هي مناسك الحياة برمتها».

«الحج تنظيم وتدريب وتأسيس لهذه الحياة التوحيدية... والحج ميدان لتجلى عظمة طاقات المسلمين ولاختبار قواهم المادية والمعنوية. والحج كالقرآن...»

مبارك ينتفع منه الجميع، ولكن العلماء والمتبحرين والعارفين بآلام الأمة الإسلامية، إذا فتحوا قلوبهم لبحر معارفه - ولم يرهبوا الغوص والتعمق في أحكامه وسياساته الاجتماعية - فإنهم حاصلون من أصداف هذا البحر على لثالي الهداية والوعي والحكمة والرشاد والتحرر أكثر من غيرهم، ولارتووا من زلال الحكمة والمعرفة إلى الأبد».

«إن الحج أفضل مناسبة تدعو المؤمن للتفكير؛ لأنها تثير أمامه الكثير من التساؤلات بشأن الأهداف الداعية إلى ممارسة هذه العبادة الشاقة المكلفة، وتدفعه لبلورة أجوبة مقنعة بشأنها:

لماذا الطواف في البيت الحرام؟ لماذا السعي بين الصفا والمروة؟ لماذا الوقوف في عرفات والمشعر الحرام؟ لماذا المبيت في منى؟ لماذا يرمي الشيطان؟

وعندما يقف المؤمن على أرض مكة يتوجب عليه أن يتساءل مع نفسه:

لماذا حطّم إبراهيم الاصنام؟ ولماذا حطّم محمد صلى الله عليه وآله الاصنام؟ وما هي دعوى رسول الله؟ وهل نحن على نهجه سائرون؟ وماذا ينبغي علينا الآن فعله؟».

يقول الإمام رحمه الله:

«حقيقته الأمر أن الحج هو من أجل اقتراب الإنسان من رب البيت وارتباطه به، فليس الحج حركات وأوراداً وألفاظاً وحسب، فبالكلام والألفاظ والحركات

ص: ٢٩٥

الشكليات الجامدة لا يمكن أن يصل الإنسان إلى الله.

الحجّ منع المعارف الإلهية، فيجب البحث فيه عن المحتوى الحق للسياسة الإسلامية لجميع شؤون الحياة».

«على شعوب الأمة الإسلامية من أيّ قوميّة كانت أن تصبح إبراهيميّة؛ لتلتحق بصفّ أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وتذوب فيه فتصبح معه يداً واحدة».

«الملايين يذهبون كلّ عام إلى مكّة وتطأ أقدامهم الأرض التي وطئها أقدام النّبي الأعظم صلى الله عليه وآله وإبراهيم وإسماعيل وهاجر، ولكن ما من أحد يسأل نفسه:

مَنْ هما إبراهيم ومحمّد عليهما السلام؟ وماذا فعلاً؟ وماذا كانت أهدافهما؟ ولأى شيء دعوانا؟ وكأنّ هذا هو الشيء الوحيد الذي لا ينبغي لنا التأمل فيه!».

«الإسلام دينّ عبادته سياسة، وسياسته عبادة. والآن إذ يجتمع المسلمون من شتّى بقاع الأرض حول كعبة الآمال لحجّ بيت الله، والقيام بالفرائض الإلهيّة، وعقد هذا المؤتمر الاسلاميّ الكبير، في هذه الأيام المباركة وفي هذه البقعة المباركة... يتوجّب على المسلمين، الذين يحملون رسالة الله - تعالى - أن يستوعبوا المحتوى السياسي والاجتماعي للحجّ إضافة إلى محتواه العبادي».

«إنّ الطواف حول بيت الله يعلمنا أن لا نطوف حول بيت إله غير الله، ورجم الشيطان يرمز لرجم شياطين الإنس والجنّ».

«فحينما ترجمون الشيطان عاهدوا ربّكم على طرد شياطين الإنس والقوى الكبرى من بلادكم الإسلاميّة العزيزة».

ثالثاً: البراءة من المشركين.

«ولاشكّ في أنّ الحجّ بغير روح ولا حرّة، ولا انتفاضة... ولا براءة من المشركين ...

ولا وحده... ودون أن يؤدي إلى تدمير الكفر والشرك... ما هو حجّ».

«على المسلمين، إذن، تقع مهمة إحياء الحجّ والقرآن الكريم وإعادتهما إلى ميادين حياتهم. وعلى الباحثين الملتزمين أن يلقوا في اليمّ بكلّ الخرافات

ص: ٢٩٦

والضلالات التي يطرحها فقهاء البلاط، وذلك بأن يتصدوا بجَدِّ لإيضاح أسرار الحجِّ وفلسفته الحقَّة».

«إنَّ إعلان البراءة من المشركين يعتبر من الأركان التوحيدية والواجبات السياسية للحجِّ. ويجب أن تقام في أيام الحجِّ بكلِّ صلابة وعظمة مسيرات ومظاهرات كبرى. وعلى الحجَّاج المحترمين - إيرانيين وغير إيرانيين - أن يشاركوا فيها بتنسيق تامٍّ... ويطلقوا بجوار بيت التوحيد صرخة البراءة من مشركي الاستكبار العالمي وملحديهم وعلى رأسهم أمريكا المجرمة، وأن لا يغفلوا عن إظهار عدائهم وتذمُّرهم من أعداء الله وأعداء خلقه».

إن كلمة التوحيد وشعار المسلمين (لا إله إلا الله) عبارة عن معادلة متوازنة وثابتة لا تقبل التلاعب ولا الالتواء. أحد طرفيها: إثبات الألوهية لله وحده.

وطرفها الآخر: نفى كل الآلهة الأخرى.

ويتربَّ على هذه المعاملة الصارمة أننا عندما نؤمن بالطرف الأول يجب أن نكفر بالثاني. وعندما ندين للأول نترك الثاني. وعندما نحب الأول نتبرأ من الثاني. وهذه هي حقيقة العبودية لله تعالى كما يقول الإمام رحمه الله:

«تُرى هل تحقيق الديانة هو غير إعلان المحبة والإخلاص للحقِّ وإعلان السخط والغضب والبراءة من الباطل؟ يستحيل أن يتحقق خلوص حب الموحدين بغير إعلان الاستياء من المشركين من أعداء الله وأعداء خلقه».

ولما كان الحجُّ عبارة عن تكريس وتأکید العبودية لله سبحانه تعالى - قولاً وعملاً - فيجب إذن في قبال ذلك أن نكرس ونؤكد البراءة من كل المشركين والشياطين والطواغيت قولاً وعملاً؛ لذا ففي الوقت الذي نطوف فيه في البيت، ونقف في عرفات لدعاء الله يجب أن نذهب لنرجم الشيطان، ونعلن براءتنا منه، وعندما نلبي بأعلى أصواتنا: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ...» يجب أن نرفع أصواتنا عالياً لإعلان البراءة من أعدائهم؛ لكي تبقى (لا إله إلا الله) حيَّة في قلوبنا وتتفاعل في

ص: ٢٩٧

نفوسنا، وعلى ضوءها نتخذ موقفنا، ونرسم منهج سياستنا، ونخطط لمستقبلنا، ونضع الحلول لمشكلاتنا.

إذ لم تكن أطروحة الإمام (إعلان البراءة من المشركين) في موسم الحج عن طريق التظاهرات والمسيرات، وعقد الندوات والمؤتمرات أجنبيّة عن روح الاسلام، ولا غريبة على تشريعاته، وإنما السياسات العملية هي التي عملت على قلب الحقيقة ودأبت على تمويهها حتى صار إعلان البراءة من المشركين مخالفاً يتنافى مع مناسك الحج ويؤدى إلى المساس بقداسة بيت الله الحرام!!

مع أن الحج - كما مرّ - ليس إلتظاهرة عامّة دعا لها الله (جلّ وعلا):

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ... لتأكيد العبوديّة الخالصة لله - تعالى - وإعلان البراءة من الشرك والمشركين.

وهنا يقول الإمام الخميني رحمه الله:

«وأي بيت هو أفضل من الكعبة - البيت الآمن، الطاهر... بيت الناس - لنبذ كلّ أشكال الظلم والعدوان والاستغلال والرقّ والدناءة واللاإنسانيّة قولاً وفعلاً؟

وتحطيم أصنام الآلهة تجديداً لميثاق: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ... وذلك إحياء لذكرى أهم وأكبر حركة سياسيّة للرسول صلى الله عليه وآله؟»

«فإذا لم يعلن المسلمون البراءة من أعداء الله في بيت الناس وبيت الله، فأين يستطيعون إعلان ذلك؟ وإذا لم يكن الحرم والكعبة والمسجد والمحراب خندقاً ومتراساً لجنود الرحمن، المدافعين عن الحرم، وحرمة الأنبياء، فأين هو مأمّنهم وملجؤهم إذن؟».

«وعلى أية حال، فإنّ إعلان البراءة في الحج هو تجديد العهد بالجهاد، وتربية المجاهدين لمواصلة الحرب ضد الكفر والشرك وعبادة الأصنام، وهو لا يقتصر على الشعارات بل يتعداها لتعبئة جنود الله وتنظيمهم أمام جنود إبليس، وبقية الأبالسة، والبراءة هذه تعتبر من المبادئ الأولى للتوحيد».

ص: ٢٩٨

الحج وآثاره التربوية والاجتماعية والسياسية..

الحج وآثاره التربوية والاجتماعية والسياسية..

الحج وآثاره التربوية والاجتماعية والسياسية..

حسين علاوى

الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، التى ثبتت أصولها بالكتاب والسنة، وقد عرّف بتعاريف متعدّدة أجمعها وأشملها ما جاء فى كتب الفقه من أنّ الحج هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعى والوقوف بعرفة، وسائر المناسك استجابة لأمر الله وابتغاء مرضاته.. والكتب المقدّسة تذكر أنّ أوّل من بنى البيت، وأقام أركان الكعبة هما إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بعد أن أوحى إليهما.. وأدركا أنّ البناء الذى أقاماه لم يكن رضىً للأحجار وتعليقاً للجدار.. فجهرّا بالدعاء وهما بينان القبلة، أن يقبل الله منهما ما عملا وما جهدا فى طاعة أمره وإبلاغ وحيه.. ثمّ رغبا إليه حين انتهاء من الرفع والتشييد أن يعلمهما مناسك العبادة التى وضع لها هذا البيت فعلمهما، فكانت الكعبة أوّل بيت للعبادة وضع فى الأرض، ثمّ أمر إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحجّ، وضمن الله سبحانه أن يستجيب الناس للدعاء.. فأقبلوا على الحج مشاةً وركبانا يحملون الأجساد والقلوب

ص: ٢٩٩

والتقوى.. ثم ظلت تلك الاستجابة تزداد مع كل عام.. حتى أقر مؤذن الرسالة الخاتمة أن تستمر الفريضة بعد أن تتضح معالمها من الإبهام الذي غشيها.. وتتفى أكرادها من الزين الذي أصابها.. فكانت الدعوة الاولى في دائرة أبى الأنبياء، والدعوة الثانية في دائرة خاتمهم.. فأسمعت الاولى قوم إبراهيم في حدود البلدان التي هاجر إليها.. واتبعه من أهلها.. أما الثانية فقد أسمعت الخليفة كلها.

«وخط الإمامان الأولان مشرعا للحنفية الاولى، وقاما لها في أرض العرب إرهاباً للمطلع الذي تطلع منه دعوة الختام التي صرخت في العرب والعجم، للحفاظ على ما استفاض عن الإمامين من المسالك والمناسك في قول الرسول صلى الله عليه وآله: «قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من أبيكم إبراهيم».

ولاشك ان في سيرة الحج إلى مكة منذ إبراهيم إلى محمد -عليهما الصلاة والسلام- لم ينكرها التاريخ بل أكدها قولاً وفعلاً.. وللحج شروط بوجودها يجب، وبانعدامها ينعدم الوجوب، منها الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة.. والشروط الثلاثة الاولى من شروط التكليف في كل عبادة.

وأما الشرط الرابع فقد زال بزوال العبودية.. بعد أن جاء الإسلام مرغباً في العتق.. أما الشرط الأخير فهو الاستطاعة وهي القدرة المادية مصداق قوله تعالى: ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

والحج هو مظهر من مظاهر مجاهدة الفرد لميوله الشخصية.. وطموحاته التي قد تتعارض والمصالح العامة..

فالزى الذى يرتديه الحاج بصرف النظر عن مركزه الاجتماعى يدخل فى شكله البسيط ولونه الملائكى فى عملية عميقة جذورها عميم نفعها ألا وهى عملية توحيد فصائل المجتمع؛ لأن المجتمع الإسلامى هو مجتمع لا يعترف بالقوميات.. ولا بالطبقيات.. ووحدة الأدعية.. ووحدة المشاعر.. وتجمع المسلمين فى مكان واحد هى من الأهداف الكبرى التى تهدف شريعة القرآن إلى زرعها فى رحاب المجتمع

ص: ٣٠٠

الأكبر حتى يكون مجتمعاً متّحداً عقيدة وسلوكاً وأخلاقاً.. مجتمعاً يتفاوت فيه الناس بحسب أعمالهم وأهدافهم من وراء أدائهم لتلك الأعمال.

الحج مؤتمر عالمي

وبالإضافة إلى كونه منهجاً تربوياً يغرس في نفس المسلم المشاعر الإنسانية العالية، والأخلاق الحميدة الفاضلة، فهو أيضاً لقاء يكتسب منه المسلم ثقافة اجتماعية، وفوائد مسلكية، ومنافع مادية قد تنجر عنها بركة عظيمة، وفوائد جمّة لشعوب إسلامية بكاملها، إذ قد تعقد فيه المعاهدات التجارية، كتبادل البضائع ممّا ينشط الاقتصاد الإسلامي..

ولم يكن هذا ليقع لولا- تعارف المسلمين بسبب اجتماعهم المبارك لأداء هذه الفريضة المباركة. ذلك أنّ في تعارف الشعوب الإسلامية وتبادلها الآراء وطرحها لمشاكلها ما يقرب شقّة الخلاف إن كان هناك خلاف، وإذا انعدم الخلاف عمّ التفاهم ووحدت الغايات واتحدت المناهج.

إلّا أن الحديث عن العبادات والشعائر وما يتعلّق بها غداً حديثاً ناقصاً وممّلاً لدى الكثيرين.. لأنه توقف أو كاد عند عتبه الحلال والحرام، والثواب والعقاب، أو تحت مظلة الشكليات التي تقيم هيكل العبادة دون أن تبثّ الروح فيها.. ممّا أورث تصوّراً خاطئاً عن العبادة أشبه ما يكون بالطقوس في الأديان الأخرى..

ومن هنا فإن إعادة قراءة هذه العبادات والشعائر قراءة تستوحى أهدافها التربوية.. وأبعادها النفسية..

ومفرداتها العملية.. ووظيفتها التربوية والاجتماعية والسياسية والتنظيمية..

أصبحت ضرورة يلح الواقع عليها.

وممّا يؤكّد هذه الأهمية أنها تمثّل ركناً أساسياً من أركان النهوض بالشخصية المسلمة بما تتركه من آثار في النفس الإنسانية، وبالمجتمع الإسلامي بما تمليه من قواعد تنظيمية وتكافلية.. فمعرفتها بالصورة المقنعة المتوازنة بين الطرح المتكرّر والمفرط لشكلياتها.. وبين الجانب الغائب ما وراء هذه الشكليات جدير بأن يعزّز المسير في اتجاه الوعي الإسلامي

ص: ٣٠١

النهضوى المتوازن والمتكامل.

الحج ثورة على العادة..

الحج ثورة موظفه لمعنى يتجلى من وراء تقنينها بالسلوكيات والشكليات والرمزيات.. ثورة ضد التقليد الذى يسير عليه الإنسان بجميع أشكاله ليعيش نمطاً جديداً من الحياة فى أيام، فحمل من إحياءاتها ما يثقل وزنه فى سلوكه ووجدانه..

فالحظة الاولى فيه لحظة تخليه الواعى الممنهج عن اللباس والطيب وأسباب الزينة وملذات الدنيا.. وليس رداءً وإزاراً أبيضين غير مخيطين يمثلان الاستسلام لله طواعية قبل الاستسلام له كراهية عند الموت فى لباس شبيه..

إقبال على الله بفتح صفحة جديدة من العمل محفوفة بالأمل الذى لا يلغى من حسابه ساعة الموت، الذى هو صفحة جديدة أيضاً ولكن من حساب قديم..

والمناسك التالية لهذه الخطوة تأكيد لها، وتسديد لمستقبلها المنشود فى حياة جديدة منتظمة قائمه على منهج الله، وتكرس فى نفس صاحبها روح الخير والبذل والعطاء من خلال ما يغدقه الحاج فى سبيل هذه الفريضة ومناسكها، وتعود على النظام والجديّة والمسؤولية فى الحياة بالتزامه بنظام دقيق شامل لجميع شؤون الفرد لباساً وطعاماً وجسداً وزماناً ومكاناً ومجتمعاً و...

إنّها «حركة شمولية ذات أبعاد تربوية حقيقية استعملت فيها أساليب الحسبة والتجريدية والممارسات التجريبية بكل ما تعنى من عمق فى قدره الحج على التغيير بطريقة تخلو من كلّ السلبيات فى العملية التربوية على العموم.. فالحج فريضة متعدّدة الجوانب والاطر: اجتماعية، تربوية، سياسية، علمية، عقلية، وجدانية، بدنية، فنية..».

الحج ترسيخ لقيم التواضع والمساواة

إنّ الحج تدريب عملى للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التى جاء بها الإسلام، فقد أراد دين الله أن لا تكون تعاليمه ومبادئه مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعبادته وشعائره ربطاً وثيقاً، حتى تكون سلوكاً تطبيقياً

ص: ٣٠٢

في حياة المسلم وفي علاقته مع الآخرين.

«فمن خلال الإحرام- مثلاً- الذي هو ركن من أركان الحج- وحيث تشمل الجميع صحوه للنفس البشرية التي قد يستولى عليها الكبرياء والخيلاء في بعض الأحيان، وتجمع بها الشهوات، أن تفكر وهي محرمة في أصلها وتذكر أنه لا يُفَضَّل أحدٌ أحدًا إلَّا بالتقوى والعمل الصالح».

إنَّ المسلم هناك وعندما يتجرّد عن الثوب الأنيق بل الثوب المخيط ويحرم عليه أن يمَسَّ الطيب.. ويرى نفسه في لباسٍ يساوى أقلَّ الناس مالاً وجاهاً، هناك يتلقَّى درساً في المساواة لا تبلغه أقوى العبارات وأعظم الدروس.

الحجّ ترسيخ للوحدة الإنسانية

إنَّ الحجّ ليس مجرد فريضة تهذب النفس وتعصم السلوك بل هو أيضاً عنوان للأخوة الإنسانية العامة.. إنَّ الإسلام بتعاليمه لا يدع الفرد ينطوى على أنانية مُفرّقة.. بل تطبعه بشرائعه وآدابه على الإيثار والحبّ..

«فأرض الحج هي البلد الحرام، والبيت الحرام من دخله كان آمناً..

أمانٌ وسلام فريد في نوعه، يشمل الطير والصيد والنبات فضلاً عن الإنسان، وان المسلم حين يُحرم بالحجّ يظلّ فترةً إحرامه في سلام حقيقى مع من حوله، فلا يجوز له أن يقطع نباتاً أو يقطع شجرة، كما لا يجوز أن يذبح حيواناً صاده غيره له أو يرمى هو صيداً في الحرم أو خارجه».

وهكذا نرى من خلال مناسك الحج وشعائره خدمة لما يخص المجتمع البشرى على اختلاف ألوانه ولغاته وبلاده دون تفرقة ولا تمييز.. ولقد أعطت المسألة الإسلامية الفتية قوة دفع كبيرة لإحدى مرتكزات المجتمع الإسلامى الأساسيه، عبر تحريرها الفرد المسلم والجماعة المسلمة من جملة قيود تاريخيه وراهنه أحوال دورة الحج إلى واقعه محكومة بنظم فكريه وسياسيه مسيطرة على المجتمع الإسلامى، هجرت الشريعة الإسلامية منذ زمن بعيد، وحطت رحالها في أرض التبعية الشاملة لنظم التسلط العالمية!

ص: ٣٠٣

لقد أوصلت التجربة الإسلامية الفتية المجتمع الإسلامي المعاصر بأصول الشريعة في أكثر من نقطة كانت عصور الظلم السابقة ونظم القهر الحديث قد قطعتها وأحلت مكانها منطقها وأفكارها وسياساتها التي مزّقت الشخصية الإسلامية على أكثر من صعيد، وصادرت هوية الأمة في أكثر من موقع.

إنّ انفتاح الحالة الإسلامية الفتية على فضاء البشرية التوحيدية، فتح لها آفاق حركة شاملة في مواجهة ظلم الآخرين.. وغفلة الذات، وذلك عبر ما أحيت من قيم ومعايير غطت جوانب أساسية من شبكة العلاقات الناعمة والموجهة لسلوك المسلمين. لكن ذلك وضعها مباشرة في مواجهة التيارات الفكرية والسياسية المناهضة لتطلعات المجتمع الإسلامي ولقضاياها العادلة.

«وإذا كانت الحالة الإسلامية قد تمكّنت من فرض نفسها كتيار جديد ومجدّد ومكتمل البنيان في مواجهة تيارات العجز والقصور التي تقودها نظم التبعية والانحطاط، فإن واقع المواجهة وما ينطوي عليه من مشاكل شتى سيشكل عنواناً لمرحلة طويلة قادمة».

الحجّ عبادة وسياسة

لقد دفعت النظم الهاجرة للشريعة، في مواجهة التصوّر الإسلامي للحج، مقوله أنّ الحج ممارسة عبادية لا ارتباط لها بالسياسة.. وقبل علماء الأمة هذا التحدي، عبر تقديمهم لتصور إيجابي متكامل يؤكد استناداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كون الحج جزءاً لا يتجزأ من دورة المجتمع الإسلامي العامة وبالتالي ميزان الأمة وقضاياها.. فإنه من الطبيعي، أن يحمل كلّ ركن من أركان الأمة هموم الأمة في أحشائه بهذا القدر أو ذاك وبشكلٍ أو بآخر.. أي أنّ الحج كركن أساسي لا بدّ له من أن ينفتح على سماء الأمة وقضاياها السياسية المختلفة..

«فتحول الحج في قائمة معطيات الثورة الإسلامية العظمى، ليحتل مكانة خاصة. إنه تحوّل، لا في الشكل المعين لمناسك هذه الفريضة الإلهية الكبرى، بل في إحياء هذه المناسك وفي إثراء هذا

ص: ٣٠٤

الركن الإسلامى الركين بالمعنى والاتجاه.. فى هذا التحول، عاد الحج ليكون مرة أخرى مؤتمراً عظيماً عبادياً- سياسياً وتجمعاً لإعلان البراءة من المشركين..».

فركز الإمام الخمينى قدس سره فى أكثر نداءاته التى كان يطلقها فى كل موسم حج على ضرورة إعلان البراءة من المشركين كأمر وجوبى لابد منه لكل فرد موحد؛ لأنه يعتبر من الأركان التوحيدية والواجبات السياسية للحج.. ويجب أن تقام فى أيام الحج بكل صلابه وعظمة..

وطلب من الحجاج- الإيرانيين وغير الإيرانيين- المشاركة فيها وإطلاق صرخة البراءة من المشركين والملحدين فى جوار بيت التوحيد..

حيث إن هذه البراءة تهدف إلى وضع الحواجز النفسية والاجتماعية والعقائدية بين معسكر الموحدين من جهة، ومعسكر المشركين من جهة أخرى..

ويعتبر الإمام أن إعلان البراءة هو المرحلة الاولى من الجهاد، ومواصلته هى من المراحل الأساسية لواجبنا.. وثمره هذا المفهوم الشامل تتمثل فى تجييش الامة نحو أعدائها.. وتربية أبنائها على المناعة والصلابة فى مقابل التحديات التى تعصف بها..

فأكثر حجاج بيت الله الحرام مصابون بالغفلة كما وصفهم الإمام الخمينى قائلاً: «لا يمكن للمسلمين أن يحيوا حياة مشرفة إلبالإسلام، لقد أضاعوا إسلامهم، لقد عدنا نجهل الإسلام بسبب إحياءات الغرب وتشويهاته، ولذلك فإن المسلمين يجتمعون كل عام فى مكة المكرمة، لكنهم لا يدرون ماذا يفعلون...».

ولو استثمر المسلمون عطاء الحج السياسى كما يقول الإمام: «لكان ذلك كفيلاً بتحقيق استقلالهم، لكننا مع الأسف أضعنا الإسلام.. لقد أبعدوا الإسلام عن السياسة فقطعوا رأسه وسلموا لنا بقيته، وجزونا إلى الوضع الذى نعيشه اليوم، وما دام المسلمون على هذه الحالة فلن يستعيدوا مجدهم..».

ويقول الإمام الراحل قدس سره:

«كثير من الأحكام العبادية تصدر عنها

ص: ٣٠٥

معطيات اجتماعية وسياسية، فعبادات الإسلام عادةً توأم سياسته وتدبيره الاجتماعية.. فصلاة الجمعة - مثلاً، واجتماع الحج والجمعة تؤدى بالإضافة إلى ما لها من آثار خلقية وعاطفية، إلى نتائج وآثار سياسية، فالإسلام هو الذى استحدث هذه الاجتماعات وندب الناس إليها وألزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية، وتسيطر العواطف الأخوية والتعارف بين الناس.. وتتلاقح الأفكار فتنمو وتنضج، وتبعث المشاكل السياسية والاجتماعية وحلولها.. فيستوجب على المسلمين الذين يحملون رسالة الله تعالى، أن يستوعبوا المحتوى السياسى والاجتماعى للحج إضافة إلى محتواه العبادى».

الحج ووحدة المسلمين

وبما أن الوحدة هي الكفيلة لحفظ كيان الامة وتماسكها، وترسيخ وجودها، وتثبيت أقدامها.. وبأن التوحيد والترابط، والتآلف والتماسك، هي مصدر القوة والغلبة، ومنبع القدرة والمنعة.. وأن القوة أمر ضرورى لحفظ الشرائع والمبادئ.. والوحدة مصدر قوة.. يقول الإمام الخميني قدس سره: «من واجبات المسلمين في تجمع الحج العظيم دعوة الشعوب والتجمعات الإسلامية إلى وحدة الكلمة ونبذ الخلافات بين المسلمين».

ويقول قدس سره: «إن الحج أفضل مكان لتعارف الشعوب الإسلامية، حيث يتعرف المسلمون على إخوانهم وأخواتهم في الدين من شتى أنحاء العالم، ويلتقون مع بعضهم في البيت الذي به كل المجتمعات الإسلامية وأتباع إبراهيم الحنيف.. وبنبذهم ما يمايزهم من اللون والقومية.. والأصل.. يعودون إلى أرضهم وبيوتهم الأول».

ص: ٣٠٦

الهوامش:

ص: ٣٠٧

وقفه مع مجتمع الحجّ

وقفه مع مجتمع الحجّ

وقفه مع مجتمع الحجّ

محمّد المدني

إنّ ما تعانيه امتنا الإسلامية خاصة والمستضعفون بشكل عام من أشكال القهر والابتزاز في كلّ النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من قبل الأنظمة الاستكبارية خصوصاً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وما رافقتها من آثار وأوضاع جديدة سادت كثيراً من مناطق العالم وبالذات العالم الثالث الذي كان الضحية الرئيسة لنتائج تلك الحرب المدمرة وما تلاها من عقد اتفاقيات على تقسيم النفوذ بين الدول المنتصرة.. ومما انتهت إليه نتائج الحرب العالمية الثانية أيضاً- وكما هو متوقع- كانت شعوبنا الإسلامية هي الخاسرة بعد أن تسلّط عليها حكّام عملاء وأنظمة قاهرة ليس لديها- إلّا السيف والمال، فمن لم يرضخ لها بالمال فالسيف مصيره المحتوم. فتشتت فرقاً وأحزاباً وتضاعفت عليها الولايات وصودرت حرياتها وانتهكت مقدّساتها، وما بقى شيء فيها إلّا ونالته يد الضيم والقمع والتعسف والتشتت والتقسيم...

فراح النظامان الغربى والشرقى بوصفهما يشكّلان القوّتين الرئيسيتين فى العالم

ص: ٣٠٨

يحكمان سيطرتهما المباشرة أو غير المباشرة عبر عملائهما وعبر قوى سياسية أفرزها الواقع السياسي المداهن لها في المنطقة على كلّ الأمة الإسلامية والشعوب الإسلامية.

وفي الوقت الذي ظهرت - نتيجة ذلك كله - مدارس ومؤسسات وكتابات ومؤلفات همّها دعم هذه الأنظمة المتسلطة وتبرير وجودها بل وتسويقها، ظهرت بالمقابل مدارس وحركات متنوّعة إسلامية ووطنية وأخرى قومية كان همّها الذي يورقها هو حماية شعوبها من ذلك الانحراف الجارف، ومن ذلك القمع المتواصل والتشتت والتمزّق إرباً إرباً، فقدّمت من أجل ذلك الكثير من الضحايا والقرايين في سبيل إبقاء الحالة خاصة الإسلامية بعيدة عن الموت والانتهاه والفناء، وكم حاولت هذه الحركات وبالذات الإسلامية أن تلملم جراحها العميقة التي تولّدت نتيجة صراعها المرير وغير المتكافئ قوّة وعدداً مع الجهات الظالمة. وكم كانت الحركات الإسلامية والشخصيات الإسلامية جاهدة في قراءة وأسباب انحسار النظام الإسلامي عن الساحة السياسية.. وطرق عودته إلى هذه الساحة والعقبات والصعاب التي تواجه ذلك..

وقد انبرى سماحه السيد الإمام لمعالجة ما تعانيه الأمة الإسلامية وشعوبها من فرقة وتناحر، فرأى أن يجمع ما يمكن جمعه، وأن يوقظ ما يمكن إيقاظه، وأن يداوى ما يمكنه من جراحها الكثيرة، فراح رحمه الله يضع الحلول ويستفيد من كلّ ما يمكنه من فرص متاحة لجمع شتاتها سواء أكانت هذه الفرص عبادية أو غيرها كالمؤتمرات والندوات والتجمعات ومن كلّ ما يتاح له من وسائل إعلامية وسياسية وثقافية واجتماعية..

فعلى مستوى العبادات راحت وصاياه وفتاواه تؤكد على إقامتها جماعة فكانت صلاة الجمعة العبادية السياسية، وكانت دعواته للمشاركة في الصلوات التي يقيمها أبناء الإسلام من المذاهب الأخرى.. كلّ هذا وغيره ليحقّق لهذه الأمة

ص: ٣٠٩

مجتمعاً إسلامياً وإن كان مصغراً إلا أنه يبتغى من ورائه بناء مجتمع آخر أوسع منه وأكثر شمولاً ونفعاً، مجتمع موحد وبالتالي الحيلولة دون انهيار الأمة وقيمها ومحاولة شد أزرها لمقارعة الاستبداد والظلم من أى طرف حصل وبأى شكل كان، فالظلم قطعاً يحول دون سمو الفرد وبالتالي يحول دون سمو المجتمع والأمة.

فالحج هذه الظاهرة الربانية الاجتماعية جعلها الله تعالى مناسبةً لأكبر وأعظم لقاء اجتماعي كبير يحتضن الآلاف من المسلمين من كل حذب وصوب ليشكلوا مجتمعاً يكون نموذجاً مصغراً لمجتمع كبير أفراد من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويكون هذا المجتمع قائماً بالقسط ليقوم الناس بالقسط وبالتالي ينتج أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتنبثق منه حكومة إسلامية تتصف بالعدل وتعمل به انطلاقاً من الآية الكريمة إن الله يأمر بالعدل...

حقاً إن مجتمع الحج مجتمع يدعوننا إلى التفاؤل والسعادة ويدعوننا أيضاً إلى أن نقول إن أمتنا بخير. ولا أظن أحداً خاصية ممن وفق لأداء هذه الفريضة المقدسة، أو كان ممن أطلع على خطاباتها وأحكامها الشرعية وأهدافها السامية وطريقة أدائها، لا يشاركني في أن لفريضة الحج إطاراً آخر غير ما يترتب على تطبيق أحكامها وأداء فعاليتها من إطار إنساني تفوح منه رائحة الإيمان وتسمو به روحيات المشاركين وأخلاقهم، والإطار الذي أعنيه هو الإطار الاجتماعي بكل ما يتضمن من أبعاد تربوية وسياسية وثقافية... تجعله يحمل نواة بقائه وديمومته وخلوده.

إن الهدف الأسمى للدين الإسلامي الحنيف هو خلق روحية اجتماعية- والإنسان اجتماعي بطبعه كما يقولون- تصبو لأن يكون كل تعاملها مع من حولها مبنياً على صفات نبيلة كالتآلف والتوadd والمجبة مما يولد في نفوسنا جميعاً حاجة نفسية للاجتماع والاتصال بأجناس أخرى وشعوب متعددة تكون ساحة الحج ميداناً واسعاً وحقلًا خصباً لتواجدها وتلاقح أفكارها واستماع آراء الآخرين مهما

ص: ٣١٠

كانت مخالفةً أو متقاطعةً.

فالحجّ إذن - إضافةً إلى أنّه يستطيع الإنسان فيه أن يشع ويرى حاجته النفسية وهو الانتماء الاجتماعي، الانتماء إلى أبناء جنسه، وظمأه الروحي - فهو مؤتمر تتجاذب الأفكار فيه كثيرٌ من الطوائف والقوميات والألوان؛ ليتم التعارف بينهما والانتفاع بشمار هذه الفريضة وما يترتب على أدائها بشكلها الإبراهيمي المحمّدي من إيجابيات وفوائد جمّة يحمل الحجاج أكثرها إلى حيث بلادهم وإلى أوطانهم وشعوبهم حتّى يكونوا دعاءً لها إذا رجعوا إليهم.

يخاطب السيّد الإمام الحجاج بقوله: «احملوا من ربكم نداءً إلى شعوبكم أن لا تعبدوا غير الله، وأن لا تخضعوا لغيره» ما أروعه من خطاب!

خاصةً إذا كانت هذه الشريحة متميّزة بفهمها لأهداف هذه الفريضة وعارفه بأحكامها، فإنّها ستترك بصماتها على باقى فضاء المجتمع الحاج من قوميات أخرى وشعوب أخرى وعادات ولغات مختلفة، كما ستجيد نقل ما لمستّه من آثار هذه الفريضة إلى قومها وستحسن تصويره لهم، وبالتالي تُقتطف ثماراً أخرى خارج الحرم ويعيداً عن مكّة والمدينة تضاف إلى ثمار ومنافع الحجّ ليشهدوا منافع لهم.. فتشدّ تلك الأقوام الرحال إلى منابع النور والعظمة إلى مكّة والمدينة، وتتوجه إلى أهمية هذه الفريضة ودورها الإيجابي الكبير فى التغيير الاجتماعى بل والفكرى والثقافى، فتشتاق النفوس أكثر وتتعلّق القلوب بأداء هذه الفريضة واقتطاف ثمارها، وبالتالي ديمومتها وإمدادها بطاقات بشرية جديدة فى كلّ عام وهكذا.. يبدأ التحوّل سنوياً ويتواصل التغيير فى المجتمع الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه.. ويتمّ عبر الحج - وهو وسيلة من وسائل التغيير - التغيير المنشود إنّ الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم.

إنّ المساواة بين أفراد الحجيج، مساواتهم فى الزى (لباس الإحرام) المتكوّن من ثوبين يرتدى بالأول ويأترز بالثانى على أن لا يكونا مخيطين إيغالاً فى البساطة

ص: ٣١١

وبعيداً عن التكاثر والتظاهر والتفاخر بالأنساب والألقاب.. يعدّ هذا مساواة وعدلاً بين الناس الذين وقّوا لأداء مناسك الحج بأموال ليس للغير حقّ فيها نظيفه من كلّ شائبة حرام. كل هذا يعدّ محطات لتركبة النفوس.

يقول السيد الإمام: «هذا البيت للناس، ولا توجد أولويّة لأحد على أحد، أو لمجموعة على أخرى، أو لطائفة على أخرى، الجميع بشر...»

إنّ الحجيج وهم يؤدّون مناسكهم بعيداً عن كلّ أشكال النجاسات المادية والمعنوية التي تتمثّل بالجدال والفسوق والأذى للحيوانات والنباتات فضلاً عن الإنسان، يشكّلون بذلك مجتمعاً إنسانياً متحرّكاً هنا وهناك في عرفات، وعند الإفاضة إلى المزدلفة وفي منى، وعند الطواف بالبيت وفي السعي.. حقاً إنه مجتمع إنساني بدوافع ذاتية مستجيبة لنداء ربّها لا غير وملثية لأذان إبراهيم لا غير، ومنقادة لخطاب السماء لا غير، ومنفّذة لأحكامها الشرعية لا غير.. دون أن يكون هناك أمر دنيوي يُطاع..

مثل هكذا تجمّع في بقعة مباركة محدودة، وفي زمن هو الآخر محدّد، وفي مظهر واحد، وتحت ظلّ شعار واحد، ومنسك واحد يضمّ محاور متعدّدة ممّا يجعله ذا خصوصية لا تجدها في غيره، لا شك ولا ريب أنه سترك آثاره سواء كانت آثاراً نفسية أم كانت آثاراً تربوية على الإنسان الحاج كشخص، أو على الإنسان الحاج كمجتمع، كما يترك آثاره على من يرى من بعيد هذه المشاهد عبر وسائل النقل والاعلام أو يسمع عنها أو يقرأ..

لهذا رأى القائد الامام الخميني في موسم الحج فرصاً عظيمة لتحقيق الأهداف العليا.

إن الحج إذا ما أودّي بشكله الإبراهيمي المحمّدي وتحت الشعار الرئيسي فيه وهو البراءة، البراءة من المشركين «صرخة البراءة من المشركين في مراسم الحج هي صرخة سياسيّة عباديّة» كما عبّر عنها الإمام الخميني، فهو قطعاً بهذا الشكل مجتمع

ص: ٣١٢

متحرّك واع، رافض للظلم والطغيان، يحتفظ بسلوك منظم، ويتقيّد بما وضع له من أحكام وتشريعات، وسيبقى بلا شك نموذجاً اجتماعياً رائعاً فاعلاً ذا آثار كبيرة على الوضع النفسى للأفراد وبالتالي الوضع الاجتماعى، وهو بعد ذلك نموذج فذّ لتصميم سماوى، غايته خدمة الإنسان ومصلحته التى غالباً ما تتأتى من خلال اجتماعه وائتلافه مع بنى جنسه.

يقول السيد الإمام: «إنّ الحجّ هو أفضل مكان لتعارف الشعوب الإسلامية حيث يتعرّف المسلمون على إخوانهم وأخواتهم فى دين الإسلام من جميع أنحاء العالم.. ومع مراعاة الأخلاق الكريمة الإسلامية واجتناب الجدل، يتجلّى ويتمظهر صفاء الاخوة الإسلامية وأبعاد تنظيم الأمة المحمّدية فى جميع أنحاء العالم.

ولنصل إلى النصر من خلال الاجتماع على الحق وتوحيد الكلمة، وكلمة التوحيد التى هى أساس ومنبع عظمة الأمة الإسلامية». فكلّ منسك يؤدّيه الحاج وكلّ موقف يقفه، بل وكلّ حركة وسكون يلتزم بهما الحاج تشعره بأنه جزء مهمّ من منظومة الأمة الواحدة، فالمناسك وأحكامها تجعل الإنسان الحاج يعتقد بأنّ عليه مسؤولية خاصة مسؤوليته عظيمة فى إطار العمل العام والجهد العام للحجاج فتدفعه إلى أن يجهد نفسه لكى لا يعيق ذلك التحرك العام أو يمنعه بل وعليه أن يفكر بمسؤوليته كإنسان فى مجتمع عام إزاء الآخرين من هذا المجتمع، فيتدرب على ذلك السلوك وعلى رعايته وتبنيه فى حياته العامة والخاصة.

وما توصيات السيد الإمام على أن يكون الوقوف واحداً فى عرفات والمزدلفة ومنى؛ إلّا كان تأكيداً منه على الجانب الاجتماعى الموحّد فى هذه الفريضة، إضافة إلى آثاره الأخرى ومنافعه المتعدّدة، وكذلك أمره بالصلاة جماعة مع الطوائف المسلمة الأخرى، وعدم جواز أدائها جماعة فى البيوت وفى مراكز بعثات الحجّ، بل وعدم جواز إعادتها «ينبغى الحضور بين جماعات أهل السنّة،

ص: ٣١٣

واجتناب الصلاة في المنازل» إلا جانب آخر من جوانب اهتماماته رضوان الله عليه في مسألة هذا الاجتماع ودليل حرصه الأكيد على ما يتركه من آثار، فشق الصف يؤدي إلى نتائج وخيمة وبالتالي نفقد ونخسر فوائد الحج واجتماع المسلمين في هذا الموسم المبارك وما يتركه من هيبة ورهبة في صفوف الأعداء، فمن أقواله بهذا الخصوص:

«طوفوا حول الكعبة بالطواف المتعارف على النحو الذي يقوم به جميع الحجاج».

أى بعيداً عما يثير الانتباه لنشازه وغرابته، فيكون له أثر بالغ في شق الظاهرة الاجتماعية هذه «احترزوا من الأعمال التي يفعلها الأشخاص الجاهلون» لما تتركه هذه الأعمال من آثار سيئة على هذه الفريضة ووحدة الصف فيها واجتماع المسلمين الموحدين، «ويجب على الاخوة الايرانيين وشيعة سائر الدول الاحتراز من الأعمال الجاهلة التي تؤدي لتفرقة المسلمين».

ولم يبخل رحمه الله تعالى بما يمد هذا التجمع الأكبر من عناصر القوة والثبات والديمومة؛ ليؤدي معانيه الإنسانية الجميلة في ظلال الدين الإسلامي الحنيف.

فالهدف الأسمى من إرسال هذه الرسالة الخاتمة هو إنشاء الجماعة الفاضلة التي تُبنى على الفضيلة، ويرتبط أبنائها بالأخلاق الفاضلة والمودة الواصلة؛ لتكون نموذجاً يحتذى من قبل الآخرين، وفضيلة متحركة قد يتأثر بها من يراها حتى وإن كان من أعدائها.

الهوامش:

ص: ٣١٤

البعد الإجتماعى للحج فى نظر الإمام الخمينى (قدس سره)

البعد الإجتماعى للحج فى نظر الإمام الخمينى قدس سره

البعد الإجتماعى للحج فى نظر الإمام الخمينى قدس سره

أحمد الواسطى

يتمتع الإمام الخمينى قدس سره بفكر وعبقريه ذات طابع تجديدى مستوحى من مبادئ الإسلام الأصيلة. فهو رحمه الله عندما ينظر لمسألة الحج فى بعده الاجتماعى ينطلق من هذا المعين المتمثل بأحكام السماء الخالدة، ومن الصعب - بهذه العجالة - الإحاطة بفكر الإمام العملاق.

لقد أصبح الإمام قدس سره رمزاً إنسانياً عالمياً؛ لأنه كرس كل حياته وعمره الشريف - الذى ليس ملكاً له - من أجل تغيير الإنسان وتركيبته من كل أشكال العبوديات وبنائه بناءً إسلامياً جديداً.

موقع النظرية الاجتماعيه فى الحياة الإنسانية

إنّ الجوانب الرئيسيه لاسلوب وطريقه تعامل النظرية الاجتماعيه مع مختلف جوانب الحياة البشريه تتمثل بالمجتمع الإنسانى والسلوك الاجتماعى.

والجدير بالذكر أنّ النظرية الاجتماعيه هى ما يطرحه الدين على نطاق النظرية الفقهيّة الدينيه.

ص: ٣١٥

وتتمتع النظرية الاجتماعية بخاصية وضع المؤشرات الدقيقة للموازن الاجتماعية في الحكم والسياسة، والقضاء والتعليم، والعائلة، والقانون، والدفاع، والصحة، والتجارة والزراعة، والصناعة... لذا فالمسؤولية الملقاة على عاتق النظرية الاجتماعية كبيرة جداً، ذلك أن جميع العناوين السابقة ستدخل تحت مظلة عنوان كلى هو دراسة السلوك الاجتماعي والمجتمع الإنساني. ومن هنا يتضح ان النظرية الاجتماعية في ظل النظام الإسلامي، تستلهم أفكارها من مبادئ الدين وأحكامه الشرعية ونظامه الأخلاقي.

الإسلام والواقع الاجتماعي للحج

إن الإسلام كنظام عالمي خالد قرر أحكاماً وقوانين ثابتة لجميع نواحي الحياة الإنسانية. منها ماله علاقة بالخالق البارئ، ومنها ما يرتبط بنبي النوع المماثلين في الخلق. ومنها ما يرتبط باتباع الدين الواحد من سائر المسلمين.

والإسلام يربي المسلمين تربية إلهية، ويوجههم نحو صراط العزيز الحكيم من خلال تذكيرهم وإرشادهم إلى صالح الأعمال، قال تعالى:.... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين* يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم.

فالقرآن المبين للأحكام والوظائف دعوته عامة لكل الأفراد والجماعات، كما أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله رسول الله إلى الناس جميعاً. ومن هنا، فالإسلام يدعو الناس جميعاً وبصوت واحد. والمسلمون المعتقدون بالإسلام تتوحد أهدافهم الإسلامية باتجاه واحد وبخطى متراصة.

وان كل ما رآه الإسلام هدفاً قيماً مقدساً يراه جميع المسلمين كذلك. هذا مع العلم بأن هذه الأحكام والقوانين كالحج مثلاً تبين فيما يتعلق بالمسلمين أهدافاً يهتم بها الإسلام ويركز عليها.

وأن العزة والانتصار في حياة المسلمين يترتبان على مدى الالتزام بهذه

ص: ٣١٦

الأحكام والقوانين وتحكيمها في مختلف شؤون الحياة اليومية.

وقد أكد الإمام الراحل قدس سره على «أن جميع الانتصارات والهزائم تنطلق من الإنسان، والإنسان أساس النصر وأساس الفشل، وما يحمله الإنسان من أفكار وتصورات هو أساس كل شيء».

فالذي يحث عليه الإمام رحمه الله بشكل متواصل لبلوغ الهدف هو مسألة التغيير الذاتي والنفسي للفرد والمجتمع على حد سواء انطلاقاً من مبادئ الإسلام ومفاهيمه الكلية الشاملة إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

الإمام والمسيرة التاريخية

إن حركة التاريخ في فكر الإمام قدس سره، تركز على مبدأ وحدة الامة، وأي أمر من شأنه إيجاد العقبات، أو تفريق الامة يكون مرفوضاً إسلامياً. فالإمام رحمه الله شخص القاسم المشترك والأرضية المشتركة، التي يجب أن تقف عليها الامة في مواجهة قوى الاستكبار العالمي.

فهو قدس سره ينظر إلى الحج باعتباره الساحة التي يمكن فيها تعرية النفاق في الامة.

وفيما يتعلق بالانقسامات بين المسلمين، فقد استطاعت الطائفية أن تنخر جسم عالمنا الإسلامي طيلة قرون عديدة.

وكان نتيجة هذه الظاهرة والانقسام الكبير بين السنة والشيعة، أن تسود العالم الإسلامي حالة الضعف. وقد كان ميسوراً على الإمام الاستفادة من هذا الوضع، إلّا أنه بشخصيته الإسلامية الفذة، بقي فوق كل هذه الانقسامات، بل قام بوظيفته الإسلامية بتوحيد صفوف جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم، من خلال نظريته الإسلامية الشاملة.

فالإمام الراحل قدس سره لا يمكن تحجيمه بأي شكل من الأشكال، أو تحديده ضمن مدرسة فكرية إسلامية. كما أن الحج بالنسبة للإمام يمثل أقصى درجات التعبير عن قوة الإسلام.

ص: ٣١٧

الحج في الفكر الاجتماعي الشمولي للإمام قدس سره

قال الله تعالى: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

تشغل أهمية البعد الاجتماعي للحج حيزاً كبيراً في فكر الإمام الخميني رحمه الله لما له من دور تغييري على الصعيد العالمي. ذلك أن المسلم في الحج يدرك بشكل واضح وجلّي أنه يعيش في جسم الأمة، وأنه جزء لا يتجزأ من هذه الأمة الكبيرة.

كما يشعر بأن كيانه مرتبط بكيانها، وأن المسلمين جميعاً ذمتهم واحدة يسعى بها أديانهم.

فهذا الأذان والإعلان العام للحج من قبل خالق الكون والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ثم التجاوب البشري من مختلف بقاع الأرض يمثل التواجد الواقعي للأمة الإسلامية. ومن هنا جاء نداء الإمام رحمه الله «يا مسلمي العالم، يا مستضعفي الأرض هيا إلى النظام الذي جاء من قبل الله تعالى لنموكم وتكاملكم ولسعادتكم في الدنيا والآخرة، ولإزالة الظلم وحقن الدماء ونصرة المظلومين في العالم...».

فالحج في رؤية الإمام العميقة تترتب عليه الأهداف الإسلامية الكبرى لإزالة الظلم ونصرة الحق.

لذا يتضح أن الحج حركة إلى الله من خلال الاندكاك والذوبان مع الجماعة الإسلامية ومن مختلف الأجناس والألوان والأصقاع. فالوسط الاجتماعي يعتبر المحرك الذي من خلاله يستطيع الفرد المسلم تهذيب «الأنا» وتجاوز الوقوع في دائرة الإغراء، أو الإثارة. ذلك أن المسلم إسلام مجسّد لتحقيق أهدافه وطموحاته وتجسيدها في حيز الواقع. علماً بأن هذه الأهداف تؤثر في إيجاد علاقة اجتماعية بين كل المسلمين، فإذا كان كل مسلم بصدد تحقيق هذه الأهداف، فهو يكون بصدد بناء مجتمع عالمي صالح على ما يدعو إليه إسلامه.

لقد أكد الإمام رحمه الله على التحرك الجماهيري الإسلامي في مختلف بقاع العالم

ص: ٣١٨

الإسلامي، وبقي وفياً لشعاراته الواضحة حتى انتهاء حياته، وأوصى بها بعد وفاته.

وكم كان يتألم رحمه الله حينما يرى هذا التخاذل والتراجع المستمر، فهو رحمه الله كان يحذر المسلمين من القعود والوقوف مكتوفي الأيدي إزاء ما يجري حولهم.

لقد سعى الإمام قدس سره بكل ما أُوتى من قوة من أجل ربط الإسلام بواقع المسلمين الاجتماعي. كما وقف بحزم وشدة بوجه الذين شوهوا صورة الإسلام الواقعية، حيث قال بشأنهم: «أبعدوا الإسلام عن واقع الحياة الاجتماعية... فقطعوا رأسه وسلّموا لنا بقيته، وجرونا إلى الوضع الذي نعيشه اليوم، وما دام المسلمون على هذه الحالة فلن يستعيدوا مجدهم».

وعلى صعيد آخر نجد الإمام رحمه الله يلفت أنظار المسلمين إلى مسألة إثارة الشكوك حول الإسلام وعلمائه، وأن الدين لا علاقة له بالأوضاع الاجتماعية من خلال ما أثارته المؤسسات الاستعمارية حيث يقول قدس سره:

«ووسوست لهم في صدور الناس أن علماء الدين ليس لهم أن يتدخلوا في الشؤون الاجتماعية...، ليس من حق الفقهاء أن يعملوا لتقرير مصير الأمة..»

ومن المؤسف جداً أن بعضنا صدّق بتلك الأباطيل. وقد تحقّق بهذا التصديق أكبر أمل كانت تحلم به نفوس المستعمرين».

ومن هنا يمكن القول: إن الإمام رحمه الله من خلال وصاياه وتوجيهاته في مختلف المناسبات، يحاول إمطة اللثام عن مكر الماكزين، وتوعية الأمة على أهمية الأهداف الاجتماعية في تبليغ الرسالة الإسلامية.

فهو قدس سره يشير مراراً وتكراراً إلى أن «كثيراً من الأحكام العبادية تصدر عنها معطيات اجتماعية...».

فصلاة الجماعة مثلاً واجتماع الحج والجمعة تؤدي -بالإضافة إلى ما بها من آثار خلقية وعاطفية- إلى توحيد كلمة المسلمين باتجاه الأهداف المطلوبة.

ص: ٣١٩

كما أشار رحمه الله موضحاً آثار الحج الاجتماعية قائلاً:

«استحدث الإسلام هذه العواطف، وندب الناس إليها، وألزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية وتعم العواطف الأخوية، والتعارف بين الناس وتنضج الأفكار وتنمو وتتلاقح، وتبحث المشاكل الاجتماعية... وحلولها».

لقد استوحى الإمام قدس سره هذه المعطيات من القرآن وسنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في تكريس الوظيفة الاجتماعية للحج الإسلامي، وتعميق كل المحاولات الجاهلية لتشويه هذه الشعيرة، وإبعادها عن أهدافها الحقيقية. فعندما نمعن النظر في مسألة الطواف والسعي وغير ذلك من شعائر الحج الإبراهيمي نلاحظ أن هناك انصهاراً وذوباناً ضمن كتلة بشرية واحدة تسودها القوة والفاعلية، وتموت فيها «الأنا» ولا نجد أي مجال للفردية، بل الحضور كل الحضور للجماعة المسلمة، حيث يشعر الفرد المسلم بأن هذه الأمة لم تعد أمة مجزأة ومشتتة العرى والأوصال، وإنما تتمتع بكيان واحد ومصير مشترك. ذلك أن المسلمين في الحج يتحولون إلى أمة واحدة، عندما يتحركون باتجاه واحد، ويلبسون لباساً واحداً، ويطوفون حول كعبة واحدة، ويسعون في اتجاه واحد، وفق مناسك مشتركة.

لذا من أجل هكذا نوع من الارتباط والتلاقي، تم إعداد الإنسان ليكون اجتماعياً. ذلك أن الإنسان من خلال هذا اللقاء والارتباط بالمجتمع يصل إلى درجة من النضج والرقي في سلم الكمال الذي أعده الله تعالى له.

فالإحرام من الميقات تعبير عن الذوبان في المجموع. والطواف حول البيت يمثل الانجذاب إلى الله تعالى والتوجه نحو الحياة، قال تعالى: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.

ومن هنا يتضح أن الأمة من خلال مناسك الحج تعيش تجربة التوحيد، والارتباط بالله والمعاشية الفعلية مع الأمة - بنظر الإمام الراحل - في جو يسوده

ص: ٣٢٠

الود والاخاء بعيداً عن روح الإثارة والفوضى والجدل.

ومن هنا جاء تأكيد الإمام الراحل بشكل متواصل على توحيد الكلمة والصف الإسلامي، ونبد الخلافات الجانبية، والرجوع إلى القرآن الكريم مصدر القوة والعزة، حيث قال رحمه الله بهذا الصدد: «إن سبب كل المشاكل في البلاد الإسلامية هو اختلاف الكلمة وعدم التعاون، ورمز الانتصار هو وحدة الكلمة وإيجاد التعاون... كونوا جميعاً للإسلام، وتوجهوا إلى الإسلام ولصالح المسلمين، وابتعدوا عن التفرقة والخلاف الذي هو أساس مشاكلنا وتخلّفنا».

فالإمام رحمه الله يعمل بدقّة ومبدئية لتوحيد كلمة المسلمين، وإرجاعهم إلى القرآن والسنة والعمل على أساس الإسلام. والحج الإسلامي في بعده الاجتماعي الكبير والواسع أحد أهم الطروحات، التي أعلنها الإمام الراحل في مواجهة المستكبرين والمتصدين بالماء العكر، والحيلولة دون تحقيق أهدافهم المتمثلة بفرض سيطرتهم على البلاد الإسلامية، وبث روح الخلاف والتفرقة بين المسلمين؛ ليسهل بالتالي نهب ثرواتهم ومصادرتها.

إنّ البعد الاجتماعي للحج من خلال فكر الإمام الشمولي يعدّ عاملاً واسع الأبعاد؛ لما له من دور مهم وكبير في تربية الإنسان على أن يكون تغييرياً لا يقبل الواقع الفاسد بشكل مطلق.

فنجده رحمه الله يقول: «يجب استثمار هذه الاجتماعات لأهداف الإعلام والتعليمات الدينية، وتوسعة مدار النهضة العقيدية...». كما كان يحرص رحمه الله كلّ الحرص في أن يؤدّي الحج دوره الكبير في إعداد المجتمع الإسلامي المؤمن، العابد، الموحّد، الواعي لخطط الاستكبار ودسائس المستعمرين.

ص: ٣٢١

الهوامش:

ص: ٣٢٢

هموم الوحدة

هموم الوحدة

هموم الوحدة

نبيل على صالح

تمهيد عام:

تواجه امتنا الإسلامية في العصر الراهن تحديات مصيرية جمّة، تختزن- في كلّ مضمونها وحركتها الداخلية- أبعاداً وأهدافاً تخريبية عنصرية، تتحرّك- في حسابات الواقع- من خلال مخطط استكباري عالمي ينظم حركتها، وينسق مواقفها، ويجسّد مطامعها في تحقيق مزيد من حالات السيطرة والاستغلال عبر أساليب همجية بعيدة كلّ البعد عن أدنى حالات التخلّق بالقيم الإنسانية، ومبادئ حقوق الإنسان في العيش الآمن المستقر، وطبيعة الهدف التكاملي الأعلى للإنسان في حركة الحياة. ويمكننا- في هذا المجال- ملاحقة هذه التوجّهات العامة، ودراسة إرهاباتها، ونوعيّة أهدافها في الواقع العالمي الجديد، من خلال معرفة كيفية تحرّك مساراتها في داخل حياتنا ونسيجنا السياسي والاجتماعي، حيث يصرّ منتجوها- كما يظهر- على تكريس حاكمية الاستعمار الحديث المستكبر، في فرض سيطرته المطلقة

ص: ٣٢٣

على حركة الشعوب الإنسانية المستضعفة فى شتى بقاع المعمورة، وفى جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الفكرية والإعلامية.

ونحن لا نريد أن نُتهم بالتجنى على الغرب أو الدخول فى متاهات العقدة النفسية والفكرية تجاه السلوكية الغربية- كما يحلو للبعض أن ينسب إلينا ذلك- لأن المسألة ترتبط ارتباطاً مباشراً ووثيقاً بالواقع المتعثر والمفكك الذى خلقنا فيه، ونتحرك ضمنه، ونتنفس هواءه، ونعايشه بكل معطياته، وعناصره، ومقومات وجوده الداخلية والخارجية التى تتصل بقضايا وإشكاليات هامة وخطيرة على مستوى علاقة الإنسان بحركة الأبعاد الفكرية والسياسية والاجتماعية فى ضمن أجواء ومناخات العمل الحضارى الراهن.

ويكاد هذا الواقع العالمى الجديد يُجمع بكليته- من خلال سلوكيته وأدائه، وإن لم يعلن ذلك رسمياً- على أن هناك تحركات وفعاليات منظمة ودقيقة يقوم بها الاستكبار والكفر العالمى لتأكيد خطه الحضارى الذى يتوافق مع مصالحه فى استمراره جعل المنطقة العربية والإسلامية عموماً دائرة لنفوذه وسيطرته، ومجالاً حيوياً لتنفيذ مخططاته ومؤمراته ومصالحه، بهدف تطويق الأمة، ومواجهة إسلامها الحركى الفاعل الذى يشعرون بأنه أصبح يمثل خطراً داهماً على مصالحهم الاستكبارية فى العالم كله؛ ولهذا فإنهم يواجهونه بكل الوسائل التعسفية على جميع المستويات والأصعدة. ونستطيع أن نتلمس واقعياً آثار هذا المخطط، وامتداداته العملية من خلال متابعة الأحداث، التى جرت وتجرى الآن فى العالم الإسلامى الذى حوّلوه إلى بؤرة للتوتر والانفجار.

إنها مشاكلنا نحن كمسلمين، حُوربنا فى وجودنا الفكرى والعقائدى، وفقدنا شعورنا الواعى والأصيل بهويتنا وانتمائنا الدينى الحضارى، وتغربنا عن واقعنا تائهين فى سراديب العالم وأنفاقه المظلمة، نلتقط فكرة هنا وأخرى هناك، عسى أن تساهم فى حل مشاكلنا التى استعصت علينا، والحل كائن- أصلاً-

ص: ٣٢٤

بين ظهرانينا. لقد أصبحنا فرقاً وشيعاً يكفر بعضنا بعضاً وينافق بعضنا على بعض آخر، ويحاول كل فريق منا أن يبحث عن عقد الفريق الآخر، وهو يحمل في ذاته أكثر من عقده، فقط من أجل النيل منه، أو تسجيل نقطة لصالح هذا الطرف أو ذاك.

أجل لقد انطلقنا نحو الزوايا المظلمة والضيق، وابتعدنا- في سلوكنا الذاتى والاجتماعى، وأساليب ممارستنا لأجواء وأبعاد الواقع المختلفة- عن ساحة اللقاء والتواصل، والحوار الهادئ والواعى والمنفتح على الله تعالى بقلوب صافية وعقول واعية من أجل نيل رضاه، وإعلاء كلمته. ولعل الأمر الذى يدعوننا- أكثر من أى وقت مضى- إلى تعميق أواصر الوحدة، والمحبة، والتعاون، والتضامن ورص الصفوف، هو وجود كل تلك المشاكل والعقبات المتأصلة في نفوسنا وواقعنا (وهي في أغلبها مضحمة، ومصطنعة، ومطبوخة في دوائر المخابرات والأمن الإقليمى والدولى). حيث نجد أنها تعيق مسار حركتنا باتجاه الله أولاً، ومن ثم باتجاه وحدتنا الإسلامية ثانياً. ونحن- حقيقة- المعنيين والمستهدفين بها أولاً وأخيراً؛ لأنها وُجدت وانطلقت في فكرنا وعاطفتنا وواقعنا، ولا نجد أن هناك إمكانية لحلّها والتخلّص من أجوائها السلبية الضاغطة، إلا بتعميق الشعور بالتقريب الروحى والفكرى بين المسلمين، ومن ثم السعى الحثيث الصادق والمخلص على طريق تحقيق وحدتنا الإسلامية المنفتحة والواعية والواقعية. ولكن ما هي هذه الوحدة؟! وكيف السبيل إلى تمثّل هذا الهدف السامى والعظيم؟! ومن ثم كيف يمكننا تفهّم حقيقة بواعث ونتائج تلك الوحدة على ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة؟! وما علاقتها بقضية النهضة الإسلامية المنشودة؟ هل هي مجرد دعوات وصيحات حماسية انفعالية تُطلقها في الهواء ليحلم بها الإنسان المسلم كملجأ يفرّ إليه هارباً من تعقيدات الواقع، ومشكلات الحياة، وضبابية الأهداف فيها، أم أنها مخدّر روحى يبعث في النفس راحة وطمأنينة لبعض الوقت كمالاذ يعيش فيه مجتمعنا

ص: ٣٢٥

وإنساننا ازدواجية الشخصية الروحية والسلوكية؟

إنّ العناوين القادمة تحاول رصد إجابات واقعية هادئة وعقلانية عن ذلك كله، من خلال متابعة الهدف الكبير في إطار الواقع الحي، في مواقع السمو والرفعة بطريقة متوازنة بعيدة عن أجواء العاطفة الانفعالية، والحماس اللاعقلاني المنطلق كردّة فعل على واقع التخلف والتجزئة الذي نعيشه في عصرنا الراهن.

الوحدة الإسلامية على ضوء القرآن والسنة:

أبدى القرآن اهتماماً بالغاً وملحوظاً بقضية الوحدة وإشكالية التقريب بين مذاهب المسلمين، ودعا إلى بذل كلّ الطاقات والجهود الممكنة على هذا الطريق من أجل الوصول إلى الواقع الودوي الإسلامي، فيما يعطيه من عوامل متعدّدة تتحرّك في مفردات الحياة من موقع القوّة الحركية في الفكر والوجدان والعاطفة، بهدف تحصين الامّة الإسلامية من عوامل الانهيار والانقسام والتفكك الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والفكري، وإعادة حضارتها الشاملة، وثقافتها الإنسانية الرسالية الغنية إلى الساحة العالمية.

ويمكن أن نقرأ في صفحات كتاب الله العظيم الآيات التالية التي تشكّل - بحدّ ذاتها - عناصر وحدوية فعّالة، وأساساً راسخة في عملية الدعوة إلى بناء فكر واحد، وعاطفة واحدة، وشعور واحد، يمكن أن تنطلق - في كلّ زمان - دعوة في المطلق، تحتاج - فيما تحتاج - إلى إنزالها، بوعي، حركة وممارسة نسيبة على أرض الواقع المحدود - المثقل بالهموم والانكسارات والانقسامات والتراجعات - لتشييد الدولة الإسلامية الواحدة في مستقبل الدعوة:

قوله تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمه الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً
تحدّثنا الآية الكريمة السابقة عن عمق هدف الوحدة من خلال إظهارها لنتائج الوحدة وآثار التفكك والتفرقة، فالمجتمع الجاهلي - وكلمة جاهلية

ص: ٣٢٦

تتحرك في كل زمن يتعد فيه الإنسان عن الله - كان يحمل بين طياته عوامل الضياع والانقسام والتشردم إلى عصبية قبلية، وعقد طائفية، وعاطفة ساذجة ممزوجة بالحقد والبغضاء، بينما كانت الحالة مختلفة تماماً في ظل الدولة الإسلامية الواحدة التي عملت على تجسيد أهداف الوحدة، وتمثلت - بعمق ووعي - دعوتها الوحدوية المبنية على المحبة، والمودة، وروح التعاون والوفاق والأخوة والإلفة فيما هي الوحدة في العاطفة والوجدان، وفيما هي الوحدة في الفكر الواحد أيضاً، حيث لمت الدعوة الوحدوية الإسلامية شعثهم، وجمعت كلمتهم، ووجدت صفوفهم فكراً وروحاً، قلباً وقالباً، ونسفت من الجذور المناخات الجاهلية بكل موروثاتها وتبعاتها السلبية. ونستطيع أن نفهم من خلال كلمة «الاعتصام» بحبل الله تعالى معنى الالتزام بنهج القرآن كقاعدة صلبة متماسكة للوحدة المنطلقة من عوامل الوحدة الفكرية والعملية بعيداً عن كل الإثارات العائلية، والقومية، والإقليمية المصطنعة والمستغرقة في الذاتية والانفعالية والأنانية.

يقول الشيخ محمد عبده، في تفسير المنار، معلقاً على الآية السابقة: «.. في كلمة الاعتصام المشتقة من كلمة العصم، توجد نقطة مهمة وجميلة جداً وهي أنه سبحانه كأنما يريد أن يقول:

إن أساس هذا الاعتصام يتهياً عن طريق التمسك (بحبل الله) وهو نفسه الشريعة الإلهية، وبعبارة أخرى الكتاب السماوي. إذاً يمثل الاعتصام بحبل الله القاعدة الصلبة التي يمكن للمسلمين أن يركزوا عليها من أجل توحيد المسيرة، وتوحيد الهدف في نطاق توحيد الأمة، وذلك في إطار التخطيط الواعي الذي يتجاوز السلبيات والإيجابيات، ويقف مع السلبيات وقفة فكر لا عاطفة، ويعتبر أن وضوح الرؤيا لدى أية جهة لا يعنى وضوحها لدى الآخرين مما يستدعى مزيداً من العمل والصبر والتحمل في سبيل الوصول إلى وحدة الرؤية للأشياء والمواقف في اتجاه وحدة الهدف الكبير، وذلك هو ما يبعدنا عن متاهات النظرات والتحليلات التي

ص: ٣٢٧

يشيرها الآخرون في أجواء غير إسلامية مما استحدثوه واستنتجوه من تجارب ذاتية أو أهواء منحرفة.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لِّسْتِ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

تستنكر الآية السابقة إثارة الخلافات والنزاعات المنحرفة، وتدين- في الوقت نفسه- عناصر الضعف والتباعد والتفرقة في كل زمان، ويتبرأ فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أولئك الذين حملوا رأيه الفتنة، وحاولوا تحجيم دور الإسلام الرسالي في الحياة، ومن خلال إضعاف وحدته وبثّ الفتن والاضطرابات، وزرع الأحقاد داخل المجتمع الواحد.

قوله تعالى: وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ.

يأمرنا الله تعالى في هذه الآية المباركة بلزوم الوحدة، والابتعاد عن الأجواء الخائفة والضيقة التي تثير الخصومات، وتؤجج الصراعات والمنازعات بين أفراد المجتمع؛ لأنها تنطلق من الأفكار الذاتية المنحرفة والخاضعة لسلوكية النوازع الشخصية، الأمر الذي يؤدي إلى إضعاف حركة الإنسان والرسالة في الواقع في خط وحدة الكلمة والصف والموقع.

قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون.

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون.

في هذه الحالة الإنسانية النفسية الرائعة، ومن خلال هذا المناخ الروحي المنفتح، تنطلق الآيتان على طريق الإنسانية الموحدة بهدف حثنا على ضرورة أن نكون أمة واحدة في الفكر والشعور والهدف من خلال وحدتنا في عبودية الخالق الواحد العظيم .. لتتحرك في الدائرة الإنسانية- بعد توحّدنا في الدائرة الإسلامية- على طريق التوحيد والشرعية، بعيداً عن الانغلاق والتقوقع والتعصب، وبالتالي الانفتاح على الآفاق الإنسانية الرحبة من موقع رسالتنا وفكرنا ومبادئنا الإسلامية الرفيعة ..

فالوحدة الإسلامية إذاً أمر إلهي علينا أن نصدع له بالانفتاح بعضنا على بعض

ص: ٣٢٨

فى مواقع كلِّ منّا فى الإسلام، وتعميق أواصر الاخوة واللحمة بيننا؛ لتشرق من جديد شمس الامة الإسلامية الواحدة فكراً وروحاً، وذلك بالابتعاد عن مواطن الفرقه، وتجاوز العقد الذاتيه من خلال العمل على ترسيخ النظرة الكلية الواعيه المنطلقة فى وعينا على أساس القواسم المشتركة الكبيرة القائمة - بالدرجة الاولى - على وحدة الخالق والشعور بعظمته، وهذا ما نحس به من قوله تعالى: كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. إننا نتصور أن التحرك على طريق تمثّل وتجسيد قيم ومبادئ القدوة الحسنه لا يتمّ إلّا بالتأسيس لعناصرها القاعدية الأساسية فى شتى الحقول والميادين الحياتية والاجتماعية، ومن أولويات وبديهيّات ذلك، مسألة الوحدة العملية .. هذا ما بدأه عملياً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والائمة الأطهار عليهم السلام من خلال السعى الى تقوية ركائزها، وتوثيق عُراها وأركانها بين المسلمين جميعاً.

أولاً- رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم داعية الوحدة:

يمثّل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المحور المركزى الواعى فى حركة الرسالة الإسلامية، فى ذهنية الامّة الإسلامية، بغضّ النظر عن طريقه الارتباط بهذه «الشخصية- الرمز» التى سعت منذ البداية- من خلال قوّة وعنفوان ووعى فكرها الرسالى - إلى نفس جذور المجتمع الجاهلى الذى كان يتحرّك فى دائرة العصبية القبليّة والعشائريّة والنعرات الطائفية المعقّدة .. يقول صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّ الله تبارك وتعالى قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفآخرها بآبائها .. ألا إنّ الناس من آدم، وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم».

وقد كانت السيرة النبوية الشريفة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مليئة بنماذج وحدوية هامة، وأعتقد أن قصة رفع الحجر المعروفة بالنسبة إلينا جميعاً، مثّلت درساً عملياً بليغاً أراد به الرسول لنا كى يفهم الناس - على اختلاف أزمنتهم وأمكنّتهم - أن الوحدة قوّة والفرقة ضعف. مع ضرورة التزام

ص: ٣٢٩

القيادة الشرعية العادلة والواعية وهكذا كانت معركة بدر التي انتصر فيها جيش المسلمين - بقلته القليلة المؤمنة بالله - على جيش المشركين بكثرته الغالبة في الكم والضعيفة في الكيف والنوعية والروحية. وكذلك كان الأمر نفسه بالنسبة لفتح مكة، وغيرها من النماذج الوحديّة الرائدة في تاريخ الإسلام، التي أراد من خلالها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يبنى في وعى الناس فكراً وحدوياً رسالياً يرتبط بالله الخالق الواحد، والقرآن الواحد، والرسول الواحد، ويذوب في الرسالة الإسلامية ليرتفع بهم جميعاً إلى مستوى القيادة الحكيمة للإنسانية جمعاء في خط العدل والتقوى والاستقامة. هذا ما نقرأه في خطابات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى سلم:

«المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً».

«مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

«.. المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».

ثانياً: أهل البيت عليهم السلام وحدة الإسلام في حركية الهدف:

حرص أهل البيت عليهم السلام جميعاً على وحدة وعزة الأمة، ودعوا إلى إزالة عوامل التناقض والتباعد والخلافات بين أهلها إعلاءً لراية الحق والإسلام وكلمة الله، وهذا ما يمكن متابعته في حركة الدعوة في خط الإمام على عليه السلام ومواقفه الإيجابية التي لا تُنسى مع الخلفاء الذين سبقوه في الحكم ..

قوله عليه السلام يوم السقيفة: «سلامة الدين أحب إلينا».

وقوله عليه السلام: «والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ...».

وقوله عليه السلام أيضاً في خطاب تحذيري إلى قوم من أهل العراق كانوا يستون أهل الشام: «إنني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكن لو وصفتم أفعالهم وذكرتم حالهم لكان أصوب في القول، وأصدق في الحجة، وقتلتم مكان سبكم إياهم: ربنا أحقن دماءنا ودماءهم، واصلح ذات بيننا وبينهم، واهداهم

ص: ٣٣٠

من ضلالتهم حتّى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به ..».

اما الإمام الحسين عليه السلام فقد نهض فى عاشوراء الإسلام، وانطلق بوعى وثبات من موقع الإيمان بضرورة الحفاظ على وحدة الصف الإسلامى، وتحصينه من الطائفية والعصبيات العشائرية، محاولاً إعادة الامة إلى حالة الوعى والنقاء الذى كانت عليه زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومصححاً مسيرة النهج الإسلامى الأصيل والرافض لقيم الجاهلية والطغيان والاستكبار والتمرد على قيم الله ومبادئ الإسلام.

يقول عليه السلام: «إنّى لم أخرج أشيراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح فى دين جدّى، اريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّى صلى الله عليه وآله وسلم ...».

لقد كانت كربلاء محطة وحدوية إسلامية فى وعى الامة؛ لأنها وضعت وحدة المجتمع والامة الإسلامية هدفاً لها، كما وكانت- فى الوقت ذاته- قفزة نوعية رائدة فى الفكر والوجدان حاولت، وقد نجحت فى محاولتها تلك، أن تؤسس قواعد راسخة للحياة الحرة الكريمة فى خط العدالة الإنسانية. ولولا هذه «النهضة- الثورة» لما كان بإمكاننا أن نشهد تلك التغيرات الكمية والكيفية المتنوعة التى ظهرت على مسرح الأحداث فى العصور اللاحقة.

أما الإمام جعفر الصادق عليه السلام فيقول فى حديثٍ معبرٍ له عن معاملة الشيعة لبقية المسلمين: «صلّوا فى جماعتهم، وعودوا مرضاهم، واحضروا جنازتهم أو موتاهم، حتى يقولوا:

رحم الله جعفر بن محمد فلقد أدب أصحابه. كونوا زيناً لنا، ولا تكونوا شيناً علينا ..».

واقع الوحدة الإسلامية

لاشك بأنّ للوحدة الإسلامية دوراً كبيراً فى الحفاظ على المقدّسات الإسلامية، وممارسة الشعائر المرتبطة بها والمعبرة عن امتداد معاييرها وقيمها إلى ساحة الحياة كلّها. ومن الطبيعى أن يكون العامل الوحى- فى هذا السياق- عامل قوّة ووقاية وأمن

ص: ٣٣١

للإسلام ببعديه الروحي والمفاهيمي، ومدى ارتباط - كلا البعدين - بالمقدسات الإسلامية، على أساس فهم معنى الوحدة، ودراسة سبل إنجازها، ووعيتها في واقع المسلمين حاضراً ومستقبلاً.

ومن المهم جداً - بالنسبة لقضية الوحدة الإسلامية، في إطار وعي معنى الدفاع والجهاد - أن نعي حقيقة أساسية مفادها أن هذه المقدسات، التي تمثل عنواناً إسلامياً بارزاً، هي في الأساس من أهم العوامل الوجودية القوية التي يجب ممارستها والسعي لإنجازها، والعمل على إطلاق سراحها من السجون الطائفية والمذهبية التاريخية المختنقة والمغلقة إلى ساحة الحياة الواسعة، لتنفس الهواء الطلق، ولتكون عملية التزامها - في إطار الحياة - واعية وعاقلة وصلبة في وجه المخططات التآمرية والتحديات المصيرية التي تواجهها امتنا في الوقت الحاضر.

لذلك فإن من واجب المثقفين والدعاة الإسلاميين أن يتحركوا بوعي عميق على الطريق الذي يبرز أهمية الوحدة، وضرورة تعميقها في الذهنية الإسلامية عموماً، لكونها وسيلتنا الوحيدة للحفاظ على مقدساتنا وقيمنا وشعائرننا التي يحاك ضدها - خصوصاً عندما يتم تفسيرها، كما هي في واقعها الأصيل، في خط العدل والقوة والمساواة ورفض الظلم والتبعية والاستلاب والذوبان في الآخر - مخطط استكباري همجي، تمثل بولادة الغدة السرطانية «إسرائيل» في قلب العالم الإسلامي، من أجل ابتلاع أولى القبلتين وثالث الحرمين (مبتدى المعراج ومنتهى الاسراء - القدس الشريف) وخلق أجواء التوتر والخلافات في هذه المنطقة بالذات بغية السيطرة على الطاقات، والإمكانيات الطبيعية والبشرية الموجودة في العالم الإسلامي.

من هنا نؤكد مرة أخرى على أهمية وحدتنا في هذا الظرف العصيب من حياة امتنا، الذي يراد له أن يكون ظرفاً استكبارياً عالمياً بامتياز على أساس منطق القوة والتفرد والهيمنة المطلقة.

وقد لاحظنا مدى القدرة التي يمتلكها الاستكبار العالمي في الوصول إلى

ص: ٣٣٢

مطامعه ومصالحه عن طريق بثّ التفرقة، والضعف، والشقاق في الصف الإسلامي مرّات كثيرة جدّاً بالرغم من السلبات ونقاط الضعف الموجودة في داخله (في داخل قوى الاستكبار).

لذلك يجب علينا أن نستوعب التطوّرات العلميّة «الجديدة- القديمة»، ونتفهم واقعنا جيداً، وندرك تمام الإدراك أن الاستعمار- الذي جزّأ امتنا الإسلاميّة الواحدة، وفكّك قوّتها، وحولها إلى شراذم وعشائر وقبائل متناحرة، وسيطر على معظم مقدّراتها في الأرض والفضاء وفي السياسة والاقتصاد، وربّطها معه باتفاقيات ومعاهدات منفصلة ووثيقة- يريد الآن أن يضمن استمرارية تحكّمه بوجودنا وحرّيتنا، وهيمنته علينا من خلال قيامه بمسح الشخصية الإسلاميّة، وإلغاء الانتماء الرسالي الإسلامي بالالتفاف على المقدّسات والمبادئ والشعائر الإسلاميّة في كل مكان، وتفسيرها بما يتناسب وتحقيق تلك المصالح. ولا حل كائن في الواقع إلّا بالوحدة، وزرع ركائزها ومقوّماتها في النفوس قبل النصوص؛ لأنّها تشكّل الضمانة الحقيقيّة للإطار القيمي وأنساقه الحضاريّة التي تحفظ- من خلالها- حرّمة مقدّساتنا، ونأمن لشعائرنا الإلهيّة أن تنطلق في الخط العام قوّة وحركة مستمرّة.

لهذا كلّ ولغيره آمنت الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران- منذ بداية تفجّر ثورتها الإسلاميّة العالميّة بقيادة الإمام الخميني الراحل رحمه الله- بأهميّة الوحدة- وبالحلّ الإسلامي لجميع قضايا المسلمين في العالم، وبخاصّة القضية الأساس (فلسطين- القدس) من خلال دعوتها إلى وحدة إسلاميّة مدروسة وواعيّة. وقد عبّر الإمام الخميني عن هذا الموقف العملي، وصرّح به في جميع مواقفه وأفعاله الشجاعة الجريئة والحكيمة .. من خلال ما يلي:

تقوية العلاقات وأواصر الاخوة الإسلاميّة بين جميع المسلمين، وتوثيق عرى الصف الداخلي عبر انفتاح كلّ فريق (السنة والشيعة) على الفريق الآخر .. وما اهتمام الإمام الخميني بأداء فريضة الحج- التي تجتمع فيها كلّ الفرق والمذاهب الإسلاميّة- بصورتها

ص: ٣٣٣

الإبراهيمية التي تركز على الوحدة بين المسلمين والبراءة من أعدائهم وأعداء الإنسانيّة إلا دليل عملي وإع تصف به الثورة الإسلامية على أدائها الحدودى وبعدها عن التفرقة والتشردم.. يقول الإمام: «إنّ إحدى الفلسفات الاجتماعية لهذا التجمع العظيم من جميع أنحاء العالم هو توثيق عرى الوحدة بين أتباع نبي الإسلام، أتباع القرآن الكريم فى مقابل طواغيت العالم..». ونحن عندما نقرأ الإمام الخميني فى واقع النهضة الإسلامية فى إيران، لا نرى فيه إلّ قائداً إسلامياً عامّاً نذر نفسه لخدمة الإسلام، ووضع طاقاته ومواهبه كلّها تحت تصرف المسلمين جميعاً.. فهذا هو يقول - وقد حوّل قوله هذا إلى فعل واقعى - عند افتتاحه اجتماعاً لطلاب المدارس العالية: «لقد جئت إلى هذا المكان لأعرض خدمتى عليكم، فأنا خادمكم جميعاً ما دمت حيّاً، أنا فى خدمة الشعوب الإسلامية».

ويقول قدس سره: «كلّنا إخوة، وكلّنا نعيش قلباً واحداً، غاية الأمر أن الحنفى يعمل بفتاوى علمائه، وهكذا الشافعى، وثمة مجموعة أخرى هى الشيعة، تعمل بفتاوى الإمام الصادق عليه السلام، وهذا لا يبرّر وجود الاختلافات.. لا ينبغى أن نختلف مع بعضنا، أو أن يكون بيننا تناقض، كلّنا إخوة.. على الإخوة الشيعة والسنة اجتناب كل اختلاف، فالاختلاف بيننا اليوم هو لصالح الذين لا يؤمنون بالسنة ولا بالشيعة، ولا بالمذهب الحنفى، ولا بسائر الفرق الإسلامية، وهؤلاء يريدون القضاء على هذا وذاك.. فهدفهم بثّ الفارقة بينكم، عليكم أن تنتبهوا جميعاً. إننا جميعاً مسلمون وأتباع القرآن وأهل التوحيد».

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى مستوى الخارج (الإخوة الإسلامية) من أجل الدفاع عن القيم والمقدّسات الإسلامية فى وجه الدسائس والمؤامرات.

يقول الإمام الراحل: «إنّ الدعوة إلى الإسلام تعتبر فى الحقيقة دعوة إلى الوحدة، وهى تعنى أن يكون المسلمون مجتمعين معاً حول كلمة الإسلام..».

والواضح أن هذا الخطاب الحدودى الخميني لم يتغيّر بعد تسلّمه للسلطة فى

ص: ٣٣٤

إيران، ولا نجد- بالنظر إلى ذلك- تمييزاً في التوجه بالعطاء والدعم إلى عموم المسلمين المستضعفين، بين مرحلتى الثورة والدولة. فمن مرحلة الثورة يمكن أن نستذكر النص التالى الذى يوجه فيه الإمام رحمه الله الحديث إلى حكام إيران آنذاك: «ليعلم حكام إيران بأن منهجنا هو الإسلام، وأن رائدنا هو وحدة المسلمين فى أرجاء العالم، وإرساء أسس تحالف رصين مع جميع البلدان الإسلامية للوقوف صفّاً واحداً متراصاً بوجه الصهيونية وإسرائيل وكل الدول الاستعمارية».

أما عندما أصبح قائداً للدولة والمجتمع (منطق الدولة) فإننا نسجل للإمام الخمينى قوله التالى الذى يعلن فيه- وبوضوح تام- وقوف الجمهورية الإسلامية الإيرانية بكل إمكاناتها ومقدّراتها إلى جانب المسلمين فى كل مكان: «إننى أعلنها صراحةً أنّ الجمهورية الإسلامية فى إيران توقف إمكاناتها وكلّ جهودها لأجل إحياء الشخصية الإسلامية للمسلمين فى كلّ أرجاء المعمورة».

لقد كان التطبيق العملى لكلمات وأقوال الإمام الراحل هو الأصل الثابت فى الموقف الشعبى والرسمى للجمهورية الإسلامية، وهو ما تحكيه عناصر ومكونات هذا الخط، بحيث أصبحت مصداقية تجربة التطبيق فى سياسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية تُقاس بمدى التزامها (مجتمعاً ودولة) بنهج ومحتوى الخط الخمينى، وثوابته الروحية والفكرية الوجودية الإسلامية. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مجموعة الإجراءات العملية التى اتبعها الإمام قدس سره فور انتصار الثورة سنة ١٩٧٩، والتى تدلّ على وعى إيمانى عميق وراسخ بقضية الوحدة الإسلامية:

١- مقاطعة الكيان الصهيونى، وتحويل سفارته فى طهران إلى سفارة لفلسطين، ومن ثمّ إلى موقع أساسى لعمل المجاهدين الفلسطينيين بعد استسلام عرفات وأتباعه من منظمة التحرير.

٢- تشديد الحصار وتضييق الخناق على الكيان الصهيونى من خلال إقفال أنابيب البترول، التى كانت تضخ النفط

ص: ٣٣٥

إلى فلسطين المحتلة، مع نسف جميع المعاهدات والمواثيق والاتفاقات الموقعة في عهد الشاه البائد.

٣- رفع درجة المواجهة مع إسرائيل إلى حالتها القصوى من خلال دعوته إلى تشكيل جيش العشرين مليون مسلم لتحرير القدس وجميع الأراضي الإسلامية المغتصبة.

٤- الدعم المادى والمعنوى للانتفاضة الباسلة (سابقاً) ولجميع الحركات الإسلامية- وغير الإسلامية- الثورية التحررية العاملة ضد الكيان الصهيونى وعملائه فى كل مكان.

٥- إعلان الإمام رحمه الله ليوم القدس العالمى فى آخر جمعة من شهر رمضان المبارك، ونقرأ قوله: «إنَّ يوم القدس ليس يوم فلسطين فحسب .. بل هو يوم إحياء الإسلام ..».

وقد يثير الكثير من المتابعين لحركة السياسة الإيرانية حالياً بعض الأسئلة (الإشكالية) عن صدقية التوجهات والسياسات (والنوايا) الإسلامية الراهنة التى دارت (وتدور) حول ضرورة تخلى الجمهورية الإسلامية عن همومها ومشاغها خارج الحدود بذريعة التصدى لأعباء الإعمار، والتفرغ لمتطلبات إعادة البناء الحضارى المدنى !..

.. ولكننا نودّ أن نقول للجميع: بأنّ الإمام الخمينى قدس سره لم يعطِ تلك الاتجاهات أية فرصة لتنمو وتتعمق وتمتدّ داخل إيران، بل قطع الطريق عليها بمجموعة من المواقف المبدئية الثابتة، وحشد لها نصوصاً وأقوالاً متراصة لا تزال موجودة بقوة فى الحركة السياسية الخارجية للجمهورية الإسلامية، بل إنّها تعدّ من أهمّ الشعارات الوحيدة العملية التى سلكت تعابير وطرقاً أخرى، وإنّ بدا ذلك للكثيرين بأنه تراجع عن أسس وثوابت الثورة الإسلامية، على صعيد حركتها الخارجية الداعمة للعدل والتحرّر والوحدة الإسلامية. يقول قدس سره محدّراً المسؤولين فى الجمهورية الإسلامية: «ليعلم المسؤولون أنّ ثورتنا لا تنحصر بحدود إيران، فتورثه شعب إيران هى طليعة وفتاحة الثورة الكبرى للعالم الإسلامى». وعلى هذا المسار

ص: ٣٣٦

الإسلامى المشرق جاءت مبادرات الإمام الخمينى إزاء استمرارية الدعم الكامل للمقاومة الإسلامية الباسلة فى جنوب لبنان، ولجميع فصائل وحركات التحرر الإسلامية فى فلسطين المحتلة.

وعلى الخط نفسه، ولكن بعنوان وبتعبير آخر، جاءت رسالة الإمام إلى غورباتشوف عام ١٩٨٩، وموقفه من كتاب سلمان رشدى، وغير ذلك من المواقف الإسلامية الصلبة والثابتة، بالرغم من كل التحذيات والأخطار والدسائس، مما يعبر عن استمرار نهج العناية والاهتمام الكبير بقضايا وهموم المسلمين، وتخطى الجغرافية الإيرانية.

البعد الإنسانى للوحدة الإسلامية: ويتجلى ذلك من خلال النظرة الإنسانية العالمية التى انطلقت فى خط العدل والحق. ويمكننا، فى هذا المجال، قراءة عناوين إنسانية بارزة فى خطابات الإمام الراحل قدس سره: «إن ثورتنا إسلامية قبل أن تكون إيرانية .. إنها ثورة المستضعفين فى كل أنحاء العالم، قبل أن تتعلق بمنطقة خاصة».

هذا وقد ترسخ الدور الودوى الإسلامى الرائد للجمهوريئة الإسلامية الإيرانية فى الوقت الراهن من خلال إقامة المؤتمرات الفكرية الإسلامية، والاحتفالات المختلفة، وتشجيع المبادرات الثقافية ذات الطابع الودوى، وتنسيق المواقف والأدوار والآراء، وإعلان اسبوع خاص بالوحدة الإسلامية يتزامن مع ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله. وذلك عمل أولى (تمهيدى) يهدف إلى تعميق الوحدة فى النفوس. وقد جاء تأسيس مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية - ضمن الاتجاه نفسه - كلبنة أساسية للعمل الودوى المشترك، حيث تم وضعه موضع التنفيذ الفعلى، والسعى الجدى المسؤول نحو بناء وحدة فكرية وثقافية ثم سياسية فاقصادية. والواقع أن الآمال المعقودة على هذا المجمع كبيرة ولاشك، وهذا الأمر يفترض تحركاً واعياً ومنسقاً من جميع الدول الإسلامية المستقلة فى أكثر من ستين دولة، من أجل دعم هذا المشروع الودوى المتكامل كخطوة أساسية على طريق الوحدة الإسلامية الكبرى

ص: ٣٣٧

التي تشكّل بحدّ ذاتها هدف المسلمين جميعاً على هذه البسيطة. والواضح أن هذا المجمع يحتاج إلى دعم كبير باعتباره باعثاً حيويّاً لنصرة جميع قضايا المسلمين العادلة في كل مكان. على أساس أننا أصبحنا نشهد اليوم بداية إحداث تكتلات سياسية واقتصادية وعسكرية جديدة على أنقاض التكتلات والأحلاف السابقة.

الوحدة الإسلامية وحقيقة السؤال النهضوي الإسلامي عند الإمام الخميني:

في خطاب له وجهه إلى حجاج بيت الله الحرام يقول سماحته: «يا مسلمي العالم، ماذا جرى لكم في صدر الإسلام، على قلتكم هزمتكم القوى العظمى، وحققت وجود الأمة الإسلامية الإنسانية الكبرى، وأنتم اليوم تعدّون ما يقارب المليار نسمة وتملكون الثروات الكبيرة، التي تعتبر رأس الحربة وتعاونون إلى هذا الحدّ من الضعف والإنسحاق في مقابل الأعداء؟ هل تعلمون أن كلّ المصائب التي تعاون منها هي نتيجة التفرّق والاختلاف بين رؤساء بلدانكم وبالتالي فيما بينكم؟..».

تدفعنا الإمكانيات الوحدوية النفسية والشعورية، والطاقات العملية الذاتية- التي تختزنها أمتنا الإسلامية في داخل ذاتها الحضارية، ومنظومتها العقائدية التاريخية، وفي داخل أراضيها الطبيعية- إلى إثارة مواجهة الأسئلة الملحة الراهنة عن واقع المسلمين، وأسباب ما هم فيه من تخلف وتبعية وانقسام. ونبدأ من الأسئلة الأساسية التالية:

لماذا لا- يزال المسلمون في شتّى أنحاء العالم خاضعين وراحين تحت سطوة الحكومات الظالمة المستبدة، والقوى الاستكبارية الكبرى؟! ما هو الحل الموضوعي لهذه «المشكلة- العقدة» التي لا- تزال تفعل فعلها في كلّ مواقعنا وأوضاعنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟! وأين يكمن سرّ قدرة المسلمين في التغلّب على هذه المشاكل المستعصية؟! ثمّ إنّ هناك واقعاً عالمياً جديداً- بدأ بالتشكّل بعد سقوط الشيوعية- يلزمنا أن نبحث عن دور

ص: ٣٣٨

لنا فى خضم صراعاته، ودوائر عمله السياسى والثقافى والحضارى الآن وفى المستقبل .. فهل نبقى فى عزله وتباعد من خلال أجواء ومناخات التفكك والفرقة المسيطرة على واقعنا، على أساس أن لكل واحد منا مشاكله وهمومه الخاصة، أم أن هناك آفاقاً ومنافذ وإمكانات حقيقىة يمكننا الالتقاء عليها كمسلمين نطمح إلى مشاركة فعالة فى المسيرة الحضارية العالمية، وممارسة دور رسالى وتبليغى رائد بين أمم العالم كله؟!

إننا نعتقد أن تلك الأسئلة الإشكالية الخطيرة تعكس هاجس أمية بقيت تعيش - طوال أجيال متعاقبة - على هامش الفعل والانتاج والحياة الحضارية الإنسانية، وهى تبدل الآن قسارى جهدها، وتحاول توظيف واستثمار كل طاقاتها ومواردها على طريق إعادة الوعى الذاتى بالإسلام، وصياغة الفعل الإبداعى الهادف الخاص بالحضارة الإسلامىة، وبالتالى المساهمة الفاعلة فى توليد مجتمع إنسانى تسوده قيم العدالة والمحبة والسلام.

وقد حاول رواد النهضة والإحياء العربى والإسلامى تقديم بعض الإجابات الفكرية والعملية عن تلك الأسئلة منذ نحو قرنين من الزمن

..

ولكنها قلة تلك الطروحات والمشاريع الاستنهاضية التى أشارت إلى موضع الخلل، وسبب المعاناة، وأساس الأزمة. ولعلّ الطرح الفكرى الإسلامى الأصيل للإمام الخمينى قدس سره - المبنى على قاعدة الوحدة الإسلامىة، ومحاولة بعثها وإيقاظها من جديد بين مذاهب المسلمين جميعاً - كان من أبرز التحليلات المعمقة التى ربطت بين الوحدة وبين النهضة. لقد ركز النص الودوى الخمينى - فى سياق وعيه لإشكاليات وهموم المشروع النهضوى الإسلامى - على أن هناك مشاكل أساسية لم تأخذ بعد موقعها الصحيح المميز فى الوعى الإسلامى المعاصر، تقف أمام مسيرة الحركة الودوية والنهضوية الإسلامىة، وتتجلى فى النقاط التالية:

١- انطفاء وركود الطاقة الروحية الكامنة فى الذات الإسلامىة.

ص: ٣٣٩

٢- تمرکز عقده الخوف المصطنع (من الآخر) في نفوس المسلمين.

٣- التبعية والاستلاب وفقدان الشعور العملي الملتهب بالهوية الروحية والثقافية.

لقد أدت تلك العوائق مجتمعة إلى إصابة المسلمين بعقدة الإحساس بالحقارة والدونية بين أمم العالم، الأمر الذي أفضى لاحقاً إلى تكييل إرادتهم، وسلهم عن الحركة والعطاء، وبالتالي انكفاء الأمة عن الانتاج والإبداع، بل وحتى عن مجرد التأمل والتفكير بتغيير الأوضاع المتردية القائمة؛ لأن بناء الإنسان معنوياً، وتقوية إرادته ووعيه الذاتي بالإسلام، وشعوره العميق بهويته المفقودة- مع وجود مشروع هادف ومتكامل البنى والعناصر والإمكانات- هو الذي يشكل القاعدة الصلبة، والمرتكز التكويني الحقيقي لإطلاق وإثارة القدرات الكامنة للإنسان المسلم، وتركيز طاقاته باتجاه الفعل الخارجي المبدع، بعد تحريره من قيود الخوف الوهمي المصطنع والمضخم في الدوائر الظالمة (محلياً وعالمياً) .. وهذا ما يؤكد عليه إمامنا الخميني قدس سره في نصوص كثيرة تفيض بمعاني النهضة الواعية، وتكشف النقاب عن أهمية ودور الطاقة الروحية الإنسانية في مواجهه تعقيدات الواقع، وأزمات الحياة الإسلامية الراهنة. يقول: «إن من أعظم الخيانات أن يجعلوا طاقتنا الإنسانية متخلفة، ويحولوا دون إصلاحها ونموها». وهذه هي مهمة الإسلام الأساسية في أنه «يربى الإنسان ليكون إنساناً في جميع الحالات»، لأن بناء الإنسان الصالح والواعي من الداخل هو الركيزة الحقيقية لبناء العالم الخارجي .. «ويمكن لإنسان صالح واحد أن يربى عالماً بأكمله، ويمكن أن يجرّ إنسان فاسد طالح العالم إلى الفساد».

والواضح أن اكتمال الإنسان السليم لا يتم إلّا بالقضاء التام على الشعور المَرَضِي بالخوف من الآخر. هذا الخوف الذي لا يزال يتحكم وسيطر على نفسية الإنسان المسلم. ونحن نعتقد- في هذا الإطار- أن أنظمتنا السياسية القائمة- التي توزعت في منطقتنا إثر خريطة سايكس بيكو، ومعاهدات الاستقلال- تساهم مساهمة فاعلة في

ص: ٣٤٠

ممارسة النهج النفسى الضاغط ذاته الذى مارسه الاستعمار قبلها، وأراد من خلاله تحطيم نفسيات الشعوب المستضعفة، وقتل إرادة النهوض والاستقلال والحرية لديها عبر ممارسة أساليب القمع والكبت، واتباع سياسة كتم الأفواه، وكنم الأنفاس، وملاحقة الصلحاء والمعارضين، وانتهاك كرامات الناس بطريقة منهجية منظمّة.

من هنا جاء تركيز الإمام الخمينى فى نهضته الوجودية الرائدة على تحرير الإنسان، وتطهير شعوره من هواجس الخوف، وتأكيد على ضرورة أن جهود المخلصين فى أى بلد يجب أن تتجه صوب الشعوب وعموم الناس؛ لتهديم مرتكزات الهيبة الزائفة للقوى السلطوية الظالمة المحلية والعالمية، وإعادة الثقة بالذات الإسلامية.

يقول الإمام الخمينى قدس سره: «عليكم أن توقظوا أبناء الأمة التى ركزوا فى ذهنها خلال سنوات متطاولة عدم إمكان معارضة أمريكا أو الاتحاد السوفيتى (السابق)، ولا زالت هذه الدعاية راسخة فى الأذهان .. عليكم أن تفهموا الجماهير أن هذا الأمر ممكن، وخير دليل على ذلك ما وقع فى إيران».

والأمر لا يقف عند حدّ الخوف من الآخر، بل يتكرّس بشكل أكبر وأوسع من خلال عقدة الانبهار الأعمى بكلّ ما هو أجنبى أو بالتحديد «غربى».

والاستهانة- إلى درجة الاستهزاء المستفز- بكلّ ما هو شرقى وعربى أو بالتحديد «إسلامى». وقد تأطرت هذه العقدة فى الواقع الإسلامى المعاصر من خلال تأثيراتها السلبية على الوعى، وفى السلوك الاجتماعى والسياسى العربى والإسلامى أيضاً، حيث أدّت إلى إيجاد فصل حادّ وخطير بين القدرة والطاقة التى توافرت عند المسلمين، وبين واقعهم المنقسم والمفكّك من خلال قعود المسلمين أنفسهم عن العمل، وانتظارهم السلبى لكلّ شىء من عالم الغرب، كما وأشاعت- تلك العقدة- بعض المفاهيم الاستلابية التى عطّلت إمكانات الحركة، وعمّقت الإحساس الجامد بالأمر الواقع الراهن الذى انغrust فيه بقوة الأنظمة السياسية التغريبية بمختلف اتجاهاتها، وتياراتها،

ص: ٣٤١

ومرجعياتها الفكرية التي أوصلت مسيرة الأمة إلى الغايات والأهداف نفسها التي رغبت بتحقيقها الإدارات السياسية الغربية في واقعنا الإسلامي.

وهنا يعبر الإمام الخميني عن هذه العقدة- ويتابع آثارها النفسية والسلوكية- في نصوص كثيرة نختار منها النص التالي: «نسى المسلمون الشرقيون مفاخرهم كلها ودفنوها .. نسبوا كل شيء إلى الغرب .. نقلوا إلينا كل موضوع من الغرب .. لقد نسينا أنفسنا حقاً وجلسنا مخلوقاً غريباً في مكاننا!».

ونقرأ في نص آخر للإمام الراحل رؤيته الموضوعية الخاصة بتجاوز تلك العقدة، وضرورة تحرير المسلم من نتائجها وتراكماتها التاريخية السلبية التي لا تزال تتكدس بعضها فوق بعض حتى الآن، وذلك من خلال:

أ- تحقيق الانتماء الرسالي الفعال إلى الدائرة الإسلامية (العودة إلى الذات).

ب- التمرد على الضغوطات الغربية، ووجوب مواجهتها ومقارعتها (بحسب الواقع والإمكانات).

ت- تحقيق الحسم السياسي والاجتماعي الداخلي (تغيير أنظمة التبعية والتغريب).

ث- البدء الفوري بإجراءات إحلال النظام الإسلامي كبديل للأنظمة القائمة.

يقول قدس سره: «يتوجب على الأشخاص الموجودين في البلاد الإسلامية، من أولئك المعتقدين بالإسلام الذين تنبض قلوبهم من أجل شعوبهم، ويريدون خدمة الإسلام، يجب أن ينهض كل واحد منهم ببعث شعبه من الداخل لكي تعثر شعوبهم على ذاتها التي افتقدتها، ذلك أن الشعوب التي فقدت ذواتها فقدت في الحقيقة بلادها».

ويبدو أن تحقيق الاستقلال الروحي والفكري أولاً- كشرط مسبق لتحقيق الاستقلال السياسي والتنموي والحضاري من خلال العودة إلى الذات، ووعي طبيعة متغيرات الحياة وتحولات الواقع الداخلي الذاتي والموضوعي- يشكل عند إمامنا الراحل قدس سره المعادل النفسي البديل الذي يقضي على المحتوى النفسي للعقدة، ويجهز عليها، ليحل محله. أي يحل الاعتزاز بالانتماء والهوية مكان

ص: ٣٤٢

الاعتزاز بالغرب والشوق إليه وإلى حمل هويته. على أننا نلاحظ أنّ استعادة الأمة لذاتها وحضارتها لا تقوم في أطروحة الإمام قدس سره على بدائل مفتوحة لا- عدّ لها ولا حصر، وإنّما شرط الاستعادة أن تتمّ بالإسلام المحمّديّ الأصيل الذي يعتبره إمامنا النظام العقلائي الموضوعي البديل عن أنظمة القهر والظلم والتبعيّة التي ساهمت- بحكم تبعيتها واستلابها وتماهيها مع الذات الاستعماريّة الغربيّة- في زيادة حالة الفشل والإفلاس لمشاريعها السياسيّة والتنمويّة، وذوبان الهوية، وترسيخ الأنماط التبعيّة للمركز والمحور الغربي. هذه الظواهر- وغيرها مجتمعة- عمّقت إحساس الشعوب الإسلاميّة المستضعفة بالعجز عن التغيير المنشود، وضاعفت من شعورها بضرورة الالتحاق والذوبان الكامل بالغرب كمشروع إنقاذي وحيد.

لقد استطاع الإمام الخميني قدس سره تحقيق نهضة إسلاميّة راشدة وناضجة، أكسبت الإسلام المعاصر قوّة محرّكة ودافعة باتجاه تجسيد قيم ومبادئ الرسالة الإسلاميّة على أرض الواقع المعاش، في محاولة جادّة ومسؤولّة لإعادة الحياة، وبثّ الروح في طروحاته الرساليّة التي كاد الزمن يضعها طي الكتمان والنسيان.

كما وأثبت- في الوقت نفسه- أنّ الفكر الاجتماعي الإسلامي قادر- بل هو المؤهل حصراً- على قيادة السفينة إلى شاطئ وبر الأمان؛ لأنّه يمتلك ديناميات الحركة والتحول الذاتي الخاص بالدوافع الروحيّة والعملية لمشاعر وإرادات كلّ العرب والمسلمين على طرق التحرير والتنمية والتحديث.

أجل لقد كان إمامنا الخميني الراحل- كما عبّر عن ذلك الشهيد الدكتور فتحى الشقاقى- «الحل والبديل الإسلامي» الحضارى ليس فى الفكر والتغيير والثورة فحسب، وإنّما فى التقريب والوحدة.

خاتمة البحث

إن المنطق القرآنى والعقلائي يفرض علينا أن نسلّك طريق الوحدة فى الواقع العملى للمسلمين؛ لأنّها تشكّل القاعدة الأساسيّة فى التحرك الفاعل والمثمر من أجل مواجهة تخلفنا المفروض علينا

ص: ٣٤٣

(الذى نتحمّل فيه القسط الأوفر من أسبابه ونتائجه) لذلك لابدّ لنا من تهيئة الأجواء المناسبة والظروف الحركية المؤاتية للعمل الودوى، بعيداً عن كلّ حالات الفرقة والتناؤ ومحاولة إيقاف تيار الوددة.

إننا نجد ضرورة ملحة فى مؤازرة ودعم الجهود المضنية الكبيرة التى تبذلها إيران فى إطار رغبتها إقامة علاقات وودوية بين جميع الدول الإسلامية؛ لأنّ الهدف واحد ومشارك وهو لا يختصّ بإيران وحدها، لذلك من المفروض أن تظهر فى الواقع العملى ردود أفعال إيجابية واضحة على تلك الدعوات الصريحة- الصادرة من أعلى هيئات ومؤسسات الحكم الإسلامى فى إيران- من قبل جميع الدول العربية والإسلامية كى يتمّ توفير التربة الخصبة والمناخ المناسب لنمو بذرة الوددة الفكرية والعملية بين المسلمين.

إننا يجب أن نفهم واقعنا جيداً، ونعرف طبيعة متغيراته وتطوّراته السريعة، وننطلق لمتلك- من خلال وحدثنا- كلّ ما يمكن أن يجعلنا قادرين على التحرك الفعّال لمواجهة هذا الواقع المعقّد والمظلم، ولو اقتضى ذلك أن نعانى من مشكلة الزمان، فلا ضير أن نصل إلى هدف الوددة المنشود بعد قرن من الزمان، المهم أن نمتلك المبادرة للانطلاقة المؤثرة والمنتجة، ونبدأ الحركة باتجاه أهدافنا العالية والطموحة من موقع الحوار الإسلامى المنفتح على هدى القرآن وطريقه المستنير، ومن موقع المعرفة الواعية لتحقيق ما يدور فى عالم اليوم والغد.

إننا نؤمن إيماناً راسخاً بأنّ الجدران والحواجز التى أقامها الآخرون بين علومهم وتقنياتهم المتطوّرة- التى يعود الفضل الأساسى فى نموها وإثمارها إلى حضارة العرب والإسلام- وبين واقعنا المتخلف المنقسم، لابدّ من أن نواجهه (بل نفتحه) بالعمل اليومى الحثيث الصادق فى كلّ العناوين والمفردات من خلال الوعى والعلم والعقل وامتلاك أسس التكنولوجيا الحديثة. بالرغم من أن ذلك سيصطدم- لا محالة- بأكثر من مشكلة ومشكلة، لكن الأمر المهم هو البدء الفورى بتحقيق شروط الحسم

ص: ٣٤٤

الداخلي من أجل بناء الاجتماع السياسى الودوى، ثم الانطلاق إلى فتح الثغرات فى واقع الآخرين؛ لأنه من غير المعقول أن نبني جداراً على أساس ضعيف وهشّ ومتخلف يعانى من التبعية والاستلاب للآخر، لاسيّما أن هذا الجدار محكوم عليه بالتعرض للأهوال والعواصف والزوابع التى يثيرها ضده الاستكبار العالمى، وكثير من أصابعه الرجعية فى المنطقة.

إننا نعتقد أنه من الأفضل - بالنسبة للحركة الإسلامية، على طريق انجاز وحدتها - أن تعمل على إيجاد قنوات فكرية وسياسية وإعلامية يمكن أن تفسح المجال للتنسيق فى نطاق خطة مشتركة، أو تصوّر متقارب كوسيلة أولية من وسائل اكتشاف أسس تقاربها ووحدتها مع بعضها فى كثير من الطروحات والمناهج والأساليب بحيث تتمثل أمامها الصورة الإسلامية الصحيحة للمشروع الحضارى الإسلامى العام، مع التنوع فى دائرة الوحدة، أو الوحدة فى خط التنوع مما يسهّل للوحدة ظروفها الثقافية، ويمهّد الطريق لإنجاز بعض ملامحها العامة فى انتظار تكامل مناخاتها وظروفها النفسية والعملية، والوصول إلى مزيد من التعاطف والتواصل والتلاقى على أكثر من قضية كبيرة وهامة. وقد أثبتت التجربة أن من يبدأ بوعى سيصل إلى مبتغاه مهما كانت الظروف صعبة والأجواء معقدة. إننا ندعو - فى هذه الأجواء - إلى اعتماد الحوار الجرىء الهادئ والموضوعى باعتباره هو القادر على إثارة دفائن العقول فى خط الوعى نحو هدف التقريب والوحدة بين المسلمين، كأساس عملى ناهض وقوى لعمل مشترك فى كلّ المجالات الحياتية؛ لأن قيمة الحوار - فى الواقع العملى للمسلمين - مؤثرة وضرورية جداً من حيث كونه مطهراً لنفوس المسلمين من التباغض، والحقد، والعصبية العمياء، وعملاً فعالاً للتبادل الثقافى والمعرفى كمرحلة أساسية لتعميق وإنضاج مرتكزات الأفكار والمعارف من أجل الوصول إلى النقاط الثابتة المشتركة، وبالتالي الإيمان بالحقيقة الواعية والمستنيرة، طبعاً إذا أخذنا بعين

ص: ٣٤٥

الاعتبار أنّ هذا الحوار سيكون منطلقاً من خلال ثوابت القرآن الكريم والسنة الشريفة ومعطيات التاريخ الصحيح من خلال إعادة دراسته بنزاهة وموضوعية بعيدة عن الأهواء النفسية والانفعالية، مع تجاوز الذات، وموضوعية القصد والرؤية والهدف، أى من موقع الفكر لا العاطفة. وهذه الطريقة قد تساهم - إلى حد كبير - فى بناء وتأسيس وحدتنا النفسية الأولى؛ لأنها تؤدى إلى الوحدة الفكرية التى هى القلب النابض للوحدة الإسلامية الشاملة، ثم العمل على ملاحقة التجارب الوجدانية الأخرى فى مجالات العمل السياسى والاقتصادى ..

إلخ، بالرغم من تعقيدات الأوضاع والظروف والمواقف العامة للمسلمين التى يخلقها الاستكبار العالمى (ونحن نشاركه فى ذلك أيضاً) فى كل لحظة كحجر عثره فى طريق الوحدة الإسلامية المطلوبة. وأود التذكير هنا بأنّ النظرة المثالية لقضية الوحدة - التى يحاول أصحابها النظر إلى القضية من المنظار العاطفى فى مستوى الفكر والتشريع على أساس النظرة التجزيئية للدائرة الإسلامية - لا يمكن أن تحقق الأهداف والتطلعات الأساسية للمسلمين على طريق إنجاز وحدتهم؛ لأنّ الأمر يتطلب فى الواقع أن ننظر بعمق إلى المستوى الإسلامى ككيان متكامل فى الفكر والروح والعمل فيما يمثله من قاعدة للفكر والحياة والإنسان.

ونحن نجد أنّ النظرة الواقعية لمسألة الوحدة تتمثل - فى تحد تعابيرها وتجلياتها - فى تلك اللقاءات المتواترة التى تعقد بين القيادة الإسلامية من جهة، وفى وحدة القضايا المصيرية المشتركة والآلام والتحديات القاسية التى تصيب هذا الجسم الإسلامى هنا من جهة ثانية، فيتفاعل معها الجسم الإسلامى هناك.

إننا نجد فى ذلك كلّ حركة إيجابية فى اتجاه الانفتاح الواعى الواسع على الواقع الإسلامى برمته، بتعقيداته وأجوائه الباردة والساخنة، على مستوى العاطفة المتفاعلة مع النتائج السلبية والإيجابية، والموقف الحاسم فى نصره الخط والموقع

ص: ٣٤٦

بطريقه وبأخرى. وربما نجد، وفي هذا المجال، ضرورة في أن ننبه الحركيين الإسلاميين - العاملين في طرق الوحدة والتقريب - إلى أهمية الاستفادة من هذه الإيجابيات الروحية والفكرية الكبيرة، ومحاولة تعميقها ذهنياً وشعورياً وحركياً لتوسيع مدارات التجربة، والإكثار من نماذجها الحية، وإبعاد الأوضاع الفلقة والمواقع المضطربة والمهتزة التي تحاول دائماً - بفعل عناصر التخلف والانقسام المزروعة في داخلها - التركيز المتواصل على مواطن الخلاف والضعف بدلاً من تركيزها على مواقع اللقاء والتوحد والإبداع.

إن الزمن يمرّ بسرعة ونحن لا نزال في حالة السكون، وعدونا شرس ولعين، وهو يفكر دائماً - دون كلل أو ملل - من أجل إحكام سيطرته على مقدراتنا وثرواتنا الروحية والمادية، وهو المستفيد الوحيد من حالة ضعفنا وتشرذمنا وضياعنا في متاهاته، ودهاليز مفاوضاته. ولا مجال أماننا البتة إلا أن نفكر بتأسيس القوة الفكرية والعلمية من خلال وحدتنا، وألا ننهار - كما ذكرنا - أمام قضية الزمن كحالة تبعث في نفوسنا الملل والسكون والاسترخاء والإذعان للأمر الواقع.

نعم .. من الضروري بالنسبة إلينا جميعاً - كعرب ومسلمين - أن نسبق الزمن ونصل بسرعة، لكن الأهم من ذلك أن نعي طريقة الحركة، وكيفيه سلوكها - على أرض الواقع - بوعي وحذر؛ لأن المسألة تتعلق بالأرض لا بالسماء، بالواقع لا بالمثال .. وهذا أمر يقتضي تجنب سياسة القفز فوق الحواجز (التي ستكون حتماً من مصلحة عدونا الذي يحرص دائماً على إثارة خلافاتنا بعناوين بارزة وعريضة) وإدارة أزماتنا وهمومنا الصغيرة والكبيرة.

من هنا نستنتج أن طريق الوحدة الإسلامية ملء بالأشواك، والحفر الحقيقية والعراقل المصطنعة والوهمية. من هذا المنطلق لابد أن نمارس الأ-جواء المحيطة بنا - التي يجب أن نعمل على جعلها تتحرك على خط الوحدة الإسلامية - فكراً حركياً رسالياً يعتمد

ص: ٣٤٧

على الحوار العقلانى الواعى، والإيمان بالله تعالى كأساس للعمل من أجل الوصول إلى أهدافنا الكبيرة.

وهذا بدوره يقتضى من الإسلام والمسلمين - فى مجال الدعوة والحركة والوحدة والجهاد - دراسة الواقع المحلى والعالمى - فى تفاصيله ودقائقه وعناوينه الكبيرة والصغيرة - من أجل مواكبة المسيرة الإنسانية فى تحريك مفاهيم الإسلام وتصورات، وشرائعه، وأساليبه الحضارية بحيث لا يقف غريباً عن الذهنية المعاصرة الحديثة، لأنّ علينا - فى إعلامنا وثقافتنا وسياستنا وتبليغنا الدينى - أن نفهم أن الذهنية لغّة خاصة، تماماً كما هى الكلمات والمفردات الاخرى، فمن لا يفهم ذهنية العصر، وأجواء الحياة الراهنة، لا يفهم خطابها، ولا يدرك طريقة التفاهم مع أهل هذا الزمن.

من هنا تكون الأولوية فى أن نعى ذهنية وروح الواقع العالمى، ونمتلك حسّ المعاصرة؛ لندخل إليه من الباب الواسع والعريض، ليجد إسلامنا - فى داخل هذا الواقع - مكانه وموقعه وامتداده.

وهذه المواكبة أو المساييرة للحياة المعاصرة لا تعنى - بأى حال من الأحوال - أن نتخلّى عن ثقافتنا ووعينا التوحيدى الإسلامى، وشرائط وجوده فى الحياة، ولكنها تعنى - فيما تعنى - أن نستفيد من الإمكانيات والمنافذ المتاحة لنا فى الحياة من أجل الدعوة إلى الإسلام النقى والأصيل، والعمل على تعميقه فى الذهنية المعاصرة من خلال الأساليب المتوفرة بين أيدينا، والتي تؤكّد على ضرورة انطلاقها فى خط الدعوة إلى الإسلام فى العقيدة والشريعة والمنهج والوسائل والغايات من أجل تثبيت الإسلام فى نفوس المسلمين فى كلّ بقاع المعمورة، وإطلاقه فى حياة غير المسلمين؛ لأنّ الخطورة هنا تكمن فى انحسار الإسلام - الفكر، والممارسة، والانتماء، والوحدة، والنهضة - فى الشخصية السليمة بفعل ضغط الأفكار المادية، والقيم الغربية، والمناهج الفكرية المنحرفة التى بدأت تطبق بقوة على العمق الروحى للإنسان المسلم لتبعده عن عقيدته، وفكره، وقيمه الروحانية

ص: ٣٤٨

والأخلاقية، وخطوطه ومناهجه فى السلوك والعمل، وهذا ما يندرج ضمن هدف واحد هو: أن نُطلق الإسلام فى ساحة الحياة الرحبة لتتنفس معه - ومن خلاله - الصحو والنقاء والصفاء، فى دائرة الضوء، ولا نجسه فى العلبه الطائفية والعشائرية المظلمة والضيقه، وبذلك نحزّر أنفسنا، وواقعنا، وحاضرنا، ومستقبلنا، وأجواءنا الرساليه من كلّ أغلال وقيود الآخرين وأوهامهم الذاتيه، من أجل أن نكون الفكر الخصب المعطاء الذى يمتدّ بقوة إلى ساحات الحياة والإنسان ليوحى، ويحاور، ويؤسس للمستقبل المشرق والمضىء، بعيداً عن دهاليز التجريد الحالم والمخلق عالياً فى الفضاء فى أوهام الخيالات الوردية.

من هذا المنطلق نؤكد على أنّ الإخلاص للإسلام، وقضية الوحدة، والانفتاح المدروس على الواقع الحاضر وعلى جميع القضايا الكبيرة التى جعلها الله تعالى أمانه فى أعناقنا ورضينا نحن بذلك - يقتضيها، أولاً وأخيراً، أن نضحى بكثير من الجوانب المتصلة بأحداث وتواريخ وأوضاع إسلاميه ماضيه وراهنه .. وقد عشنا هذا الأسلوب مع الإمام على عليه السلام فى وعيه العميق لطبيعته الأجواء السلبيه التى ترافقت مع انتقال الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى. حيث يتحدث الإمام - عن تلك المناخات المتوتره، وموقفه الرصين منها - قائلاً:

«.. فما راعنى إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه فأمسكتُ يدي حتى رأيت راجعه الناس قد رجعت عن الإسلام يريدون مَحَقَّ دين محمّد صلى الله عليه وآله، فخشيتُ إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبه به على أعظم من فوت ولايتكم هذه، التى إنّما هى متاع أيام قلائل يزول منها ما زال كما يزول السراب، فنهضت حتى زاح الباطل وزهق، واطمأنّ الدين وتنهنه ...».

والواقع أنّ هذه الكلمات - وغيرها من المواقف العمليه لأهل البيت عليهم السلام جميعاً - تبعث فى نفوسنا إيجابيه التعاطى مع الإسلام كلّ فى مواجهه الأخطار الكبيره التى تقف أمام تقدّم الإسلام والمسلمين حالياً، والتى هى أشدّ وطأه

ص: ٣٤٩

من التحديات والأخطار التي واجهت الواقع الإسلامى سابقاً .. وذلك هو وحده الذى يفرض علينا الانفتاح بعضنا على بعض (كمسلمين) فى الساحة الإسلامية الكبرى؛ لنكون جزءاً من الأمة فى قضاياها المصيرية الكبيرة، لنلتقى - عندما نلتقى - من موقع الوعى الذاتى بالإسلام لمصلحة الإسلام، ولنختلف - عندما نختلف - من موقع الإسلام لمصلحة الإسلام، لنعطى قضية الإسلام كل ما عندنا من فكر وحركة وجهاد وإيمان وأصالة، ولنستجيب لنداء الله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون.

من هذا المنطلق نقول: بأنه إذا ما أراد العرب والمسلمون أن يبقوا - الآن وفى المستقبل - أحياء بالمعنى الروحى والاجتماعى الحضارى فيجب - على نهج وخطى وطريق هذه المقاومة - أن يسيروا وينتجوا ويدعوا، وأن يتحركوا فى الاتجاه نفسه الذى انطلقت وتحركت عليه الجمهورية الإسلامية وثورتها بقيادة الإمام الراحل الخمينى العظيم قدس سره والسائرين على خطه المبارك، من حيث وعيها الإسلامى الملتزم والفعال لقضايا وهموم الواقع الإسلامى المعاصر بتحدياته ومتغيراته ومستجداته السريعة والمتلاحقة، إضافة إلى تحملها الكبير لمسؤوليات بناء وإنجاز مواقع صمود ومواجهة قوية وفاعلة فى وجه تعقيدات هذا الواقع. وأنا أتصور - فى هذا السياق - أن من مصلحتنا أن نبادر فوراً إلى فتح المغاليق النفسى والفكرى والسياسى مع هذه الدولة الإسلامية، وبناء علاقات التفاهم والحوار، والتعاون معها على ركائز الأخوة الإسلامية الحقيقية - التى هى المركز الهام فى حياتنا الإسلامية - بما يقطع الطريق على أعداء الأمة، ويمنعهم من التدخل السافر ضد هذا الطرف أو ذاك.

إذاً ثمة خطأ استراتيجى بالنسبة إلينا يجب أن نتداركه من لحظتنا الراهنة، وإلا فإن استمرار هذه القطيعة وذلك الخطأ الفادح، سيحقق لأعدائنا وحلفائهم والدائرين فى فلحهم مصالحهم فى المنطقة من خلال تعزيز

ص: ٣٥٠

سيطرتهم المباشرة على مقدّرات وثروات الأمة الإسلامية، وتوفّر لهم الشرعية بالتحرك في أجواء ومياه منطقتنا الإسلامية. إننا نقول، توخياً لعدم الإطالة: إنّ إيران- بعد انتصار الثورة الإسلامية فيها- ليست لوحه صعبه ومعقّده الفهم، ولا يحتاج فهمها إلى كبير جهد، بل يحتاج- فيما يحتاج- إلى وعى حضارى وإنسانى، وإرادة قويه واعيه تتحرّك مستقله، من دون أخذ الموافقات (الأوامر) من الآخرين أعدائنا وأعداء مبادئنا.

نحن نفهم أنّ ما يكفى الجمهورية الإسلامية تحضراً، وفخراً، ووعياً حضارياً، ومسؤولية أمام الله تعالى وأمام الأجيال العربية والإسلامية الصاعدة، هي أنّها لا تزال تقف وتساند وتدعم بلا حدود- بالرغم من الأطواق الأمنية والاقتصادية والضغوطات السياسية المفروضة، التي استطاعت التغلب عليها وكسر حلقات عزلتها من خلال ممارسة سياسة الانفتاح والذكاء والوعى السياسى الخارجى ومعرفتها بمشاكل أمتنا ومايحيطيها من مصاعب ومؤامرات وخطط إجراميه تريد النيل منها بل الإطاحه بها وإلغاء وجودها كأمة قويه ذات تأثير فى العلاقات الدوليه وقادرة على الوقوف على قدميها والنهوض لبناء مستقبلها وحضارتها كما أرادت لها السماء ذلك. إنّها أمة جديرة بحمل أمانة السماء وتأديتها خير أداء إذا ما أحسنت إيمانها بعقيدتها الإسلامية والتزمت بمبادئها التزاماً قوياً ولم تخش فى ذلك لومة اللائمين، ومؤامرات الحاقدين، ومخططاتهم التي ما انفكوا عنها من أجل تقويض كياننا الإسلامى ووجودنا. نسأله تعالى أن يمدّنا لتحقيق كلّ ذلك بقوة وسداد.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
 جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
 قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ
 كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنَادِرُ الْبَحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرِّضَا(ع)، الشيخ
 الصَّدُوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصبهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه
 المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولا سيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و
 بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠
 الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تَتَبَّعَ بِأَقْوَى و أَحْسَنِ مَوْقِفٍ كُلَّ يَوْمٍ.
 مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشِطَتَهُ من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)
 تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دامَ عَزَهُ - و مع مساعيدته جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب
 الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و
 عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل
 (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافته على أساس معارف القرآن و اهل البيت
 -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواء برامج العلوم
 الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
 - منها العدالة الاجتماعية: التي يُمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يُمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات -
 في أكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
 - من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبيه، قابلة للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد
 جَمْعَرَان و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" ومفترق "وفائي" / بناءة "القائمة"
تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ والله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩